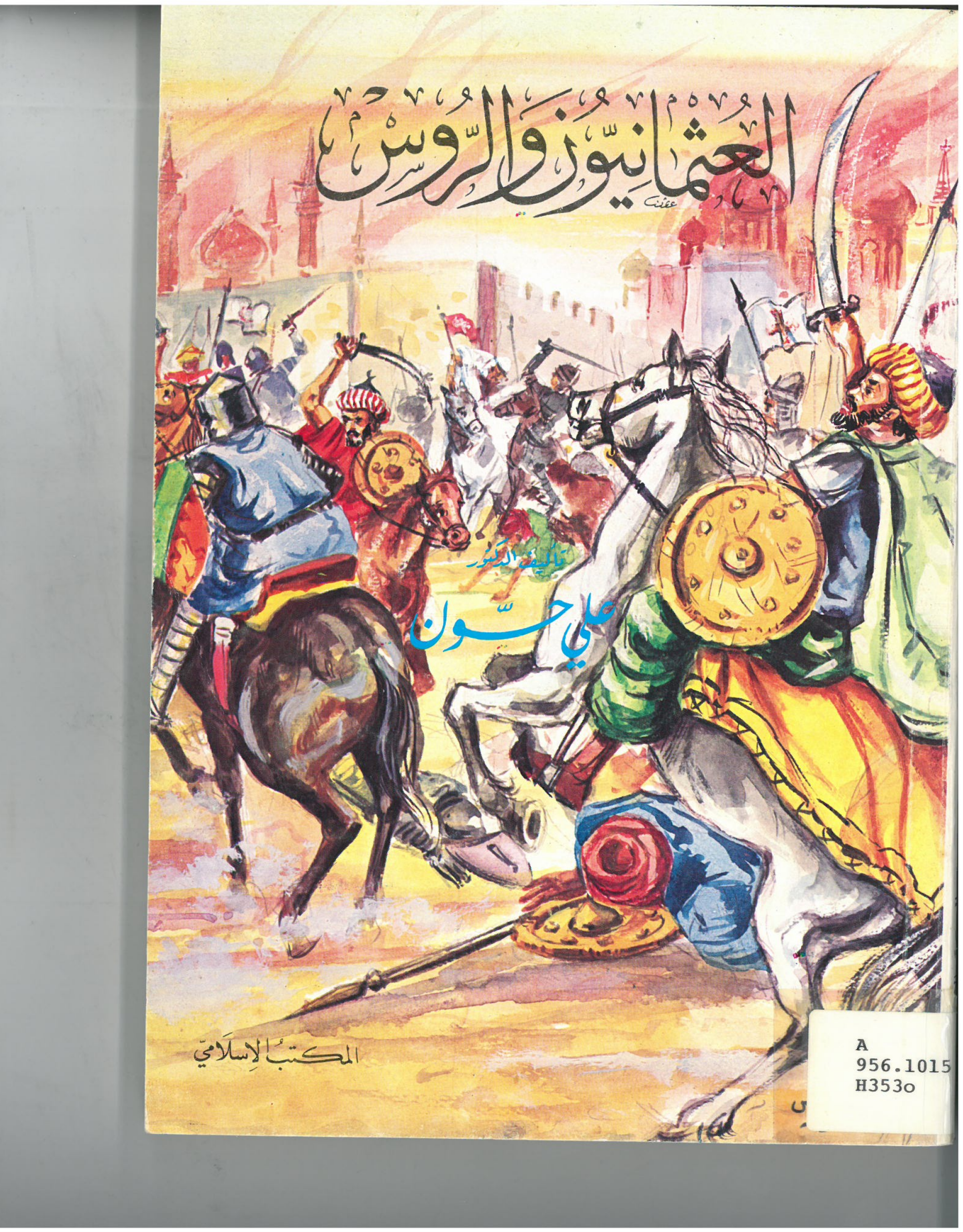


العثمانيون والروس

تأليف الدكتور

علي حسون

المكتب الإسلامي

العثمانيون والروس

تأليف الدكتور

علي حسون

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

المكتب الإسلامي

بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقياً: اسلاميا

دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقياً: اسلامي

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد -

وبعد

فهذا كتاب العثمانيون والروس قمت بجمعه بعد إصدار كتاب الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية الذي تعرضت فيه بصورة خاصة للعلاقات بين أوروبا والعثمانيين دون التفصيل عن جانب الروس وما جرى بينهما. وكان من الضروري شرح هذا الجانب من العلاقات، الأمر الذي حاولت التعرض له في هذا الكتاب وخاصة من الناحية السياسية والعسكرية.

من المعلوم أن العداء العثماني الروسي الذي شغل مدة متطاولة من تاريخ الدولتين كان يمثل في صفحته العريضة واقعاً عملياً جسد التناقض الفكري بين الأمتين انطلقت الأولى في تحركها من الانتماء للإسلام بينما كانت الأخرى تعمل من وحي المعسكر المعادي. حرك العثمانيون عامل الجهاد في توسعهم شرقاً وغرباً وجنوباً فكان هذا مبعث الغزو والفتوحات التي مثل فتح القسطنطينية منعطفها التاريخي الخطير. وتوسعت رقعة الدولة إلى أن بلغت منعطفها الآخر عندما وقف الجنود بقيادة سليمان القانوني أمام أسوار ڤيينا وتكرر الأمر مرات

عدة حتى وصل العثمانيون المنعطف الحاد المعاكس في توقفهم الأول أمام جيوش بطرس الأكبر وحصول صلح كِينابرجي. هذا من جهة، أما من حيث الدوافع الكامنة وراء النوايا الروسية فكانت في الحقيقة تحمل طابعاً توسعياً استعمارياً تحركه الأحقاد الكامنة في استرداد القسطنطينية من أيدي العثمانيين المسلمين. وبينما كان العثمانيون ينحدرون في وهاد الضعف والإنحطاط التي ساقهم إليها الأعداء، رغم محاولات الإصلاح، كان الروس في تقدم مستمر وتوسع واكب عصر الغزو الاستعماري الغربي لبلدان آسيا وإفريقيا وخاصة أقطار العالم الإسلامي. فكان الغرب الذي تمثله أوروبا من جهة وروسيا من الجهة الأخرى يعمل معاً لتحطيم الدولة العثمانية حتى تحقق هدفهم المنشود بعد الحرب العالمية الأولى.

وقد قسمت الكتاب إلى ثمانية أبواب تحدثت في أولاهما عن نشأة العثمانيين والروس حتى فتح القسطنطينية. ووقفت في الباب الثالث على مصادر العداء العثماني الروسي. أما تفاصيل الوقائع الحربية بينهما فقد أعطيتها بعضاً من التفصيل في البابين السادس والسابع مع شرح للمعاهدات المبرمة. وأخيراً فإن محاولتي في هذا الكتاب لا تخلو من الهفوات وبعض الأخطاء من غير قصد. أرجو من الله التوفيق وأشكر لمن ساهم في هذا الكتاب والله من وراء القصد.

٢٣ رمضان عام ١٤٠١ هـ

الفصل الأول

لمحة تاريخية عن الروس

الروس وتاريخهم حتى فتح القسطنطينية:

سكنت الشعوب الهندية الأوروبية والألطائية ما يعرف اليوم بالقسم الغربي من روسيا الأوروبية، وذلك منذ الألف الثاني قبل الميلاد. ولا نعرف عن ذلك التاريخ إلا النذر اليسير. ومنذ القديم الغابر وُجِدتْ مستوطنات اليونانيين والإيرانيين في معظم الأجزاء الجنوبية لما يعرف اليوم بجمهورية أوكرانيا السوفياتية. وفي القرون الأولى التالية للميلاد سكن السلاف الشرقيون الأراضي الممتدة من جبال الكربات غرباً حتى أعالي نهري الفولغا وأوكا شرقاً، ومن بحر البلطيق شمالاً حتى مصب نهري الدنيبر والدانوب جنوباً، أي القسم الذي تقع فيه روسيا اليوم.

ومارست تلك الأقوام الزراعة والرعي، وتعاطى بعض أبنائها مهنة الحدادة ومارس الآخرون بعض الصناعات مثل صناعة الفخار والنسيج اليدوي. وتاجرت معهم الشعوب والقبائل المجاورة كالعرب والبيزنطيين

الشرقيين ، واستثمرت الغابات الشمالية وخاصة في المثلث المتشكل بين نهري الكاما والفولغا .

وفي القرون القليلة التي سبقت الهجرة اكتسحت قبائل القوط والجر والآفار والهون ، أراضي تلك الشعوب . فتحركت قبائل القوط الألمان ، إبان القرن الثاني قبل الهجرة من أراضي البلطيق باتجاه البحر الأسود وهي تهاجم السلاف حتى تمكنوا من إيقاع الهزيمة بهم ، وأسروا قائدهم وعلّقوه على الصليب . ولم يلبث الهون الذين تدفقوا من مناطق بحر الخزر أن فرّقوا القوط . ثم اجتاحت موجة الآفاريين الرُّحل مناطق البحر الأسود ، ولكن سرعان ما هزمت على أيدي السلاف أنفسهم والذين لم يلبثوا أن تعرضوا لخطر قبائل الخزر التي كانت تشكل دولة قوية في مناطق الفولغا السفلى وبحر آزاق (آزوف) . وأرغم السلاف على دفع الجزية ولم يتمكن النورمانيون الذين تحركوا من شبه الجزيرة الإسكندنافية من تحقيق نصر حاسم وصُدّوا على أعقابهم .

كانت عقيدة السلاف الروس تقوم على عبادة الأوثان وتصديق الخرافات . واتصفت أجسامهم بالقوة وطول القامة وبياض البشرة ونصاعتها . وقد سكن إلى جوارهم قبائل تتار الفولغا ، وشعوب الماري ، والموردفيون ، وأسلاف الأستونيين واللاتفيين الذين يرجعون في أصلهم إلى قبائل البلطيق الجنوبية . امتدت تلك المدة الصامتة مما قبل التاريخ إلى حوالي القرن الثاني للهجرة ، حيث جرى اختراق المنطقة من الشمال والجنوب من قبل التجار الأوروبيين المغامرين ، مما أدى إلى تعرضهم لتأثيرات اقتصادية وثقافية وسياسية جديدة .

الدولة الروسية القديمة : (روسيا كييف)

أشارت الوثائق الأثرية القديمة التي اكتشفت في شرقي أوروبا إلى أن تطور السلاف الشرقيين قد مر في بضعة مراحل . ومع اختراق التجار لمنطقة الفولغا

بدأت الاكتشافات . ثم انطلقت العصابات الجرمانية العسكرية ـ المحتمل أنها كانت تبحث عن طرق جديدة ـ باتجاه الشرق ، من قواعد في مناطق مصبات أنهار منطقة البلطيق الشرقية . وبدأت باختراق أراض مأهولة من قبل القبائل السلافية والفنلندية ، حيث يتوفر العنبر والفراء والشمع والعسل والأخشاب . ولم يكن هناك من سلطة معتبرة باستطاعتها إيجاد التوازن التجاري بين سكان المناطق الغربية حيث نشط القراصنة الإسكندنافيون .

وفي الوقت نفسه نشطت في جهات الجنوب المنظمات التجارية المتمركزة في شمالي إيران والوافدة من شمالي إفريقيا ، وهي تبحث عن المنتوجات نفسها ، وخاصة في مناطق الفولغا السفلية والدنيبر ، إضافة إلى الدعاة المسلمين الذين انطلقوا من البلاد الإسلامية كما تخبرنا المصادر الإسلامية والعربية . ثم بدأت الاتصالات مع نهري الدنيبر والدون بالذبول . بينما انتعش النشاط في الفولغا الشمالية . وأقام التجار الإسكندنافيون الذين كانوا يعملون من قبل في قواعد على بحيرات لادوغا وأونيغا مركزاً جديداً لهم قرب (ريازان) . وفي هذه المدة ذكرت لنا المصادر الإسلامية والغربية اسم الحاكم الروسي الأول وعدّ ذلك الزمن ، البداية الحقيقية لظهور دولة كييف .

ومنذ أكثر من ألف سنة أبحر القراصنة الإسكندنافيون عبر أنهار شرقي أوروبا في أراضي الشعوب السلافية التي دعت أولئك الغزاة بالفرنجة ، وقد دعاهم السلافيون عام ٢٤٦ هـ كي يلعبوا دور صانعي السلام .

ويظن أن روريك[1] واثنان من إخوته وصلوا جميعاً مع أقربائهم

---

(١) روريك هو المؤسس الشبه أسطوري للأسرة الروسية الروركية ، وأمير القراصنة السكندنافيين الذين دعاهم شعب نوفوغورود بعد أن أنهكته النزاعات السياسية عام ٢٦٦ هـ كي يقيم حكومة نظامية وعادلة هناك . قدم روريك وحاشيته الكبيرة وأخويه من شبه الجزيرة الاسكندنافية أو من الدانمارك ، وسيطر على مدينة لادوغا عام ٢٣٩ هـ ثم اتجه جنوباً بمحاذاة الفولغا =

واستوطنوا نوفوغورود. وسرعان ما عرفت هذه المنطقة المحيطة بالمدينة باسم بلاد الروس.

وكان الفرنجة يتاجرون من جهة ويحاربون السلاف من جهة أخرى طوال المدة التي سبقت عام ٢٤٦ هـ. ومن المحتمل أخذهم السُلف النقدية لتطوير مدينتي نوفوغورود وكييف، اللتان تشكلت منهما دولة كييف.

ظهور كييف:

مع ظهور (سفياتوسلاف)[1] بدأ تاريخ أول دولة سلافية شرقية. وقد

= واستولى بعدها على نوفوغورود. ويحتمل أن يكون قد استخدم هو وجيشه المؤلف من المرتزقة لحراسة الممرات المائية لنهري الفولغا والدنيبر. ثم انقلب أولئك المرتزقة ضد رؤسائهم، وأوجد (أوليغ) وهو أحد أقارب روريك إمارة كييف الكبيرة. وعُدَّ (إيغور) المعتقد أنه ابن روريك وخليفة (أوليغ) المؤسس الحقيقي للأسرة الروسية الروركية.

(١) وهو ابن إيغور السابق الذكر. تولى الحكم بعد والدته (أولغا) من عام ٣٣٠ ـ ٣٥٩ هـ. وفي عهده توسعت رقعة الأراضي كما امتدت في عهد ابنه فلاديمير الذي حكم من عام ٣٦٧ ـ ٤٠٢ هـ أكثر فأكثر.

أما فلاديمير الأول هذا فقد ولد في كييف عام ٣٤٢ هـ أو بالقرب منها. توحدت في عهده المقاطعات في دولة روسية واحدة. وهو ابن سفياتوسلاف السابق الذكر من إحدى غانياته. انتحل النصرانية ومارس الطقوس البيزنطية دون الشعائر النصرانية الجرمانية. أجبر على الفرار إلى اسكندنافيا حيث تلقى المساعدة والدعم هناك من أحد أقاربه، ثم أخضع في عام ٣٦٧ هـ المنطقة الروسية الممتدة من أوكرانيا إلى بحر البلطيق، وحصَّن الحدود ضد غارات البلغار والبدو الشرقيين.

وعلى الرغم من وجود النصرانية قبل زمنه في كييف فإنه شخصياً بقي وثنياً، وتزوج سبع زوجات وبنى المعابد، وقد ذكر أنه مثل دوراً في الطقوس الوثنية المتضمنة تقديم القرابين البشرية. وإبان الثورات البيزنطية التي أحدثت اضطرابات خطيرة.

بحث الأمبراطور البيزنطي باسيل الثاني عن مساعدات فلاديمير العسكرية فوافق الأخير مقابل زواجه من أخت باسيل المدعوة (آنا) ومن هنا حصل التحالف بينهما وخاصة بعد قبوله مقابل ذلك اعتناق النصرانية من أجل تأمين مصالحه ورغباته.

مكنته انتصاراته على بقية الإفرنج والخزر وبلغار الفولغا، ومداخلاته في نزاعات بلغار الدانوب البيزنطيين عام ٣٥٥ ـ ٣٥٨ هـ، من بسط زعامته على أفراد عشيرته في بلاد الروس. ولم يكن (سفياتوسلاف)، رجل إدارة بل كان رجل حرب.

وبعد موته تولى السلطة ابنه (فلاديمير) الذي أرسى دعائم الدولة، وأقام النظام السياسي الوراثي، وحكم الأراضي الروسية المتبعثرة ووحدها. كما أنه نشر أول قانون، ودعا بطريركية القسطنطينية لتبني كرسياً أسقفياً في بلاد الروس عام ٣٧٥ هـ[1].

وكانت النصرانية البيزنطية قد وجدت قبل هذا التاريخ بمئات السنين، وبعد انتشارها هنا بدأ الأمراء الروس ورجال الكنيسة بإنشاء الهياكل الفخمة

---

(١) يقول توماس آرنولد في كتابه «الدعوة إلى الإسلام»، حاول البلغار التأثير على فلاديمير في حينه كما تحدثنا الروايات الروسية. إذ رأى أنه لا بد له من اختيار دين آخر غير الوثنية. وكان الختان هو العائق الرئيسي الذي حال دون تحوله إلى الإسلام، إضافة إلى تحريم الخمر. وحاول اليهود استمالة الملك الروسي إلى اليهودية، وأصغى فلاديمير إلى حججهم، سألهم عن بلدهم فقالوا بيت المقدس ولكن الله شتت شملنا في كافة أنحاء العالم غضباً منه علينا. فصاح إذاً فقد بؤتم بلعنة من الله، ومع ذلك فأنتم تريدون أن تعلموا غيركم. اذهبوا فنحن لا نريد مثلكم ألا يكون لنا وطن.

أما التعاليم النصرانية فقد تأثر بها فلاديمير، حين رسمت له صورة معينة من قبل قسيس إغريقي، استعرضت بدء الخليقة وفناء الإنسان، واليوم الآخر والجنة والنار... ومع ذلك جمع فلاديمير زعماء بلاده وطلب المشورة فأشاروا عليه بتقصي الحقائق عن كثب. وطافوا في أرجاء الدنيا ووصلوا إلى القسطنطينية والتقوا بالأمبراطور. وذهبوا إلى كنيسة أيا صوفيا. ووجدوا البطريرك مرتد ملابسه الرسمية وهو يحتفل بقداس. فأخذ من لبهم فخامة البناء، وأناقة اللباس الكهنوتي وزخارف المذبح، ورائحة البخور والاحترام والخضوع. فأعجبوا وعادوا إلى كييف، وامتدحوا الكنيسة في حماسة وغيرة وقالوا: «إن كل رجل ذاق شربة حلوة سوف يعاف من الآن أي شراب مر المذاق. ومن أجل هذا لا نرغب بعد أن وقفنا على عقيدة الكنيسة الإغريقية... في أية ديانة أخرى...».

والأديرة في كل مكان، كما ألحقوا المعمدات بتلك الكنائس بغية إرغام الوثنيين على اعتناق النصرانية قسراً وبالقوة والإكراه. ولكي يوفقوا بين الشعب والدين الجديد أخذ رجال الكنيسة بإقامة هياكلهم في أماكن المعابد الوثنية التي هدموها.

وقامت انتفاضات عديدة صد الأساقفة، إذ ورد في الملحمة الشعرية الشعبية الروسية التصوير الأصيل للسخط على سياسة الأمير فلاديمير الكنسية.

وكان حكمه يمثل المدة الذهبية في حياة كييف، وقد جعل طول العهد الذي قضاه في الحكم من السهولة على ابنه (ياروسلاف) الذي حكم حوالي ٢٤ سنة، أن يقيم حياة ثقافية مزدهرة، وأن يعيد بناء كييف على الطريقة البيزنطية وأن يحصّن عاصمته، ولكنه لم يكن قادراً على ترسيخ دعائم حكمه على الرغم من الانتصارات التي حققها ضد أخيه. وبعد وفاته زالت صفات القرصنة التي ميزت الاسكندنافيين وتلاشوا بصورة تقريبية. تحرك البدو الأتراك داخل السهوب الجنوبية نتيجة المنافسات المريرة في القرن الحادي عشر الميلادي، ثم تبعهم الكيشان أو (الكومان)، وحدثت بعض التحالفات بين الفروع الحاكمة والترك. وبعد حروب عديدة اتفق الجميع على تقسيم كييف فيما بينهم، على الرغم من بعض المحاولات لإعادة توحيدها. ثم تدهور الكثير من مناطق الحدود، وعانت كييف من الهجوم الكبير الذي شنه الغزاة الكومان الذين قدموا إليها من الشرق عام ١٠٩١م الموافق ٤٨٤ هـ.

اضمحلال كييف:

اعتمدت أهمية كييف على عاملين:

١ - التحالف من أسرة الروريك.

٢ - عامل التجارة الجنوبية.

وقد بدأ كلا العاملين في التدهور خاصة بعد التحول الواسع لطرق التجارة باتجاه شرقي البحر الأبيض المتوسط إبان الحملة الصليبية الأولى عام (١٠٩٦ - ١٠٩٩م)، الأمر الذي قلل من أهمية الطرق التقليدية الشرقية الغربية، وبالتالي عاد اتصال البلطيق بالبحر الأسود ذا أهمية قليلة وغير ضرورية. كما أخذت القوافل تتبع الطرق البرية عبر أوروبا الوسطى.

اكتسب الصراع مع أمراء الروريك طابعاً إقليمياً انفصالياً عَكَس نمطاً جديداً في تجارة التصدير عبر الطرق الشرقية والغربية المحيطة. وبدافع السيطرة الأجنبية ونتيجة العوامل السابقة، اتجه أبناء كييف في محاولة للبحث عن الحل الأسلم، وانجذبوا نحو مناطق أكثر إغراءً في جهات الشمال الشرقي حيث موسكو وسوزدال وفلاديمير.

ووصلت كييف إلى نهايتها المحققة بعدما نهبت من قبل دوق سوزدال الذي التفت نحو الفولغا العليا بعد أن لمس عدم الفائدة من تنصيب نفسه في العاصمة السابقة. وبحلول منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، تحولت معظم الإمارات بدافع الرفاه من جهة والسيطرة الأجنبية من جهة أخرى، إلى وحدات سياسية واقتصادية مستقلة.

بلاد الروس:

برزت مدينة (نوفغورود) في القرن التاسع الميلادي كإحدى المراكز الأولى في مجال استثمار غابات الأراضي التالية لها. وكانت تشكل المركز التجاري الأكثر أهمية في تاريخ كييف وفي إبان ازدهارها، كما احتفظت بأهميتها حتى بعد انحطاط كييف، نظراً للنشاط المتزايد الذي قامت به رابطة الهانسياتيون من جهة، ولتطور منطقة الفولغا العليا - حيث المنفذ التجاري الضخم - من جهة أخرى.

وأثناء مدة النمو المتعاظم في قوة كييف : حكمت نوفغورود ، وفي أغلب الأحيان من قبل ابن الأمير الكبير ، ثم أعلنت استقلالها بعد اضمحلال كييف . واستمرت على الرغم من قبولها مبدأ حماية الأسر المجاورة المختلفة، في ذلك ، حتى تم خضوعها لسيطرة موسكو .

في أثناء القرن الثالث عشر الميلادي ، تواطأ أغنياء نوفغورود مع الغزاة المغول ، واندفع القراصنة الذين تقدموا ضمن الأنهار إبان ذلك شمالاً وشرقاً باتجاه الأورال وحتى أسفل الفولغا . وحتى حلول الثورة التجارية التي حدثت في القرن السادس عشر الميلادي ، لم يتوقف ازدهارها بصورة عامة .

وبتأثير من إمارات موسكو النامية فقدت فوفغورود استقلالها السياسي عام ٨٨٣ هـ ، وتغير بناؤها الاجتماعي على الرغم من استمرار نموها الاقتصادي والثقافي . وقد حكمت من قبل أبناء الأسر التجارية الكبيرة ، التي سيطرت على الأراضي الخلفية ، إذ اختارت هذه من بينها محافظاً وقائداً عسكرياً ومجلس شيوخ لإدارة شؤون المدينة وأراضيها . وأضيف مجلس آخر لا أهمية له ، سيطرت عليه الدولة . ولعب الأسقف الذي سيطر على البلاد منذ عام ٥٥١ هـ دوراً سياسياً بارزاً .

ففي الشمال الغربي سيطرت الإمارة الكبيرة (ليتوانيا) ذات الطابع الدولي ، على كثير من أراضي الإمارات الأخرى . وكانت الأسرة الحاكمة - الأجنبية الأصل - ذات طابع وثني ، وهيمنت على سكان روسيا البيضاء وأوكرانيا .

وبحلول القرن الخامس عشر الميلادي ، أصبحت ذات ثقافة سلافية ، كما حكمها في أوج قوتها (ڤينوس) من عام ٧٩٤ هـ - ٨٣٤ هـ . وشمل نفوذها كامل أراضي كييف التي تشكل في وقتنا الحاضر معظم ليتوانيا ومولداڤيا وروسيا البيضاء وأوكرانيا . واشتملت الإمارة الكبيرة في عام ٧٨٧ هـ كامل بولندا ،

بعد توثق صلات القربى نتيجة زواج الأمير الكبير بالملكة البولندية .

وسكن الشمال الشرقي - الذي يُحد بنهري الأوكا والفولغا ، والذي عرف فيما بعد بقلب إمارة موسكو الكبرى - وقبل وصول السلاف من نوفغورود والمنطقة البلطيقية ، من قبل قبيلة فنلندية ، اختلط بها العائدون السلاف الجدد . وفي البداية كان مركز الإمارة (رستوف) ، ومنذ عهد فلاديمير ، ثم أصبحت تلك البلاد في القرن الثاني عشر الميلادي تابعة لإرث الفرع الأصغر لعائلة (فلاديمير مونوماخس)[1] الذي أوجد مدينة فلاديمير عام ٥٠٨ هـ ، والتي تحولت إلى عاصمة إمارة فلاديمير . وتحت حكم ابنه ثم حفيده وصلت إلى مراحل لا بأس بها من التطور السياسي والثقافي طيلة ذلك القرن .

وفي مستهل القرن السادس عشر الميلادي وجدت إمارة موسكو كإقطاعية داخل إمارة فلاديمير الكبيرة . وازدادت أهميتها تحت حكم (ميخائيل خوروبريت) الذي جعل من نفسه أميراً على كلي المركزين عام ٦٤٦ هـ .

وبلغ تفوق موسكو أقصى ذروته ، إبان حكم (دانيال بن إيفان) الذي تعاون مع الأوزبك كما سنرى بالإضافة إلى عوامل أخرى .

وكان الجنوب الغربي يضم أراضي غاليشيا وڤوليشيا . وهو يغاير إقليم كييف اقتصادياً وجنسياً . وبينما كانت كييف آخذة بالتلاشي ، كانت غاليشيا - الإمارة المنفصلة عام ٤٩٤ هـ - تنمو باضطراد .

---

(١) فلاديمير مونوماخس : ولد عام ٤٥٥ هـ قرب كييف . كان الأمير الكبير لكييف منذ عام ٥٠٧ هـ حتى عام ٥١٩ هـ . وهو ابن الأمير الكبير ڤسيڤولود الأول الذي حكم كييف. أما أمه فهي إرينا ابنة الأمبراطور البيزنطي قسطنطين التاسع مونوماخوس . وقد تورط بالنشاط السياسي الروسي بمساعدته لأبيه وعمه . وعندما توفي عمه عين خليفة له وارتقى العرش في كييف . كانت مدة حكمه مليئة بالحروب وخاصة في السهوب الواقعة في الجهة الجنوبية الشرقية من دولة كييف .

وحكم قائد ڤولينيا (رومان متسلافيش)، غاليشيا، ووحد الإمارتين معاً. ولكن الخلافات تفاقمت من جديد في عهد ابنه (دانيال)[1]. وضعفت قوة الإمارة لتدخل الهنغار، إلى أن أخضعها المغول عام ٦٣٨ هـ ثم خضعت ڤولينيا وليتوانيا وغاليشيا لبولندا.

وهذا التاريخ لهذه المدة كلها يعد تاريخاً غير حقيقي. فيه الكثير من التشويه وتتخلله زعامات قد لا يكون لها حقيقة في الوجود. إلا أن التاريخ الذي يمكن أن نطمئن إليه فما يخص الروس هو الذي سُجِّل منذ دخول المغول إلى المنطقة وسيطرتهم عليها.

---

(١) دانيال: ويدعى أيضاً دانيال رومانوف ودانيال غاليسيا. ولد عام ٥٩٩ هـ وحكم الإمارات الروسية الغربية غاليسيا وڤولينيا «تقع اليوم في أوكرانيا وبولندا» والذي أصبح أحد الأمراء الأقوياء في شرقي أوروبا الوسطى. وهو ابن الأمير رومان متسلافيش حيث كان ابن أربع سنوات فقط عندما توفي والده الذي كان قد وحد غاليشيا وڤولينيا - في إحدى المعارك ضد البولنديين ولم يكسب السيطرة على غاليشيا سنة ٦٣٢ هـ ليبدأ بعدها توطيد حكمه وتشجيع الهجرة والاستيطان وبناء المدن وتنشيط التجارة الداخلية. أجبر على الاعتراف بالسيادة المغولية على غاليشيا وڤولينيا بعد الغزو المغولي لتلك البلاد ولكن بقيت له بعض القوة التي مكنته من هزيمة الأمير روستيسلاف (ابن خصمه الرئيسي في غربي أوروبا ميخائيل شيرنيغوف وحلفائه البولنديين والهنغاريين). وبذلك ازدادت قوته.

استطاع طرد المغول عام ٦٥٥ هـ خارج ڤولينيا ولكن جيشاً مغولياً آخر دخلها بعد أقل من أربع سنوات ودمر المدن التي أنشأها دانيال. عاش معظم حياته الباقية خادماً مطيعاً للمغول وتوفي عام ٦٦٣ هـ.

الفَصْلُ الثّاني

لمحة تاريخية عن العثمانيين
حتى فتح القسطنطينية

شهد العالم الإسلامي في القرن الحادي عشر للميلاد، تحرك موجة من القبائل التركية من بلاد أواسط آسيا قاصدة جهة الغرب، ليسجل لها التاريخ بعد مدة قليلة من اعتناقها الإسلام إنشاء دولة مترامية الأطراف، شملت بعضاً من بلاد فارس والعراق وسورية وآسيا الصغرى. وكانت زعامتها بيد الأسرة التي تنحدر من قبيلة الغز التركمانية التي كانت تستقر بقيادة زعيمها (سلجوق) عند الأطراف السفلية لنهر سيحون قبل أن تعتنق الإسلام.

وبدافع الجهاد المقدس ضد البيزنطيين، قام بعض المحاربين التركمان، من أقارب السلاجقة باحتلال المقاطعات الآسيوية للأمبراطورية البيزنطية حتى جهات بحر إيجه غرباً. وبعد المعركة الحاسمة التي انتصر المسلمون فيها عام ٤٦٤ هـ على جموع البيزنطيين المحتشدة قرب بحيرة وان شرقي تركيا، والتي عرفت باسم معركة (ملاذكرد)، حيث هزم جيش بيزنطة وأسر أمبراطورها (رومانوس الرابع). اكتسب القائد التركي المسلم (آلب آرسلان) شهرة واسعة في

كافة أرجاء العالم الإسلامي. عند ذلك أمكن للقبائل التركمانية المسلمة تثبيت أقدامها في بلاد آسيا الصغرى، بعد أن دمرت تحصينات الحدود البيزنطية، واحتلت شرقي ووسط الأناضول.

كان أسلاف عثمان، الذي ينتسب إليه العثمانيون؛ أعضاء في قبيلة قابي، التي دخلت الأناضول مع من دخل من القبائل الأخرى، إثر هذه المعركة الشهيرة. وظهر أرطغرل بن سليمان شاه كمؤسس للدولة. وقد رجع بعد موت أبيه - الذي توفي غرقاً - إلى بلاد العجم، فشاهد في طريقه جيشين مشتبكين في قتال عنيف، فمال بدافع النخوة ونصيرة الضعيف إلى جانب الأضعف. ثم علم فيما بعد أن ذلك الانتصار الذي حققه الجيش الذي دعم من قبله، كان جيش علاء الدين، سلطان قونيه التي تأسست عقب موت مالك شاه عام ١٠٩٢ م الموافق ٤٨٥ هـ. وكافأ السلطان علاء الدين أرطغرل أرضاً قرب (بروسة) في مكان بينه وبين البيزنطيين. وعندما توفي أرطغرل حكم أكبر أولاده (عثمان) الذي برز كأمير في شمالي غرب الأناضول، على رأس القوة التي تتزعم المجاهدين المسلمين ضد البيزنطيين في تلك المنطقة.

وإثر موجة المغول الكاسحة، برزت إمارات تركمانية مستقلة على انقاض القوة السلجوقية المتفسخة في بقايا الأناضول. وكان من بينها إمارة عثمان الذي استأثر بالأراضي المقطعة له من قبل، ولقب نفسه بادشاه آل عثمان، وجعل مقره في (يكي شهر).

وجه عثمان ومن تولى بعده هجماتهم تجاه الأراضي البيزنطية المحاذية للبسفور وبحر مرمرة في الغرب حيث أصبح العثمانيون القوة الرئيسية التي تصون حمى الإسلام في تلك المنطقة من العالم. وقد ساعدهم فساد شبكة دفاعات الحدود البيزنطية، والمشكلات الاقتصادية والدينية والاجتماعية التي

كانت تنخر في جسم بيزنطة فضلاً عن الميزات الروحية والتنظيمية وطابع حب القتال.

بدأ العثمانيون، تحت قيادة عثمان الأول، ثم في عهد خليفته (أورخان) و (مراد الأول) من بعده، باحتلال أراضي بيزنطة غربي الأناضول أولاً، ثم البلاد الواقعة في جنوبي شرقي أوروبا ثانياً. ولم تجر أعمال عسكرية إزاء الإمارات التركية الشرقية إلا ابتداءً من عهد السلطان (بايزيد الأول) الذي قويت في زمنه الدولة بعد أن زادت توسعاً في الرقعة.

وبحلول مطلع القرن الرابع عشر الميلادي، حكم عثمان منطقة امتدت من اسكي شهر حتى سهول إزنيق. وتصدى لكافة الجهود البيزنطية، والتي لم تنجح في تحريض دولة التتار (الخان الثانية) في الشرق ضد العثمانيين، وحتى في كسب تأييدها ودعمها لبيزنطة آنذاك. وحينما اتجه أمبراطورها نحو الغرب مستجدياً أكف أوروبا، كان أن حل الدمار فوق رأسه وبلاده بصورة أشد مما سبق.

لم يتمكن العثمانيون مع ذلك من احتلال بعض المدن. ولم يتحركوا لملاقاة جيرانهم من التركمان الذين نمت قوتهم وبرزوا نتيجة لضعف بيزنطة في آيدين وقرهسي جنوبي الأناضول. وباحتلال أورخان لبورصة بعد حصار طويل، تمكن من تطوير قوة إدارية ومالية وعسكرية ضرورية لجعل الإمارة في وضع تمكنت فيه من بناء جيش قوي. فبدأ سياسته العسكرية في تجنيد مرتزقة من النصارى مقللاً اعتماده على البدو، فجهز قوة أفضل من السابق وقادرة على مجابهة الضرورات العسكرية المعاصرة آنذاك. وقد أشار عليه بذلك رجل صار فيما بعد يشغل مرتبة الوزير الأول واسمه (خير الدين باشا). وسميت هذه القوة بالانكشارية التي اتخذت ألقاباً أمثال شوربجي باشي، أوضا باشي، عشي باشي. وهي بمثابة رتب عسكرية لها.

وحين ذلك صار بمقدور (أورخان)، احتلال باقي المدن البيزنطية شمالي غربي الأناضول أمثال إزنيق (٧٣٣ هـ) ازميت (٧٣٩ هـ)، اسكدار (٧٣٩ هـ) ثم تحرك ضد جيرانه الرئيسيين من التركمان في الجنوب، منتهزاً فرصة نشوب صراعات داخلية بينهم. فألحق إمارة قره سي، وكسب السيطرة على منطقة بين خليج (أدريميت) و (كابي داغي) وحتى بحر مرمرة. ووضع نفسه في مركز المنتصر ودعم قواته المرتزقة أمام تنافس مرير على القطاعات البيزنطية في تراقيا وأستانبول.

وحين هدد ملك الصرب أمبراطور القسطنطينية، مدّ الأخير يدّ العون لأورخان مقابل تزويج ابنته له. وساعد أورخان (كانتا كوزين) في تسلمه العرش البيزنطي من جون باليولوج مقابل ضمان حقه في تراقيا، فبدأت القوات العثمانية تدريجياً بالتحرك عبر غاليبولي داخل تراقيا وساعدتها الغنائم الضخمة، وبانهيار (آيدين) إثر وفاة حاكمها عمر بيك، فتح المجال أمام أورخان ليضغط بكامل ثقله ضد بيزنطة.

بدأ سليمان بن أورخان عام ٧٤٦ هـ بتحويل غاليبولي - على الجبهة الأوروبية من الدردنيل إلى قاعدة هامة للتوسع العثماني في أوروبا. واحتج كانتا كوزين النادم وغيره ولكن دون جدوى. وتحركت قواته من هذه القاعدة في أراضي البلقان صعوداً إزاء نهر ماريتزا، ووصولاً حتى (أدرنة). ودب الرعب والحذر في صفوف أوروبا من الفاتحين الجدد الذين تربعوا على مداخلها.

تركزت فتوحات مراد الأول في تراقيا. وبلغت أوجها بفتح أدرنة عام ٧٦٣ هـ والتي أصبحت العاصمة الجديدة للدولة. فهي الحصن الرئيسي بين القسطنطينية والدانوب، والمشرف على طرق وممرات القوافل العسكرية، ومركز انطلاق نحو توسع أوروبي أفضل.

وتحرك مراد عبر وادي نهرماريتزا، واحتل فيليبه عام ٧٦٤ هـ وأجبر الأمبراطور البيزنطي على قبول السيادة العثمانية. وبعد موت الأمبراطور الصربي تجزأت التركة من بعده، وضعفت أمام القوة العثمانية الفتية.

وحاول الأمبراطور البيزنطي جون الخامس استجداء عطف أوروبا، وقام بدعمها في محاولة توحيد الكنائس مع روما ولكن دون جدوى فلم ينل مقاصده، الأمر الذي مكن السلطان مراد من حشد الحلفاء على نهر ماريتزا عام ٧٧٢ هـ وأضعف معنويات أعدائه وزاد من ثقته. وعلى جناح السرعة وبلا مقاومة رضخ الأعداء الصليبيون لسيادته.

تمكن العثمانيون من تجنب الاشتباك مع الحركات المحلية في البلاد المفتوحة، بإعلانهم ضمان الحياة والمحافظة على التقاليد والعادات في حالة قبول السيادة العثمانية. وبذلك فقد تمكنوا من حكم المساحات الشاسعة دون بناء نظام إداري واسع، وحتى دون الاحتفاظ بحاميات محلية.

وفي حركة سريعة خاطفة احتل مراد (مكدونيا) عام ٧٧٢ هـ - ٧٨٨ هـ لدعم حكمه جنوبي الدانوب. ثم سيطر على وسط بلغاريا ومناستر وصوفيا ونيش وصربيا، وقاومت المجر فقط الفتح الإسلامي في الشمال.

وبعد مقتل مراد في معركة كوسوڤو، لم يتمكن ابنه بايزيد من جني ثمار الفتوحات في تحقيق المزيد من التوسع في أوروبا، فرجع إلى الأناضول وحارب إمارة القرمان التي قامت على أنقاض دولة السلاجقة الروم. والملاحظ أن من سبقه تجنبوا إثارة المشكلات في الأناضول ليتفرغوا لأوروبا، فكان التوسع هنا سلمياً ارتكز على إقامة روابط المصاهرة وشراء الأراضي.

ووضع اكتساب الأراضي في وسط الأناضول العثمانيين أمام مجابهة مباشرة مع القرمان وللمرة الأولى، فاضطروا للتحرك العسكري لمنعهم.

وما إن استقر الأمر لبايزيد حتى التفت مرة أخرى إلى أوروبا مخلفاً مشكلات معقدة في الأناضول. وحاول القرمان حشد المناوئين للحكم العثماني فتعاونوا مع صربيا، وأثاروا الحكام الولاة هناك. وتعززت عصابة التمرد في البلقان، وهاج الثائرون في الأناضول، الأمر الذي اضطر بايزيد لملاقاتهم بهجوم كاسح شنه عليهم فتمكن به منهم.

وفي نهاية عام ٧٩٠ هـ تمكن من اكتساح وإلحاق كافة ما تبقى من الإمارات التركمانية في غربي الأناضول ثم اضطر إلى الرجوع نحو أوروبا للتعامل مع المتمردين من ولاته في البلقان والذين كانت تشجعهم المجر وبيزنطة. وسرعان ما سحقهم عام ٧٩٣ هـ واحتل بلغاريا ووضعها تحت الإدارة العثمانية المباشرة للمرة الأولى، ثم حاصر القسطنطينية، وأجهض الحملة الصليبية الضخمة التي جهزتها المجر في (نيكوبلي) على الدانوب عام ٧٩٦ هـ. وترسخ الحكم العثماني جنوب هذا النهر، وذعرت أوروبا، وتعاظمت هيبته في العالم الإسلامي، ومنح لقب سلطان تحت ظل الخلافة العباسية في القاهرة، رغم معارضة قادة المماليك في مصر وسوريا، الذين لم يقبلوا منازعتهم إياه اللقب.

الحرب مع تيمور:

إن التقدم المستمر لبايزيد وقضائه على إمارة القرمان، لفت انتباه المغامر تيمور الذي كان ينشىء الأمبراطورية القوية في آسيا الوسطى وإيران وأفغانستان وبلاد الرافدين. فأوقف حملة لغزو الهند وهو في خوف من تعاظم القوة العثمانية في جناحه الغربي. وشجعه الأمراء التركمان الذين التجأوا إليه بعد ضم بايزيد لبلادهم إلى حوزته.

وقرر تيمور تدمير دولة العثمانيين قبل استئناف الحملة الهندية، فقام بغزو الأناضول. وبينما كان الفريقان سائرين تجاه المعركة، كان التركمان يتخلون

عن بايزيد شيئاً فشيئاً. وهزم الأخير قرب أنقرة عام ٨٠٥ هـ. ولجأ تيمور إلى إعادة الإمارات السابقة لحكامها التركمان الذين انضموا إليه.

أما في أوروبا فبقيت الممتلكات العثمانية سالمة هناك، وأعد الصليبيون حملة ضخمة جديدة لطردهم منها. ولكن الخلافات بين زعمائهم جنوبي الدانوب وضعف حملتهم كان فرصة استعاد بها العثمانيون ما خسروه.

وتصارع أبناء بايزيد على أحقية الخلافة من بعده. فنال سليمان دعم الأوروبيين النصارى، بينما أيد التركمان مطالب ابنه محمد الذي هزم أخاه موسى إذ اتخذ بورصة عاصمة له. كما هزم أخاه الآخر عيسى جنوبي غرب الأناضول. وتغلب على سليمان، وبدعم من علماء المسلمين في الأناضول. ونال لقب السلطان محمد.

وكانت مدة أخرى من التوسع قام بها (محمد جلبي) هذا وخليفته مراد الثاني (١٤٢١ ـ ١٤٥١ م). واستعاد السلطان محمد النظام داخل صفوف الدولة وخاصة في بلغاريا وصربيا. ووعد بعدم القيام بتوسع أوروبي جديد وأنه سوف يلتفت لتنظيم الوضع الداخلي.

وكرّس مراد الثاني جهداً كبيراً أثناء المدة الأولى من حكمه، لحل المشكلات الداخلية، ودعم القادة المحليين وأمراء البلقان والأناضول في خطوات يحفظ بها الاستقلال الداخلي الذي تحقق بعد معركة أنقرة. وفي عام ٨٢٥ ـ ٨٢٦ هـ أخمد المقاومة البلقانية، ووضع القسطنطينية أمام حصار محكم جديد. واستعاد السيطرة العثمانية على كافة الأناضول وقضى على ما تبقى من إمارات تركمانية منذ عهد تيمور، عدا القرمان وذي القدر، كي لا يثير مخاوف خلفاء تيمور في الشرق. ثم قام بشن الحرب الأولى ضد البندقية ـ ٨٢٦ ـ ٨٣٤ هـ ذات الصلات الودية السابقة مع من سبقه من سلاطين وذات النزعة التجارية النفعية.

وكانت البندقية قد استلمت بلاد سالونيك من بيزنطة، في محاولة لمنع التوسع العثماني عبر مكدونيا والأدرياتيك. ولم تحقق الحرب نصراً حاسماً وتحولت إلى صراعات في إيطاليا. واحتاج العثمانيون لبعض الوقت كي يبنوا قوة بحرية كافية لصد البنادقة. وحينما أراد الهنغاريون إقامة حكمهم في فالاشيا بين الدانوب والألب الترانسلفاني، التفت بايزيد إليهم، وتلاحقت الاشتباكات المتوالية بين العثمانيين والمجر. وما إن انتهى من بناء أسطوله القوي حتى حاصر سالونيك وفتحها عام ١٤٣٠. وأجبر البنادقة بعد غارات شنها على موانىء الأدرياتيك وإيجه على عقد صلح معه. وفي محاولة منه لكبح جماح المتنفذين الأتراك بدأ بتشكيل مجموعات غير تركية متعددة، ووزع فتوحاته على قادتها، واتبع سياسة هجومية جديدة تجاه أوروبا فجدد الصراع مع المجر منتهزاً فرصة موت ملكها. واحتل صربيا عدا بلغراد ومعظم المجر. ثم استبدل الإقطاعيين هناك بحكام عثمانيين من خارج الدولة.

وفشل العثمانيون في زحزحة المجر خلال هجماتهم للسيطرة على بلغراد وإبان غاراتهم على ترانسلفانيا. على الرغم من هزيمة مراد في معركة (زلاتيكا) عام ٨٤٧ هـ إلا أن الأثر الذي أحدثه الأعيان الأتراك في القصر السلطاني أدى به للموافقة على صلح أدرنة عام ٨٤٨ هـ. واستعادت صربيا حكماً ذاتياً، واحتفظت المجر بغاليشيا وبلغراد، وتعهد العثمانيون بوقف هجماتهم شمال الدانوب.

ثم عقد صلحاً مع القرمان في الأناضول وعاد للإعتكاف والتعبد تاركاً الحكم لابنه الفتى محمد الثاني.

محمد الثاني وفتح القسطنطينية:

تولى الحكم محمد الثاني ولم يكن بآسيا الصغرى إلا بعض الأجزاء خارجة عن

سلطانه. واقتصرت مملكة بيزنطة على القسطنطينية وضواحيها فقط، بينما تجزأ إقليم (موره) بين البنادقة وعدة إمارات صغيرة يحكمها بعض أعيان الروم والإفرنج ممن تخلفوا عن رفاقهم بعد انتهاء الحروب الصليبية. وكانت ألبانيا تحت سيطرة (اسكندر بك)[١]. والبوسنة مستقلة بينما تبعت صربيا الدولة العثمانية. أما ما تبقى من البلقان فكان تحت السيادة العثمانية.

بدأ محمد الثاني استعداداته لفتح القسطنطينية بتحصين البوسفور من أجل قطع الإمدادات من جهات طرابزون. وحاصر المدينة في أوائل نيسان عام ٨٥٧ هـ براً وبحراً. ونصب المدافع وخاصة الضخمة منها حولها وأثناء الحصار اكتشف قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري قرب أسوارها. ثم قام بنقل المدافع براً مسافة ستة أميال لتجنب السلاسل الموضوعة في القرن الذهبي[٢]. ثم أنذر قسطنطين[٣] بالتسليم طوعاً متعهداً عدم المساس بحرية مواطنيه وأموالهم فرفض قسطنطين وعند ذلك بدأ الاستعداد للهجوم. وقام حوالي ١٥٠ ألف جندي عثماني بتسلق أسوار المدينة. ثم بعد محاولات عديدة دخلوها وتوجهوا إلى

---

(١) إسكندر بك:
هو أحد أولاد أمير ألبانيا الشمالية. جورج كاستريو الذين أخذهم السلطان العثماني رهينة بعد ضم بلاد أبيهم إليه. وقد تظاهر بالإسلام فقرن السلطان إليه. وأسند إليه كثيراً من المهام. ولكنه ارتد وحارب العثمانيين لمدة طويلة. ويحتمل أن يكون إسلامه ظاهرياً مع احتفاظه بالنصرانية باطناً. كما يقول سير توماس آرنولد في كتابه: (الدعوة إلى الإسلام) إذ أن من يعتنق هذا الدين عن قناعة لا يمكنه الارتداد عنه إلا نادراً جداً.

(٢) القرن الذهبي: هو الخليج الممتد من مضيق البوسفور باتجاه الشمال الغربي داخل استانبول. دفن على شاطئه الأيمن جثمان الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه.

(٣) قسطنطين: وهو قسطنطين باليولوج حكم من عام ١٤٤٩ م حتى ١٤٥٣ م وهو آخر أمبراطور بيزنطي وابن الأمبراطور مانويل الثاني. توج رسمياً عام ١٤٤٩ م. ولم يتمكن من الوقوف أمام الفتح العثماني لمدينة القسطنطينية بعد حصارها ودخولها عام ١٤٥٣ م. قتل على أبواب المدينة في السنة نفسها بعد الفتح المبين.

كنيسة آيا صوفيا التي حولت إلى مسجد وسميت المدينة بعد ذلك «إسلامبول» أو مدينة الإسلام وأعلن محمد الثاني عدم معارضته في إقامة الشعائر الدينية النصرانية ضامناً الحرية الدينية وحفظ الأموال، فرجع من هاجر من النصارى وأعطاهم نصف الكنائس وجعل النصف الآخر جوامع للمسلمين. وفرض دفع الخراج عليهم مستثنياً رجال دينهم فقط.

وبعد الفتح المبين دب الذعر في نفوس القادة الأوروبيين وتهلل العالم الإسلام وكبر. وخاف أمير (موره) وتقدم طوعاً لدفع الجزية السنوية. وأبرم أمير الصرب الصلح مع السلطان مفضلاً ذلك على دعم المجر أما عاصمة الصرب (بلغراد) فلم يتمكن محمد الثاني من فتحها بصورة تامة حتى عام ٨٦٤ هـ. ولم يتم فتح بلاد موره حتى عام ٨٦٤ هـ أيضاً وفي الوقت نفسه فتحت جزائر بحر الروم.

وأبرم السلطان صلحاً مع اسكندر بك وترك له إقليمي ألبانيا وابيروس. ثم حول انظاره إلى آسيا الصغرى فسلمت بعض المدن مثل سينوب على البحر الأسود ودخل طرابزون دون مقاومة.

وحاول أمير الفلاخ الاتحاد مع ملك المجر والإغارة على بلغاريا التابعة للدولة العثمانية، فتوجه السلطان محمد بجيش ضخم إلى بخارست عاصمة الأمير وهزمه وعزله وأصبحت بلاد الفلاخ تابعة للدولة. ودانت له جميع بلاد البوسنة، ودخل العثمانيون موره دون معارضة تذكر واسترجعوا ما كان قد سلب ووطدوا دعائم الأمن فيها.

وحرّض البابا بيوس النصارى ضد المسلمين لإعلان حرب دينية وحصلت بعض الوقائع بين اسكندر بك والعثمانيين.

وفتح العثمانيون مركز مستعمرات البنادقة في جزر الروم عام ٨٧٥ هـ

وتداخل السلطان في القرمان وضمها. وعندما تحرك (أوزون حسن) أحد حلفاء تيمور والذي امتد حكمه على البلاد الواقعة بين نهري آموداريا والفرات، هزم قواد العثمانيين ذلك المتمرد شر هزيمة. وحينما أراد السلطان فتح بلاد البغدان رأى فتح بلاد القرم أولاً كي يمكنه الاستعانة بفرسانها المشهورين على محاربة البغدان، فأرسل عمارة بحرية فتحت بعض المستعمرات التابعة لجمهورية جنوا. ثم أصبحت جميع شواطىء القرم تابعة للدولة العثمانية، ولم يقاوم التتار ذلك. كما فتحت آق كرمان وكرويا عاصمة إسكندر بك السابقة.

وتعتبر معاهدة عام ٨٨٣ هـ الموافق ٢٦ كانون الثاني عام ١٤٧٩ م المنعقدة بين أهالي البندقية والدولة العثمانية أول خطوة خطتها الدولة للتدخل في شؤون أوروبا إذ تعتبر جمهورية البندقية أهم دول أوروبا آنذاك وخاصة من الناحية التجارية والبحرية بالإضافة إلى جمهورية جنوا.

الفصل الثالث

مصادر العداء العثماني الروسي

١ ـ الأثر المغولي التركي :

يلتقي العثمانيون والمغول بنسب يعود لتلك القبائل التي كانت تقيم في أواسط آسيا ، فهم أبناء عم ولا يزال هناك خلاف هل أن كلمة الأتراك هي الأصل والتتار فرع منها ، أم أن التتار هم الأصل والأتراك قسم منشق عنهم . فعندما أسس جنكيز خان دولته ، وأصبح يضرب بها ما جاوره من دول ذات اليمين وذات الشمال ، ثم اجتاح الأجزاء الوسطى من آسيا ، وتحرك بجحافله نحو شرقي أوروبا فاحتلها وأخضع سكانها لهيمنته وبسط سلطانه عليها . وتقاسم أبناؤه من بعده تلك الأمبراطورية الشاسعة ، إلا أن شرقي أوروبا بقي خاضعاً للمغول . واستقر التتار في تلك الجهات ، وأسسوا دولة لهم لم تلبث أن خضعت للإسلام . وهكذا كانت بعض القبائل الروسية التي تقيم في شرقي أوروبا ضمن دولة المغول وتحت سيطرتهم .

وعندما جاء العثمانيون وأسسوا دولتهم التي لم تلبث أن شهدت عهد قوة وتوسع وكانوا من المسلمين أيضاً ، شعر الروس الذين كانوا يدينون بالنصرانية

أنهم محاطون بالمسلمين من الشرق والجنوب إضافة إلى أنهم يتبعون تلك الدولة التي تسيطر على مقدرات شرق أوروبا .

وفتح العثمانيون القسطنطينية وتأثر الروس ، إذ أصبحت قاعدتهم الدينية تحت هيمنة المسلمين . وأثناء تقدم العثمانيين في شرقي أوروبا لاحظ الروس أنهم سيحاطون بالمسلمين من الغرب أيضاً ، فبدأت فكرة التمرد عندهم تقوى وبدأت قوتهم تزداد . واستطاعوا تأسيس إمارتين إحداهما في موسكو والأخرى في كييف . وشبت هاتان الإمارتان وتخلصتا من الحكم التتاري . ثم اندمجتا في إمارة واحدة لتقاوم المد الإسلامي ، محتجة في ذلك أن مناطقها تزدحم بالسكان في الوقت الذي يقل أهل البلاد التي تقع إلى الشرق منهم . ولكنهم في الواقع لا يريدونها إلا حرباً صليبية . واستطاعوا الانتصار على التتار في الشرق . ثم بدأوا حربهم الصليبية بالتوجه نحو الجنوب بغية استعادة القسطنطينية لإعادتها مركزاً للأرثوذوكس ولوصولهم إلى المياه الدافئة ، إضافة إلى أنهم لا يستطيعون مزاحمة أوروبا الغربية إلا من خلال هذا المنفذ الذي لا يملكون مفاتيحه وكذلك المنفذ نحو البلاد الشرقية . وحينما اتجهوا كانوا يصطدمون بالمسلمين . لذا كانت حروبهم أشد الحملات الصليبية في واقعها وإن كانت لا تحمل هذا المعنى في ظاهرها . ومن هذا المنطلق جرت الحروب الضروس بين الدولتين الناشئتين في وقت واحد تقريباً أي بين العثمانيين المسلمين في الجنوب والدولة الروسية النصرانية الأرثوذوكسية في الشمال .

وقبل موت جنكيز خان عام ٦٥٥ هـ قسم أمبراطوريته الواسعة بين أبنائه فولى (جفتاي) بلاد تركستان واستمر خلفاؤه في إدارتها حتى القرن الرابع عشر الميلادي حيث جزئت إلى قسمين شرقية بعد نهر (سيحون) وغربية شملت ما وراء النهر . وتولى (جوشي) ابن جنكيز الآخر إدارة الجزء الغربي من الأمبراطورية وأنشأ الجورجيون عاصمة جديدة لهم هي إتل التي تحولت إلى

السراي الجديدة الواقعة قرب (فولغوغراد) الحاضرة عام ٦٦٠ هـ .

وأصبحت مدن القرم والبلغار وهي المراكز التجارية القديمة ، بعد محاولات حثيثة ، المراكز الإدارية والتجارية نفسها لما دعي باسم دولة (القبيلة الذهبية) التي اشتملت إبان أوج عظمتها على بلاد القرم والسهوب الممتدة من الدانوب إلى نهر الأورال وأمبراطورية البلغار السابقة بما فيها الغابات المولدافية الغنية بالفرو ، وأجزاء من سيبيريا الغربية ومملكة خوارزم .

وقضى بعض الأمراء السلاف الذين أخضعت بلادهم ، معظم حياتهم في عاصمة المغول . ولم تكن تلك الدولة الكبيرة ذات الأجناس المتعددة مستقرة أبداً . وتذكر المصادر التاريخية القديمة أن خانات السراي الذين عكسوا طموحات قبائل الفولغا ؛ كانوا يتعرضون للتحدي من قبل الأمراء القبليين في الغرب ، والذين سيطروا على طرق قوافل الدانوب والرون والدينيبر . وحينما خطط أحد قادتهم وهو (نوخاي) لإعلان الاستقلال عن السراي عام ٦٦٠ هـ وبعد سيطرته في نهاية الأمر على السراي نفسها ، هبت القبائل الشرقية واستعادت الهيمنة على السراي بعد موته . وسيطر الغرب مرة أخرى في عهد أوزبك الكبير[١] . وبلغت بذلك الدولة أوج قوتها . ورسّخ أوزبك سيطرته الحازمة على القرم ، وأنشأ العلاقات الواسعة مع جنوا والبندقية .

الأثر الديني :

كان العداء العثماني الروسي عداءً بين الأتراك كمسلمين والروس . فبعد أن

---

(١) اوزبك الكبير : القائد المغولي اللامع وخان القبيلة الذهبية أو امبراطورية الكبشان التي بلغت أوج عظمتها في عهده . وقد اعتنق الإسلام وتحمس له بشدة وإليه يرجع الفضل في ترسيخ دعائمه هناك ، واشتقت قبائل الأوزبك في أواسط آسيا اسمها من إسمه تبركاً . ويقال أنه وضع خطة لنشر الإسلام في كافة أرجاء روسيا . ولكن خطته لم تنجح .

المجاورة على الإسلام والمسلمين آنذاك وبث نار العداوة كما هي الحال مع يهود حتى وقتنا الحاضر.

كما ذكرت قبل قليل فإنه بعد نصف قرن من الغزو المغولي للعالم المعروف آنذاك، تحول معظم قادة التتار إلى الإسلام. وإذا ما علمنا تلك الظاهرة أدركنا عمق الشعور المعادي للإسلام بهذا الأمر المذهل. إذ كيف يتم ذلك التحول الهائل في هذه الأمبراطورية الهائلة في معظم فروعها، ولكنه الدين العجيب.

بعد حوالي ربع قرنٍ من بسط السيطرة المغولية على روسيا، بدأ إسلام القبيلة الذهبية وكان «بيرق» خليفة باتو الذي حكم من عام ٦٥٧ هـ - ٦٦٧ هـ أول من شهد التحول الخطير في هذا المضمار. فحدث توتر خطير مع دولة الخانات الثانية التي وضع أسسها هولاكو في إيران، والتي لم تكن بعد قد أسلمت. وازدهرت الأسرة الذهبية في عهد عبد الله خان أوزبك ٧١٤ - ٧٤٢ هـ وهو الذي جابه وعادى أشقاءه في دولة الخانات الثانية التي اعتنقت الإسلام حديثاً ولكنها استمرت في قتال أتباعه.

نشب الصراع بين القبيلة الذهبية ورعاياها من النصارى الروس وازدادت المشكلات واعتمد خاناتها على مساعدات الأمراء الروس. وقام طوغتاميش وهو ابن أمير تتاري صغير في دعم قوتها ووحدها مع الأسرة البيضاء في أقصى الشرق غربي سيبيريا. واتجه بأنظاره صوب المغامر تيمورلنك ليكسب وده وتأييده فأعاد تأكيد سيطرته على روسيا.

ولما كان من سياسة تيمور تمجيد الأباطرة المعاصرين له ثم جعلهم دمى بين يديه وهو الذي كرس حياته كاملة للحروب، فإنه سرعان ما انقلب على حليفه السابق طوغتاميش وهزمه عام ٧٩٥ هـ ثم هزم السلطان بايزيد قرب أنقرة كما

ذكر سابقاً. الأمر الذي أطال في عمر الأمبراطورية البيزنطية لنصف قرن آخر من الزمن.

وبموت تيمور انتهى عصر تميز بالمحاولات الجادة من قبل المغول بغية إنشاء دولة كبيرة إن لم تكن عالمية تحول معظم قادتها إلى الإسلام ابتداء من القبيلة الذهبية في بلاد الروس. انتهز الروس فرصة تمزق الأمبراطورية المغولية في نهاية القرن الرابع عشر تقريباً ووحدوا صفوفهم. ولكن القبيلة الذهبية احتفظت بتماسكها لمدة أطول. ولكنها تحللت عام ٨٣١ هـ أي قبل فتح القسطنطينية بأقل من ربع قرن على أيدي العثمانيين المسلمين. وظهر على أنقاض دولة المغول المسلمة في روسيا ثلاث دويلات هي خانات القرم والقازان والآستراخان.

ولم تعمر دويلة القازان كثيراً على الرغم من نجاح حكامها بعض الشيء أمام التهديدات الروسية والقرمية. وانتهز إيڤان الرهيب[1] - الأمير الروسي - الفرصة ليضع نهاية للحكم التتاري في روسيا الوسطى فاحتل قازان عام ٩٦٧ هـ ثم أرسى دعائم حكمه في أراضي آستراخان.

اعتنق خانات الجغتاي الإسلام طوعاً وعلانية واستبدلوا الشريعة الإسلامية كقانون بدل (ياسا) جنكيز خان. وتحول رعاياهم من البدو وخاصة

---

(١) ايڤان الرهيب: ولد في عام ٩٣٨ هـ في موسكو - وهو أول قيصر روسي جعل من بلاده امبراطورية تضمنت دويلات غير سلاڤية. وهو ابن الأمير الكبير ڤاسيلي الثالث أمير موسكو. أما أمه فكانت الوصية على العرش أثناء طفولته حيث خلف أباه وهو ابن ثلاث سنوات. وفي عام ٩٥٥ هـ توج ولكن ليس كأمير كبير بل قيصراً. وهو الذي أوجد أول جمعية وطنية روسية وقسم بلاده إلى قسمين أحدهما يحكم تقليدياً والآخر شخصياً. وخلال هذه المدة فإنه ذبح أكثر من ثلاثة آلاف شخص. وكانت حملته العسكرية ضد التتار والمسلمين عنيفة ألحق على إثرها دولاً أخرى غير سلاڤية إلى امبراطوريته. توفي عام ٩٥٦ هـ.

دخل الأتراك المغول بالإسلام ، بعد مدة قصيرة من وفاة مؤسس دولتهم جنكيز خان ابتداءً من تشكل دولة القبيلة الذهبية المغولية في بلاد الروس وهي الدولة التي كان زعماؤها من المسلمين وانتهاءً بنشوء دولة العثمانيين ـ كان الصراع بين الروس والترك يتصف في كثير من جوانبه بالطابع الديني بين النصرانية الأرثوذوكسية والإسلام وتاريخ الإسلام في بلاد الروس قديم . وقبل الأتراك بزمن بعيد دخل الإسلام إلى هناك كما دخل إلى قلب أوروبا . وأسس العداء تستند إلى جذور تاريخية موغلة في القدم .

يحدثنا ابن فضلان[1] عن رحلته إلى بلاد الروس التي جرت في عام ٩٢١م أن أحد ملوك السلاف واسمه (ألطش بن يلطوار) قد اعتنق الإسلام . ويقول : « ... فلما كنا من ملك الصقالبة وهو الذي قصدنا إليه ... وجه لاستقبالنا الملوك الأربعة الذين تحت يده وإخوته وأولاده ... فلما صرنا منه على فرسخين تلقانا هو بنفسه . فلما رآنا ، نزل فخر ساجداً شكراً لله جل وعز ... وأخرجت كتاب الخليفة وقلت له : لا يجوز أن نجلس والكتاب يقرأ . فقام على قدميه هو ومن حضر من وجوه مملكته .. : وبدأت فقرأت صدر الكتاب . فلما بلغت فيه ـ سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ـ ، قلت : ردّوا على أمير المؤمنين السلام فرد ... » ويقول في موضع آخر « ... وحدثني الملك أن وراء بلده بمسيرة ثلاثة أشهر قوم يقال لهم ويسو[2] . الليل

(١) ابن فضلان : هو أحمد بن العباس بن راشد بن حمَّاد . أرسله الخليفة العباسي المقتدر الذي تولى الخلافة عام ٢٩٥ هـ مع بعثة بعد وصول كتاب ملك الصقالبة ألطش بن يلطوار الى الخليفة يسأله فيه إرسال من يفقهه في الدين ويعرف شرائع الإسلام ويبني له مسجداً وينصب له منبراً ليقيم عليه الدعوة له في بلده وجميع مملكته ... وقد ندب ابن فضلان لقراءة كتاب أمير المؤمنين وللإشراف على الفقهاء والمعلمين ...

(٢) ويسو : جاء في معجم البلدان لياقوت : « ويسو ، بكسر أوله والسين مهملة وواو : بلاد وراء ←

عندهم أقل من ساعة . ويقول : وعرفني أهل البلد أنه إذا كان الشتاء عاد الليل في طول النهار . وعاد النهار في قصر الليل حتى إن الرجل منا ليخرج إلى موضع يقال له إتل[1] . بيننا وبينه أقل من مسيرة فرسخ وقت طلوع الفجر فلا يبلغه إلى العتمة ... » .

ويظن أن عاصمة الصقالبة هؤلاء كانت قرب مدينة (قازان) اليوم على خط يوازي موسكو . وإن مكان الملك هذا في موضع قرب نهر إتل شمالي بحر الخزر وبالقرب من أراضي روسيا البيضاء .

وكان التأثير الإسلامي واضحاً في بلاد الروس . إذ أرشد ابن فضلان ملك الروس على الطريقة الصحيحة في تأدية الشعائر والعبادات الإسلامية . واجتهد في تبيان الأصول الإسلامية في العادات واللباس والطعام والشراب ، فهو يقول ... « ... ورأينا منهم أهل بيت يكونون خمسة آلاف نفس من امرأة ورجل قد أسلموا كلهم . وقد بنوا لهم مسجداً من خشب يصلون فيه ، لا يعرفون القراءة ، فعلمت جماعة ما يصلون منهم ... » .

ويقول المسعودي : إن ابن ملك البلغار الصقالبة حج عام ٣٢٠ هـ ومر ببغداد وأكرمه القوم فيها . وكانت حالة المسلمين في تقدم نسبته للأقوام المجاورة من الخزر والروس وغيرهم . وقد وصف ابن فضلان الروس بأنهم « أقذر خلق الله ، لا يستنجون من غائط ولا بول ولا يغتسلون من جنابة ولا يغسلون أيديهم من الطعام ... » ويقول : إن ملوك الخزر كانوا من اليهود وهم على عداء من جيرانهم وخاصة المسلمين . ويحتمل أن يكون دور اليهود كبيراً في تأليب الأقوام

→: بلغار بينها وبين بلغار ثلاثة أشهر » ويرى بعض المستشرقين أنها روسيا البيضاء وأنها قرب موسكو .

(٢) إتل : يقول ياقوت : إتل نهر عظيم شبيه بدجلة في بلاد الخزر . ويمر ببلاد الروس وبلغار وقيل إتل قصبة بلاد الخزر والنهر مسمى بها .

في مناطق السهوب وراء نهر سيرداريا إلى الإسلام. واعتنق حفيد جفتاي الإسلام عام ٦٦٤ هـ ودعا نفسه مبارك شاه. وقام (كيبك خان) بعد نصف قرن بنقل العاصمة من مالك إلى قرش في بلاد ما وراء النهر وأعلن الكثير من الحكـام عن إسلامهم علنـاً. وطرد أخو كيبـك من عرشه وتعمـق الصراع وتفككت دولة الخانات في ما وراء النهر بين معتنق للإسلام ومعاد. ولكن الحكام هناك احتفظوا بوثنيتهم وعرفوا باسم مغولستان وعرف السكان باسم الجاتيونأي اللصوص.

وحد تيمورلنك تحت قيادته القبائل التركية المغولية في بلاد ما وراء النهر وخوارزم ومغولستان ثم سيطر على منطقة واسعة شملت إيران والعراق وشرقي تركيا وإقليم القوقاز. وقام بهجومين على خانات المغول الكيبشاك في الفولغا وغزا شمالي الهند ونهب دلهي ثم أسرع لغزو سوريا والسلطان العثماني ومات وهو يضع الخطط لغزو الصين.

ثم انتصر ابنه الأصغر (شاه روخ) من بعده أيضاً ولكنه انسحب إلى (هراة) في خراسان تاركاً أخاه الأكبر (أولوغ) بك نائباً له في بلاد ما وراء النهر حيث حكم في سمرقند.

وحكم أحفاد تيمور بلاد ما وراء النهر في النصف الثاني من القرن الخامس عشر وبرزت سمرقند وبخارى. وازدهر الأدب الفارسي واللغة التركية، حتى سقطت تلك البلاد في أيدي الأوزبك في نهاية القرن الخامس عشر.

وتـاريـخ الأوزبـك قـديم ولكن معظمـه منـدثر. وبعـد أن تحول أعظم الكيبشاك (عبدالله أوزبك) إلى الإسلام أخذ هؤلاء ذلك الاسم تشرفاً. وبقيادة رئيسهم (أبو الخير خان) وصلوا الضفة الشمالية لسرداريا وفي إحدى المعارك التي جرت عام ٨٧٣ هـ قتل أبو الخير ووضع قاتلاه وهما (كاراي)

و (جاني بك) من أقربائه أنفسهما تحت حماية خانات الجفتاي، وعرفوا فيما بعد باسم قبائل القازاق.

وتضاءلت الفرص أمام الأوزبك بموت أبي الخير وازدهرت بلادهم من جديد في عهد حفيده محمد الشيباني الذي احتل بحلول عام ٩٠٦ هـ كافة بلاد ما وراء النهر بما فيها سمرقند. واتبع الشيبانيون الذين حكموا بلاد ما وراء النهر التقاليد التركية المغولية وخاصة من الناحية الإدارية. واقتفوا أثر التيموريين في الأدب والفن إلا أنهم ناضلوا من أجل سيادة المذهب السني وخاصة (عبد الله خان الثاني) الذي حكم خمسة عشر سنة وبانقراض الشيبانيين تدنى المستوى المادي والثقافي، وحكم المنطقة الممتدة بين سيحون وجيحون ثلاث خانات لم يكن بوسعهم كبح جماح تمرد مشايخ القبائل هناك.

لقد قاسى خانات آسيا الوسطى من شراسة الهجمة الروسية والأوروبية الوحشية التوسعية بشكل لم يحدث مثله في مكان آخر من العالم الإسلامي خلال القرن التاسع عشر. وقام الروس في دولة خيوه المحاطة بالصحراء بابتلاع الأراضي ابتداء بشن هجوم فاشل عام ١٧١٧ م ثم في عام ١٨٣٩ م ولكنهم كشروا عن أنيابهم في عام ١٨٥٥. وهاجموا قوقاند عام ١٨٦٤ وضموا طشقند وشيمكنت وفرضوا معاهدة مجحفة على خضير خان عام ١٨٦٦ م ثم هاجموا بخارى عام ١٨٦٨ وأجبروا أميرها قبول التابعية لروسيا. وعملوا الفعلة ذاتها في خيوه وأخمدوا تمرد قوقاند عام ١٨٧٥ واستعمروا الخانات جميعاً وألحقوها ببلادهم. وفي أثناء ذلك بدأ احتلال التركمان وحصلت مقاومة عظيمة هناك لم تخمد حتى عام ١٨٨٤ بعد أن لطخ الروس أيديهم بدماء الأبرياء من المسلمين في مذبحة (غوك تيبته) عام ١٨٨١.

أثر فتح القسطنطينية:

ترجع أهمية القسطنطينية لدى الروس إلى جذور تاريخية قديمة، فقد حاول السلاف والبلغار غزوها منذ القدم. وذكرنا سابقاً كيف ادّعى الأمير الروسي (فلاديمير) النصرانية والمذهب البيزنطي وكيف دعا البطريركية البيزنطية كي تبني كرسياً أسقفياً لها في كييف. ومن هنا بدأ الارتباط المذهبي بين الروس وبيزنطة والتي أصبحت محط أنظارهم.

كان الاهتمام الروسي ولا يزال بالقسطنطينية حيوياً من حيث موقعها المغري. فالمدينة القديمة المثلثة الشكل تتألف من شبه جزيرة تقع بين أوروبا وآسيا. تحتضنها بحار ثلاثة هي القرن الذهبي (الخليج) المميز وبشكله الذي رآه الأقدمون يشبه قرن الوعل والبوسفور (البوغاز) وهو المضيق الذي يربط البحر الأسود (قارادينيز) بالبحر الأبيض المتوسط (آق دينيز) عن طريق بحر مرمرة ومضيق الدردنيل. ويفصل القرن الذهبي الضيق المدينة القديمة عن المدينة الحديثة المسماة (بك أوغلي) أو ما كان يدعى سابقاً (بيرار غلطة). ويفصل البوسفور المدينة الأوروبية عن الجزء الآسيوي المدعو (أسكدار) وسابقاً (سقوطري) وقديماً (كريسوبوليس) وكاديكوي الذي سماه الأقدمون (خلقدونية) الذي انعقدت فيه المجامع النصرانية الشهيرة.

هذا الموقع الطبيعي الذي حباها الله إياه زودها بالمنعة الحصينة والدفاعات القوية تجاه غارات الأعداء عبر السنين الطويلة كما جعلها المنفذ البحري الذي يربط بين البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط عن طريق المضائق وبالتالي فهي الطريق الذي يوصل البلاد الروسية بالمياه الحرة والدافئة ومنها إلى الخليج العربي وإفريقيا والهند.

إن القسطنطينية لا تزال حتى اليوم تبدو ظاهرة الأسوار التي حجزتها

سابقاً عن باقي البر. وقد أعطتها ضخامة الأبراج ودقة التسوير إضافة إلى أسوارها البحرية التي شيدت عام ٤٣٩م زيادة في المنعة والقوة.

وتاريخ بيزنطة هو تاريخ المجد والقوة عند الرومان والإغريق. فهي عاصمة العالم العظمى وروما الشرقية وإحدى المستعمرات التي تشكلت في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد على امتداد سواحل البوسفور والبحر الأسود من قبل المستوطنين الإغريق، وقد اشتق اسمها من اسم قائد الإغريق (بيزاس) الذي احتل شبه الجزيرة تلك وسيطر على سكانها الرعاة التراقيين النصارى.

وتعرضت القسطنطينية لموجات الغزو المتلاحقة. ودمرت ثم أعيد بناؤها على أيدي الأمبراطور الروماني (سبتيموس سيفيروس). أما قبل ذلك فكان داريوس الفارسي قد استولى عليها ثم استعادت استقلالها. وحتى نشوب الثورات التي اشتعلت في الأمبراطورية الرومانية فإنها قاومت الغزو القوطي إلى أن سادها السلام حتى نشوب الثورات التي اشتعلت في الأمبراطورية الرومانية وإلى عهد الأمبراطور قسطنطين الأول - الحاكم الروماني الذي يعد أول من اعتنق النصرانية بينهم - وهو الذي قرر أن يجعلها عاصمة له ولامبراطوريته في الشرق والغرب. وبذلك أصبحت إحدى العواصم العالمية العظيمة، ومركزاً دينياً لا يستهان به، الأمر الذي عمق من أهميتها نسبة للعالمين الإغريقي والروماني على حد سواء. وبذلك نقلت مركز العالم الروماني شرقاً، كما أنها حققت وحدة الإغريق الضائعة، وكان دينها النصرانية بينما تنظيمها رومانياً ومظهرها إغريقياً.

وكمنت أهميتها الدينية من حيث كونها مركزاً كنسياً معتبراً، عزز ارتباطها بالكنيسة الروسية. وقد عد بطريركها في المرتبة الثانية بعد بابا روما. وفوق أرضها دشن قسطنطين المجامع المسكونية الأولى، وعقدت السنة الأولى منها بجوارها. ودارت على أرضها رحى المعارك التي حصلت بين

الفئات النصرانية المتناحرة في القرنين الثامن والتاسع الميلادي . وبعد إهراق الدماء الغزيرة وتدمير الأعمال الفنية العديدة استقر الأمر واعتبرت خارجة على روما .

ولسنا هنا بصدد سرد تاريخ القسطنطينية ، والمهم إبراز أهميتها . وليست تلك الأهمية خاصة بالنصارى ، فعند المسلمين لعبت دوراً هاماً وقد حث الحديث النبوي الشريف على فتحها فقال النبي الكريم ﷺ « لتفتحن القسطنطينية فنعم الأمير أميرها ونعم الجيش جيشها » . وقام المسلمون بعدة محاولات لإنجاز هذه البشارة النبوية الشريفة ، فسار في عام ٤٧ هـ فضالة الأنصاري على رأس جيش وأمد بقوة إضافية على رأسها يزيد بن معاوية . وحاصر القسطنطينية عام ٤٨٢ هـ ولكنه فشل لمناعة حصونها . ثم حاصرها الأسطول الإسلامي سبع سنوات متتالية من عام ٥٤ هـ حتى ٦٠ هـ ولكنها نجت بفضل النار اليونانية التي كانت تستعمل على سطح الماء . ونفذ سليمان بن عبد الملك الحملة التي أعدها الوليد في أواخر أيامه لفتحها فأرسل جيشاً بقيادة أخيه مسلمة . كما أبحر عمر بن هبيرة بأسطول اتجه إليها وحاصرها . وبعد أن طوقت عاماً كاملاً رفع عنها الحصار إثر مفاوضات قام بها (ليو الأزوري) الطامع في عرشها . واستدرجهم الأخير حتى مكن النار الإغريقية من الفتك بهم وعادت الحملة دون جدوى . وفي عهد العباسيين غزا قسطنطين الرابع أمبراطور القسطنطينية بلاد الشام في عهد أبي جعفر المنصور عام ١٣٧ هـ ولكنها استردت . ووصل جيش إسلامي بقيادة هارون الرشيد في عهد المهدي قوامه ١٠٠ ألف إلى سواحل البوسفور وأرغم أرملة ليو الرابع الوصية على ابنها قسطنطين السابع بدفع جزية سنوية .

وسار المعتصم إلى أنقرة وهزم أمبراطور بيزنطة ووصل عمورية عام ٢٢٣ هـ وحاصرها .

وفي عهد جستنيان الأول وصلت إلى قمة مجدها وبلغ عدد سكانها آنئذ نصف مليون نسمة . ولكن النكبات والمصائب هزتها بعد ذلك وبدأ انحطاطها وكافة الأمبراطورية . ولم تستعد سابق مجدها حتى حلول القرن التاسع الميلادي .

لقد انحرفت الحملة الصليبية الرابعة في عام ٦٠١ هـ عن هدفها الاصلي (استخلاص بيت المقدس من أيدي المسلمين) وتظاهر قادتها بحفظ الشرعية أمام الأمبراطور البيزنطي واستولوا عليها بعد أن اقتحموها عنوة في ١٣ نيسان عام ٦٠٢ هـ ، وسفكوا الدماء الغزيرة . واستمر النهب والسلب لسنوات عدة . ومن بينهم نصب الصليبيون امبراطوراً على القسطنطينية . وسيطر أهالي البندقية واللاتين على بعض الأراضي . وكانت أعظم الكوارث في تاريخها . ولأكثر من نصف قرن من الحكم الصليبي اللاتيني ، إذ دمرت حتى تماثيلها البرونزية وصهرت لصنع العملة ، وسلبت النفائس والذخائر والآثار المقدسة النادرة .

إن الغنى الفاحش والكنوز التي لا تنضب ، وجمال الطبيعة وعذوبتها ، ولطافة الإقليم وما شابه ذلك من المغريات زاد من شره الطامعين وخاصة من جهات الشمال . ولا غرابة فهي مدينة الغنى الفاحش والجمال الساحر والدرة الأولى في العالم الغربي .

كانت القسطنطينية المدينة التجارية الأولى حتى ظهور الدول الإيطالية البحرية . كما تعد المدينة الرئيسية من حيث القوة والإعتبار حتى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي . وقد حفظ لها الذهب وزنها ولأكثر من ألف سنة كانت عملتها المتداولة تصنع منه . وعكست الأسوار حدود حجم بيزنطة ، حيث الأبنية الشاهقة والقصور الفخمة والقاعات والكنائس الضخمة والشوارع المزخرفة بالمواد المجلوبة من الخارج . وصنعت أبوابها من العاج وفرشت أرضها بالموزاييك وغطيت بأفخر السجاد وكانت دواوينها واسرتها تطلى بالمعادن

النفيسة. وكانت وفرة القمح والخبز والثراء لا يقاس فيها بثمن. وقد كتب القديس (جون كريسوستوم) في نهاية القرن الرابع الميلادي عنها وقال: إن الكثير من نبلائها امتلك الفرد منهم حوالي ١٠ - ٢٠ داراً ومن ألف إلى ألفين من العبيد.

إن فتح القسطنطينية على يد الأتراك المسلمين كان له الدوي العظيم في كافة أرجاء العالم وخاصة في الغرب النصراني الذي صفعه النبأ. وتجسمت قوة المسلمين أمام أعينهم فاستنهضوا همم بعضهم البعض وعقدوا الإجتماعات والتقى الملوك والأمراء كي يبعثوا روحاً صليبية جديدة. وتداعوا إلى طرح الخلافات ورفعوا راية الوحدة في وجه المسلمين. وعقد مؤتمر في روما برئاسة البابا. ولم يكتف الأمير فيليب الطيب - دوق بورغونديا بإجراء المحادثات التآمرية بين ملوك أوروبا ضد المسلمين ولكن أثار الشعوب النصرانية ضد الأتراك. وأقام تمثيلية في مدينة (ليل) لاستثارة الحمية والحماس دعا إليها نبلاء قومه وعرض منظراً يمثل فتح القسطنطينية واستغاثتها بالنصارى. وبعد انتهاء الحفلة اعلن عزمه منازلة الأتراك حتى ولو كان وحيداً. وأصبحت فكرة القتال ضد المسلمين عامة.

بعد أن وضع محمد الفاتح يده على مفتاح أوروبا الشرقية والعالم القديم برمته، تزعمت البابوية في روما النضال ضد العثمانيين، وقويت الفكرة الصليبية التي أثارتها البابوية فمن محاولة لانتزاع بيت المقدس من أيدي المسلمين إلى حرب دفاعية بغية انقاذ أوروبا من أيدي الترك المسلمين وفي مدة قصيرة استطاعت الجيوش العثمانية هزيمة المجر التي تزعمت قيادة الحملة. ووطدت الدولة العثمانية أقدامها في صربيا واليونان والافلاق والقرم والجزر الأرخبيلية. ولولا وفاة الفاتح آنذاك لتم الإستيلاء على ايطاليا ولتغير وجه تاريخ أوروبا.

أصبحت القسطنطينية بعد الفتح الإسلامي عاصمة الدولة العثمانية وتحول وجهها النصراني وطابعها البيزنطي إلى طابع إسلامي جميل. وتحولت الكنائس إلى مساجد. وساد الأمن والسكينة فيها وانتشر العدل في أرجائها. وهاجر المسلمون إليها وخاصة أهل العلم والاختصاص منهم. وانتصبت المآذن العملاقة وهي تردد كلمة (الله أكبر). وأصبحت المدينة ملاذ العالم ومأمن الخائف والمظلوم. ولجأ إليها بعض العرب من بلاد الأندلس.

الفصل الرابع

التوسع الاستعماري الروسي

أهداف روسيا :

إن أهداف الأمم أهداف ثابتة لا تتبدل حتى تتحقق عكس الأمم الضعيفة منها والمتأخرة إذ تتبدل أهدافها بتبدل حكامها . . ومن هذا المنطلق فإن أهداف الروس واحدة منذ نشأة تلك الدولة . وتتلخص في :

١ ـ السيطرة على المضائق التركية في سبيل الوصول إلى المياه الدافئة وبالتالي منافسة الأمم الأخرى . وهذا هدف ظاهري حقيقته السيطرة على القسطنطينية وهزيمة الإسلام هناك . وإعادة المسلمين إلى حظيرة النصرانية عبثاً .

٢ ـ استرجاع القسطنطينية من أيدي المسلمين واعادتها إلى حظيرة الكنيسة الأرثوذكسية والقصد من هذا الهدف هزيمة المسلمين أيضاً . وتدمير وحدتهم وترابطهم .

٣ ـ التوسع في الجهات الجنوبية والجنوبية الشرقية بحجة الوصول إلى الأراضي الحارة المنتجة لبعض السلع والتقليل من ضغط السكان الروس

في المناطق التي يقطنونها. والقصد الحقيقي يكمن أيضاً في هزيمة المسلمين في تلك المناطق وتشتيتهم. ويحتجون في هذه النقطة على منافسة الأمم الغربية. لهذا نلاحظ أن الروس قد عمدوا إلى تعزيز استعداداتهم الجديدة وتعبئة قواتهم وتنظيمها، فلجأوا إلى الصلح في زمن الحرب كي يزيدوا من دعم جيشهم وتقويته. وتمكنوا من الاستفادة من الخبرات الأجنبية، واستقدموا العلماء الأجانب والخبراء من الدول الأخرى. كما أنهم جعلوا بلادهم تدس أنفها في مشكلات أوروبا وخاصة جيرانهم. ولا مانع عندهم من اللجوء لاستعمال الرشاوي وأساليب الفساد كي يتمكنوا من التدخل في شؤونهم وخاصة بولندا. كما أنهم ساهموا في إشعال الحرب مع السويد بتحريضها على خوض غمارها كي يتمكنوا من ابتلاع أراضيها. وعززوا ذلك بالقاء نار العداوة بينها وبين الدانمارك.

أما دعم نفوذهم داخل ألمانيا فيمكن تحقيقه بإقامة صلات الزوجية مع الأسرة الامبراطورية الحاكمة هناك. وساهموا في تعجيل الإتفاق مع بريطانيا بحثاً عن مصالحهم التجارية.

إن وصية الإمبراطور الروسي بطرس الأكبر تجسد الأهداف الروسية الاستعمارية إزاء دول العالم الأخرى. وخاصةالدولة العثمانية إذ جاء في البند الثامن منها: «على الروس أن ينتشروا يوماً فيوماً شمالاً في سواحل بحر البلطيق وجنوباً على سواحل البحر الأسود..» وهذا ما يؤكد النيات الروسية التوسعية تجاه المنافذ البحرية ووصولاً للمياه الحارة وباعتبار السيطرة العثمانية على شواطىء البحر الأسود فإن هذا لا يروق لهم. وما لم يغيروا خارطة تلك المنطقة من العالم لصالحهم فإنهم لن يتمكنوا من الحصول على الدرة المفقودة التي لا يزال يعتصر قلب العالم النصراني أسىً وحزناً من جراء فتح المسلمين لها.

ولتأكيد هذه الأطماع نورد ما جاء في البند التاسع من الوصية نفسها إذ يقول: «.. ينبغي التقرب بقدر الإمكان من استانبول والهند. وحيث أنه من القضايا المسلمة أن من يحكم على استانبول يمكنه حقيقة أن يحكم على الدنيا بأسرها. فلذلك من اللازم إحداث المحاربات المتباينة تارة مع الدولة العثمانية وتارة مع الدولة الإيرانية. وينبغي ضبط البحر الأسود شيئاً فشيئاً وذلك لأجل إنشاء دار صناعات بحرية فيه... والتعجيل كما جاء في البند نفسه بضعف بل بزوال دولة إيران لنتمكن من الوصول إلى خليج البصرة، وربما لنتمكن من إعادة تجارة الممالك الشرقية القديمة إلى بلاد الشام والوصول منها إلى بلاد الهند التي هي بمثابة مخزن للدنيا. وبهذه الوسيلة نستغني عن ذهب إنكلترا.

من هذا نتبين الأهمية الاستراتيجية لوصول الروس إلى مياه البحر الأسود حيث يمكن إقامة الصناعات البحرية من جهة والوصول إلى استانبول من جهة أخرى، إذ أنه وصف من يحكمها بتملك الدنيا بأسرها. ولا يخفى أهمية بلاد الشام التي كانت تتبع الدولة العثمانية بغية الوصول إلى مخزن الدنيا بلاد الهند. وكذلك الأمر بالنسبة لإيران للوصول إلى خليج البصرة.

ولنرجع مرة أخرى إلى وصية بطرس نفسها والذي يقول في البند الحادي عشر منها: «.. وحينما نستولي على استانبول علينا أن نسلط دول أوروبا القديمة على دولة النمسا حرباً، أو نسكن حسدها ومراقبتها لنا بإعطائها حصة صغيرة من الأماكن التي نكون قد أخذناها من قبل. وبعده نسعى لنزع هذه الحصة من يدها...».

وللتعجيل من تحقق الأهداف الروسية في المنطقة، فإنهم لجأوا إلى تحريك نصارى الدولة العثمانية المشتركين معهم في المذهب كي يكونوا ساعدهم الأيمن وسلاحاً يشهرونه في وجه أعدائهم المسلمين وقد أشار البند الثاني عشر من

الوصية إلى ذلك فقال: « ... ينبغي أن نستميل لجهتنا جميع النصارى وغيرهم من مذهب الروم المنكرين رئاسة البابا الروحية والمنتشرين في بلاد المجر والولايات العثمانية وفي جنوبي ممالك (له) أي بولونيا، ونجعلهم أن يتخذوا دولة روسيا مرجعاً ومعيناً لهم. ومن اللازم قبل كل شيء إحداث رئاسة مذهبية حتى نتمكن من إجراء نوع نفوذ وحكومة رهبانية عليهم، لتسعَ بهذه الواسطة لاكتساب أصدقاء كثيرين ذوي غيرة نستعين بهم في ولاية كل من أعدائنا ... ».

ويقول الكاردينال الإيطالي (البروني) في مشروعه المقترح للقضاء على الدولة العثمانية ما خلاصته: وجوب دعم النمسا من قبل فرنسا وإسبانية ضد الدولة العثمانية، ثم اتفاق النمسا مع روسيا وبالتالي تمكنهما معاً من طرد العثمانيين من أوروبا واسترجاع الأراضي المقدسة.

وبعد أن أشار إلى كيفية تجهيز الجيوش عسكرياً ومالياً ذهب إلى أن فشل الحروب الصليبية يعود إلى اختلاف النصارى حول تقسيم الفتوحات. وكمكافأة للقيصرة الروسية على جهادها لنشر الديانة قال بوجوب إعطائها بلاد التتار وآزوف. وفصَّل كيفية الهجوم بأن يزحف الروس باتجاه القرم ويحتلون آزوف، وتقوم في الوقت نفسه جيوش بولونيا والدانمرك والسويد بقطع نهر الدنيستر وتفتح بلاد البغدان وبلاد التتار وبلاد طرابزون وغيرها. وتجددت الحماسة النصرانية لقتال العثمانيين في أوروبا في أواخر القرن الثامن عشر فدعا فولتير لنصرة الأروام ونظم (شينه) الأشعار الحماسية لمقاتلة الأتراك، ونشر الكونت (دومارسفلي) كتاباً سماه « حالة تركيا العسكرية وتقدمها وتقهقرها » قال فيه « ... إذا اتفق الامبراطور والروس وبولونيا والبنادقة أمكنهم محو السلطنة العثمانية من الوجود ».

وبعد موت ماريا تيريزا عام ١٧٨٠ انفسح المجال أمام كاترينا الثانية كي

تعمل لنشر دسائسها لدى يوسف الثاني بغية إقناعه بتقسيم تركيا. كما أرسلت إلى فرنسا أيضاً تقترح عليها الموافقة وأن تكون مصر لها.

وفي ٣٠ مايس عام ١٧٨٠ التقت كاترينا مع يوسف الثاني واتفق الطرفان على إسقاط تركيا. ولكن فرنسا قاومت المشروع مقاومة شديدة حينما علمت لخوفها من توسع الروس. وحاولت كاترينا مع الامبراطور يوسف بقصد اتمام المشروع وتقسيم الدولة العثمانية ولكن الأخير كان يتذبذب لاعتراض فرنسا الشديد.

واضطر الباب العالي إلى عقد معاهدة مع الروس تخلى بموجبها عن شبه جزيرة القرم كما سنذكره في حينه.

وفي رسالة نشرها ڤولناي الكاتب الفرنسي الشهير تحت عنوان « اعتبارات مع الحرب الواقعة مع الأتراك» أعلن عن تأييده للسياسة الروسية السلافية في الوقت الذي أعلن الروس فيه الحرب على الأتراك وانضمت النمسا إلى جانب الروس وأعلنوا الحرب جميعاً على الدولة العثمانية وقد قال ڤولناي في حينها « إن الأتراك فتحوا أجمل بلدان العالم وأعظمها في أقل من ٤٠٠ سنة، ومنذ حوالي المائة سنة ظهرت دولة روسيا قبل هذا التاريخ مجهولة فتقدمت وأصبح المستقبل لها. وسواءً كان في العالم المادي أو في العالم الأدبي إذا بدأ الجسم يتحرك كان استمرار حركته بقدر جسامته». ثم قال... إن تركيا يجب أن تنقرض. وأشار على بلاده فرنسا الإتفاق مع الروس لذلك الغرض وعدم معارضتهم في استخلاص القسطنطينية. وقد رد عليه شخص كان يعمل قنصلاً لفرنسا في إزمير. ومما لاحظ أن تقدم الروس نحو البلدان العثمانية والتي وإن دخلت في حوزة روسيا جاء وقت تأسف فيه المسيحيون في هذه البلاد على الحرية التي يتمتعون بها في ظل الترك وذلك مما سيعانون من فظائع الاستعباد الروسي الذي تعرفه جميع الشعوب التي دخلت تحت حكم روسيا. وذكر توحش

الروس كما وصف التسامح العثماني العظيم للنصارى في ظل السلاطين من آل عثمان وامتيازات الأجانب.

في ذلك الوقت أرادت انكلترا التقرب من كاترينا مقترحة تقاسم النفوذ في شرقي أوروبا والشرق الأقصى، الأمر الذي رفضته كاترينا، فاتفق الانكليز مع بروسيا عام ١٧٨٨ وقررتا العمل سوياً في الشرق. ومن حينها دافعت انكلترا عن وجود تركيا لتوقف امتداد الروس.

وأخيراً لا يسعنا إلا سرد ما قاله نابليون في منفاه بجزيرة القديسة هيلانة «... تذاكرت مراراً مع الروس في أمر قسمة السلطنة العثمانية، وكان ذلك ممكناً لولا القسطنطينية التي كانت دائماً سبباً لمنع الإتفاق. فقد كان الروس يريدونها، وأنا لم أكن أرضى باستيلائهم عليها. فإن القسطنطينية وحدها مملكة، ومن ملك القسطنطينية أمكنه أن يسود كل الدنيا.». كما أنه قال مرة أخرى «القسطنطينية مفتاح العالم» وفي ٧ شباط عام ١٨٠٧ قال أيضاً «إذا سقطت مملكة القسطنطينية لم يكن أحداً أن يعرف ما يتبع ذلك من المصائب والحروب... وإن ارتفع تاج هذه البلدة على رأس يملك من البلطيك حتى البحر المتوسط لم يبعد أن يجد أقواماً من البرابرة هاجمين على فرنسا من جهة البحر..». ويقصد الروس بذلك.

الدولة العثمانية والأطماع الامبراطورية الروسية:

قام الصقالبة بعد فتح القسطنطينية برد فعل ضد المسلمين التتار. وقامت حرب صليبية جديدة تجلَّت في عهد القيصر إيڤان الثالث - أول من أظهر اطماعه في القسطنطينية بشكل واضح - الذي تمرد على التتار. أما ايڤان الرابع الذي سمي بالرهيب لشدة ما لحق المسلمين من أذى على يديه بين قتل وذبح وتشريد، فإنه غزا المناطق الإسلامية، ودخل قازاق عام ٩٦٠ هـ، وضم

إمارتها إلى دولته. وألحق بلاد الشوڤاش بموسكو، وكذلك ماري وموردوف، ودخل أوڤا عاصمة الباشكير عام ٩٦٣ هـ. كما اقتحم مدينة الحاج طرخان، واستولى على بلاد الأدمورت عام ٩٦٨ هـ. وبذلك فإنه ضم البلاد الإسلامية التي تقع بين موسكو وجبال الأورال من جهة الشرق وبحر الخزر جنوباً، والتي تقرب مساحتها من مساحة العراق. ولم يبق أمامه سوى بعض الأقسام الجنوبية وشبه جزيرة القرم.

وقام الصقالبة النصارى بالإنتقام من المسلمين العثمانيين عامة، والتتار خاصة. وعد المسلمون جميعاً وفي كافة أرجاء الأرض أعداءاً لروسيا، ومسؤولين عن تقويض بيزنطة وفتح عاصمتها

وقام المسلمون بنشر الإسلام أثناء مطاردتهم من قبل الروس، باتصالهم بالسكان المحليين، مما زاد في حقد الروس، لأنهم يريدون إدخالهم بالنصرانية الأرثوذكسية فإذا بهم يعتنقون الإسلام. فأبقوا التتار في أماكنهم وبدؤوا بعزلهم، ولكن الإسلام انتشر «يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون» صدق الله العظيم.

واستمرت الحرب وكان هدفها:

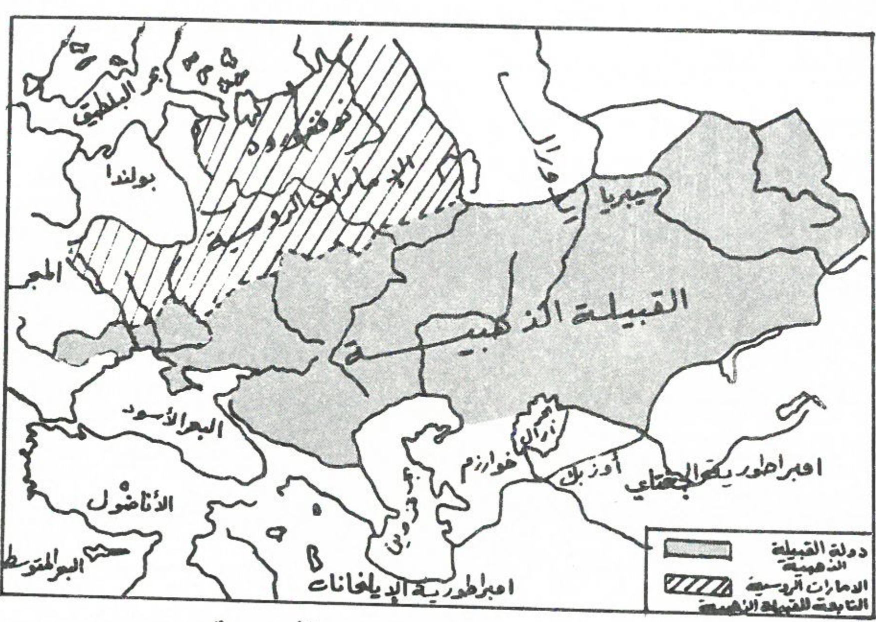
ـ الإستيلاء على أرض التتار.

٢ - تحويل السكان إلى سلاف.

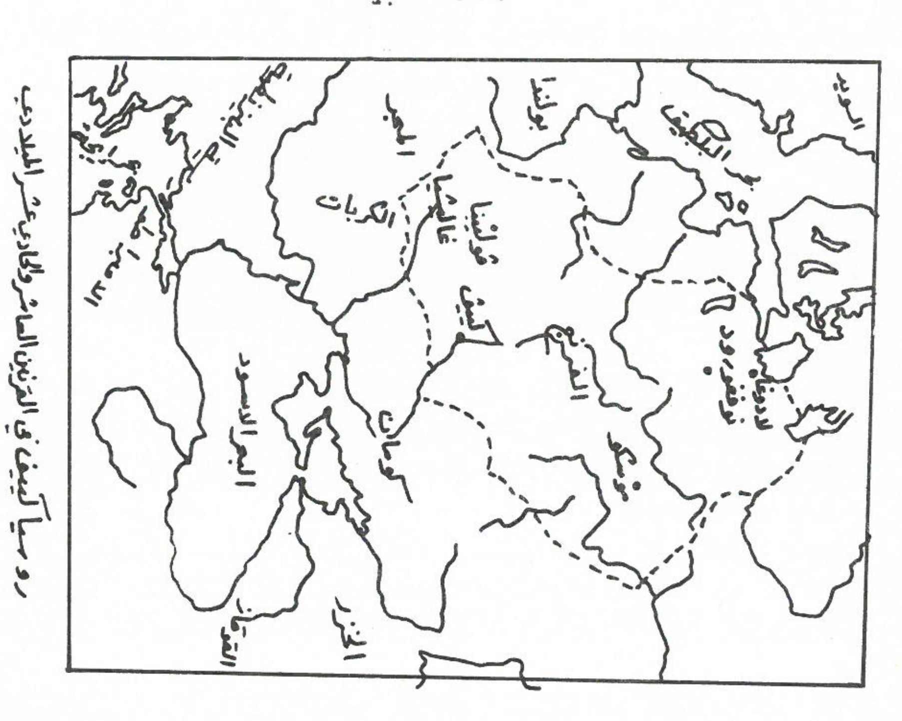
٣ - الإستيلاء على القسطنطينية والمضائق.

٤ - محاربة الإسلام.

وكان التظاهر الروسي يتجلى بتهجير السكان إلى مناطق المسلمين بحجة ازدحام السكان في روسيا وحول موسكو إلى البلاد التي تفتقر للسكان. إذ أنهم لم يتمكنوا من إيجاد مستعمرات لهم فيما وراء البحار، كما هي الحال في الدول الأوروبية.



دولة القبيلة الذهبية



روسيا الكيفية في القرنين العاشر والحادي عشر الميلادي

أما تحويل السكان إلى سلاف، فيزعمون أنه من أجل تدعيم الوحدة الوطنية. ولكنهم يعتقدون أن كلمة سلاف لا تعني قوماً فقط، وإنما ديانة ومذهب معين.

والواقع أن هدفهم الحقيقي ينبع من الحقد الصليبي الصارخ، والانتقام من المسلمين، وخاصة العثمانيين والتتار.

ووقفت أوروبا موقف المتفرج. والسر يكمن في:

١ - عدم مزاحمة الروس لهم في مناطق نفوذهم في آسيا وأفريقيا، وبذلك فإنهم في مأمن من خطر روسيا.

٢ - إن محاربة المسلمين من قبل روسيا، هو لصالح أوروبا النصرانية، التي تشترك معهم في العقيدة وإن كانت تخالفهم في المذهب. والهدف البعيد في قتل المسلمين واحد. فالروح الصليبية واحدة، والكراهية واحدة، وبذلك فإن إضعافهم وتقتيلهم وإجلاءهم عن أراضيهم على أيدي المستعمرين الروس، أمر ترتاح له أوروبا، لأنه إضعاف للمسلمين عامة وخاصة في الكثير من مستعمراتها.

وأصدر القياصرة أمراً بتحريم اعتناق أي دين يخالف الكنيسة الأرثوذكسية. وعاش المسلمون في بلادهم كالأرقاء. وعوملو معاملة من الدرجة الثانية والثالثة. وفسح المجال للتبشير الأرثوذكسي في قراهم ومدنهم.

وقام المسلمون بثورات، أهمها ثورة الباشكير عام ١١٨٧ هـ، ففشلت وقمعت بوحشية. وهجِّر السكان، وحل الروس مكانهم، وضربت المساجد، وقتل عدد غفير من المسلمين.

ووضعت المشاريع الكثيرة للقضاء على أكبر دولة للمسلمين آنذاك وهي الدولة العثمانية المتاخمة للروس كي تتحقق الأطماع الامبراطورية الروسية من

جهة ويقضي على المسلمين من جهة اخرى.

تدهور القبيلة الذهبية وتصفية المسلمين:

ذكرنا سابقاً كيف بدأ اعتناق الأسرة الذهبية للإسلام منذ عهد (بيرق)[1] خليفة (باتوخان) عام ٦٥٥ هـ الموافق ١٢٥٧ م. وأن أوج ازدهارها وقوتها كان إبان حكم (عبد الله خان أوزبك) والذي في عهده زار ابن بطوطة المنطقة وتكلم عنها بشكل مسهب. كان العداء مستمراً بين الحكام المسلمين وبعض رعاياهم من النصارى الروس بدافع من عناصر حاقدة على المسلمين وراءهم. وبدلاً من هيمنة خانات الأسرة الذهبية على الأفراد الروس والليتوانيين فإنهم اعتمدوا على مساعدتهم في الصراعات الداخلية التي كانت تمزق الدولة إرْباً. وبذلك فإنهم سمحوا لأعدائهم بحبك الدسائس وأعطوهم حرية الحركة كي يتمكنوا من ضربهم حين تسنح الفرص.

وفي مجال السياسة الخارجية أدى اتفاق السلم الذي أبرم بين المماليك ودولة الخانات الثانية عام ١٣٢٣ م إلى إضعاف نفوذ الأسرة الذهبية في مصر لأنها كانت تتفق مع المماليك في حربهم ضد الدولة الإيلخانية التي أسسها هولاكو[2]،

---

(١) كان بيرق خان أول من أسلم من أمراء المغول. وقيل أنه التقى يوماً مع قافلة تجارية قادمة من بخارى، وسأل تاجرين منهم عن الإسلام. فشرحا له بإقناع، مما أدى به إلى اعتناق الإسلام بإخلاص. وأفصح أمره لأصغر إخوته، رغبة منه في أن ينحو نحوه. ثم أعلن عن إسلامه. ويذكر الجوزجاني، أنه اعتنق الإسلام منذ طفولته، وحفظ القرآن على أحد علماء خوقند، وأن كل جيشه كان مسلماً، ولم يكن شخص واحد فيه يتعاطى المسكرات. وأن الطبقة الراقية في بلاده تضم مشاهير المفسرين والفقهاء والعلماء والمحدثين. وكانت المناظرات العلمية تشغل معظم مجالسه.

وكان متمسكا شديد التدين. وتحالف مع الظاهر بيبرس. وكان لكل أمير وأميرة في بلاطه، إماماً ومؤذناً خاصاً. ويحفظ الأطفال القرآن في المدارس.

(٢) أسس هولاكو أسرة إيلخانات المغول. وتحالف مع النصارى في الشرق كالصليبيين وملك ⇐

فلما اتفق المماليك والإيلخانيون فلم يعد كبير أثر للأسرة الذهبية في القاهرة قاعدة حكم المماليك. وأدى بناء القوة العثمانية في الدردنيل عام ١٣٥٤ م إلى حدوث نهاية فعلية للصلات التجارية بين الفولغا ووادي النيل. ولم يتمكن حكام الأسرة الذهبية من توفير المناخ الملائم المساعد على اعتناق الإسلام بشكل واسع بين الرعايا. وبذلك استمرت التقاليد الكيفية بالانتعاش والاستمرار من حيث الأساس في ظلهم.

وكانت أراضي الدنيبر العليا التي خضعت أخيراً لسيطرة ليتوانيا إضافة إلى امارات ڤولينيا وغاليشيا بتماس صميمي مع غرب ووسط أوروبا إذ تبدو الواحدة منها كمستودع للتقاليد الكيفية. ولم يتمكن التتار من تعميق أثر الإسلام دينياً وفكرياً فمثلاً لا يوجد دليل مقنع على أن نصاً تركياً أو دينياً إسلامياً كان أم فلسفياً أو أدبياً أو مدرسياً قد ترجم مباشرة إلى السلاڤية أو أية لغة عامية أو وطنية سلاڤية شرقية خلال تلك المدة. إذ أن التتار قد دخلوا بالإسلام ولم يتمثلوه بشكل صحيح وبقيت كثير من العادات على حالتها القديمة، وبقي اعتناق الإسلام والدعوة له عاطفياً.

وكان القصر يختلف عن ذلك. إذ سيطر بعض الأمراء النفعيين إلى جانب التجار والديبلوماسيين الأمر الذي أدى إلى إفراز ثقافة مختلفة نال التجار السلاف النصيب الأدنى منها. وخلاف ذلك طور أمراء موسكو ثقافة وأسلوباً خاصاً.

أرمينيا. وكانت زوجته المحببة إليه نصرانية. وتزوج ابنه «أباقا خان» من ابنة امبراطور القسطنطينية، وامتلأ بلاطه بالقسيسين. كما أرسل السفراء إلى بعض ملوك أوروبا، طالباً التحالف ضد المسلمين.

أما «تكو درار أحمد» أخو أباقاخان الذي اعتلى العرش من بعده، فقد اعتنق الإسلام في فارس. وقد أرسل بذلك إلى سلطان مصر «قلاوون» ولكن حدث ارتداد من بعده استمر حتى عهد «غازان» الذي دخل في الإسلام وجعله دين الدولة في فارس.

بناء على ما ذكر إضافة إلى أسباب أخرى عديدة بدأ انحلال الأسرة الذهبية. وقام طوغطاميش يطلب الدعم والتأييد من تيمور الذي بزغ نجمه آنذاك إلا أن ذلك لم يطل فتيمورلنك الذي ظهر إبان فوضى سياسية عامة تميزت بها آسيا الوسطى لجأ إلى تمجيد الأباطرة ولكنه كان يجردهم من كل قوة فيصبحوا دمى بين يديه تحت زعم العمل لمصلحتهم. وسرعان ما أجهز هذا المغامر الذي كرس حياته كاملة للحروب على حليفه طوغطاميش وهزمه عام ٧٩٨ هـ الموافق ١٣٩٥ م فكانت ضربة قاصمة لدولة الأسرة الذهبية تفككت أوصالها بعد هذه الهزيمة بزمن قصير.

نتيجة لما حدث تزايد النمو في مراكز القوى السياسية القديمة أمثال موسكو ـ ليتوانيا ـ منطقة بلغار الفولغا والتي أضحت تعرف باسم خانات القازاق، وفي القرم. كما رافق ذلك صراع عائلي وبرزت ليتوانيا وتڤار ونوفغورود. واحتفظت العديد من المناطق التي كان سكانها يعدون اسمياً من رعايا موسكو بعائلاتها الخاصة. وبعد صراع سلالات متعاقبة في أوائل القرن الخامس عشر الميلادي ظهرت موسكو كرائدة للأراضي الروسية.

تمكن تيوميني الأعمى بمساعدة أعيان موسكو العودة إلى عرش الإمارة بعد أن كان قد هزم وأسر وافقد بصره أثناء حروبه طوال عشرين عاماً ضد عمه أمير غاليش المدينة التجارية في الفولغا العليا. وبعد موته تولى الديبلوماسي القوي (ايڤان الثالث) ١٤٦٢ ـ ١٥٠٥ م الذي وحد قسماً كبيراً من الأراضي الروسية وأخضع نوفغورود بعد عدة حملات وألحقها بإمارة موسكو نهائياً وأخرج الأعيان والتجار منها.

وانضم سكان مناطق الحدود من أبناء الإمارة الليتوانية الكبرى إلى الدولة الروسية وصارت الإمارات الواقعة في أعالي نهر (أوكا) و(دفينا) تحت سلطة أمير موسكو. ثم ضمت في عهد (ڤاسيلي ايڤانوفيتش) إمارة ريازان

وبسكوف وسمولنسك. وابتدأت تصفية المغول المسلمين بعد تحلل الأسرة الذهبية إلى دويلات القرم واسترخان (الحاج طرخان) وقازان. ورفض ايڤان الثالث دفع الجزية للمسلمين المغول وهي التي فرضت بعد فتح تلك البلاد. وعقد الخان أحمد اتفاقية مع الأمير الليتواني (كازيمير الرابع) وشن حملة على موسكو. وتمكن ايڤان الثالث من محالفة خان القرم. وتمركزت قوات الأخير عام ١٤٨٠ م عند نهر (أوكا) وتحركت من ثم نحو أعالي النهر لتتحد مع القوات الليتوانية. ثم نشب النزاع بين ايڤان الثالث وإخوته وحدثت اضطرابات فرأى الروس عقد صلح مع الخان أحمد مهما كان الثمن. وتنازل ايڤان لإخوته وتمكن الروس من احتلال مواقع حصينة. وهجم التتار القرميون على أراضي كازيمير الرابع في الوقت الذي حنث الأمير الليتواني بما قطع من عهود مع الأمير أحمد وتلك شيمتهم في تعاملهم مع المسلمين دوماً. فلم يتمكن من استئناف الهجوم وعاد بقواته متراجعاً مع حلول الشتاء وقام اعداؤه بتدبير مؤامرة وقتلوه.

سقطت الأسرة الذهبية نهائياً عام ١٤٨٠ م وسمى إيڤان الثالث نفسه باسم قيصر عموم روسيا وقوَّى الجيش ونظَّم الخيالة وسلحها لتكون القوة العسكرية الأساسية إلى جانب جيش آخر. وكان لظهور السلاح الناري أثر يذكر فتكونت فصائل من حملة البنادق الثقيلة وأنشئت ورشة المدافع.

وبعد فتح العثمانيين مدينة القسطنطينية تأكد دور موسكو كوريثة للإمبراطورية البيزنطية. وبرز دور مطران موسكو بوصفه رئيساً للكنيسة الأرثوذكسية. وزاد من أهمية دور الروس زواج إيڤان الثالث من صوفيا باليولوج ابنة أخِ آخرِ امبراطور بيزنطي.

استطاعت سلطات الأمير الكبير أن تقمع بقسوة الانتفاضات الشعبية واصطدمت مع أمراء الأقاليم وأعدم ايڤان الخلق الكثير وصادر العقارات. كما

انتهج أتباعه الخطة نفسها. ولجأ مسجلو الحوادث إلى نسب سلالات أمراء موسكو لأصل امبراطور روما أوغسطوس وأكد رجال الكنيسة فكرة الأصل الإلهي لسلطة الأمير الكبير مما رفع من هيبتهم في نظر الشعب. بعد أن تحللت الأسرة الذهبية لجأ الخانات في كثير من الأوقات إلى طرح شعار الاتحاد فيما بينهم ومن ثم القيام بحملات مشتركة الأمر الذي جعل حدود روسيا الجنوبية والشرقية مهددة دوماً. وقام العثمانيون بتأييد خانات القازان والقرم ضد الروس الذين كانوا ينشئون خطوط الدفاع بأغصان الأشجار وجذوعها ويبنون القلاع العديدة. وكانت دويلة خان قازان من أقوى دويلات الخانات فأخضعت (موردوف وماري) والباشكير في مناطق الفولغا ودخل حشد كثير من الناس في الإسلام.

ولكن الخلافات بين حكام قازان زادت فمنهم من يؤيد الروسيا ومنهم من يؤيد القرم والدولة العثمانية. وتعددت غاراتهم في أواسط القرن السادس عشر على الأراضي الروسية وخاصة في عهد ايفان الرابع الطامع في التوسع والثروات الطبيعية والأراضي الخصبة والحاقد قبل كل شيء على المسلمين. وتمكن المسلمون من صد غاراته الأولى على بلادهم هناك فتحصن ايفان وقوى الجيش وأنشأ قلعة عند مصب نهر (سفياغا) في الفولغا. وتحرك الجيش الروسي البالغ عدده ١٥٠ ألفاً في صيف عام ١٥٥٢م والمعزز بالمدفعية، من موسكو باتجاه قازان وحاصرها فسقطت ثم ابتلعها وابتلع آستراخان بعد أربع سنوات فقط. وأرغم الباشكير على التجنس بالجنسية الروسية وأخضعت قبائل الشركس للحماية.

الفصل الخامس

العثمانيون والروس

في القرن السادس عشر الميلادي

العثمانيون في أوروبا:

منذ أن فتح محمد الثاني القسطنطينية عام ١٤٥٣م وأحرز الانتصارات المبينة في أوروبا وآسية وبعد تجهيز أسطوله البحري القوي استطاع الهيمنة على البحر الأبيض المتوسط الشرقي. ولم يخض ابنه بايزيد الذي تولى الحكم من بعده والذي أحب الفلسفة والفنون والسفر والسلم غمار حرب إلا لضرورة. وحينما تخلى عن الحكم لابنه سليم المحب للفتوحات، استطاع الأخير في خلال ثمان سنوات مضاعفة رقعة الدولة العثمانية. فهاجم فارس الخصم المناوىء للعثمانيين في آسيا وحارب المماليك ودخل دمشق والقاهرة وأصبح العثمانيون سادة الجزيرة العربية وأخذوا منصب الخلافة. وهدد سليمان بن سليم أوروبا من جديد ونشبت العداوة بينه وبين شارلكان خلال عشرات السنين. وانصرف سليمان إلى أوروبا وقرر مهاجمتها في نقطة ضعيفة واجتاح المجر وتوغل باتجاه قلب القارة المجزأة. كما حاصر فرسان القديس يوحنا حماة جزيرة رودس.

وسقط ملك فرنسا عام ٩٣١هـ أسيراً بيد الجيوش الامبراطورية الجرمانية فعلمت أمه بذلك وكانت تدير شؤون الدولة فأرسلت الى السلطان

ترجوه التدخل لخلاصه من الأسر. وعرض السلطان مشاريعه، ولكن أطلق سراح فرانسوا قبل تطبيق المشاريع التي تضمنت اجتياح ايطاليا واسبانيا. فاتجه السلطان بجيوشه نحو هنغاريا. وبعد الاستيلاء على حصن يقع على الحدود جرت المعركة الحاسمة تجاه قرية موهاكس على الدانوب في ٢٩ آب. كانت نتائج معركة موهاكس شديدة الوطأة، وكان بداية الاتحاد بين النمسا والمجر.

كان سليمان يعلم وضع أوروبا المجزأة وهو في مركز القوة ويتابع التطور الديني في ألمانيا. وربما كان يعلم بثورة البروتستانت عام ٩٣٥ هـ قبل زحفه على ڤيينا. وعندما بلغ العثمانيون أسوار ڤيينا دب اليأس إلى قلب فرديناند ملك بوهيميا الذي طلب النجدة من الإمبراطور. ودام الحصار أربعة أسابيع حاول العثمانيون خلالها أربع مرات اقتحام المدينة ولكنهم فشلوا في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تمسك أنفاسها. وعاكس الطقس الفاتحين فأمسكوا وحل البرد القارس فعرقل القتال، ورجعوا إلى القسطنطينية.

وهاجم سليمان شارلكان واجتاز المجر ولكن الحملة فشلت لعقد الصلح بين الامبراطور واللوثريين. ورأى العالم النصراني جريمة وخيانة للإيمان المسيحي تمت لاتفاق جرى بين سليمان وفرانسوا الأول الذي يعدونه الابن البار للكنيسة الرومانية.

كان سليمان عاهلاً عظيماً أضفى عليه التاريخ لقب الفاخر، وأصبح العثمانيون ركناً أساسياً في السياسة الأوروبية في الوقت الذي كان فيه أُوار الحرب الصليبية لا يزال مشتعلاً في أوروبا. ثم حل الضعف وخفت هيبة العثمانيين مع نهاية القرن السادس عشر ولكنهم استطاعوا الاستقرار في غربي البحر الأبيض المتوسط. وهدد خير الدين بارباروس أوروبا على الرغم من هجوم شارلكان عام ٩٤٨هـ. وقام فيليب الثاني بن شارلكان بحملة صليبية ضد العثمانيين.

وبلغت الدولة نقطة الأوج بين موت سليمان وصقللي باشا ٩٨٦ هـ وامتدت على مسافة ٧٠٠٠ كم من الغرب للشرق و٥٠٠٠ كم من الشمال للجنوب وبمساحة قدرها ٨ مليون كم٢. وجنى التجار الأرباح الطائلة وجمعت الثروات الضخمة ونال كبار الموظفين أعلى الرتب والمرتبات. وتقدمت نتيجة لذلك الحضارة. ووجدت إلى جانب ذلك فجوات تمثل فيها الفساد الذي فتك في الجيوش والولايات وقامت الثورة في القرم عام ٩٩٢ هـ وفي أوساط الانكشارية والدروز والأفلاق والبغدان وترانسلفانيا فكان ذلك عاملاً في توقف التقدم العثماني.

كان العامل الروحي المعنوي هو الأهم في إبراز هذا المظهر من التقدم والقوة العثمانية إلى جانب العامل الاقتصادي. ولكن كانت الصناعة ضعيفة ولم يهمل السلاطين مصالح بلادهم التجارية وكانت دقة التنظيم عاملاً هاماً قام به الخلفاء وخاصة من الناحية الإجتماعية فطاعة السلطان مفروضة لأنه خليفة رسول الله صلّى الله عليه وسلم.

موسكوڤيا والمجتمع الروسي:

منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي عدت موسكوڤيا في عداد الدول الأوروبية لثلاثة عوامل: الأول عرقها السلافي والثاني ديانتها الأرثوذوكسية لا منفذ لها على البحار باستثناء المتجمدة، واقعة بين أعدائها التتار من جهة والأوروبيين من جهة أخرى. وكانت مدنها تتمتع بالإستقلال الذاتي أمثال نوفوغورود الكبرى ومسكوف.. وكان كل أمير مطلق السلطان على أملاكه والأمراء يتمتعون بالحصانة ومعفيين من الضرائب والخدمات.

كان أمير موسكو الأكبر هو الأساس في البلاد. وكانت موسكو في معزل عن طرق الغارات الكبرى، تحميها الغابة. ومنذ عام ٧٢٨ هـ، كانت عاصمة دينية كما ذكرنا في حينه. وأصبح الأمير الكبير وبتفويض من خان الأسرة الذهبية

السيد في روسيا منذ عام ٧٥٤ هـ . وبذلك تحول إيڤان الثالث من أمير الى رئيس دولة وتخلى الضعاف عن استقلالهم . وكان تجزؤ الأسرة الذهبية فرصة لإيڤان ليعلن بها نفسه مستقلاً .

إن نجاح إيڤان إضافة الى ديانته الأرثوذوكسية كان سبباً في زواجه من صوفيا وعدّ ذلك رمزاً سياسياً وصيغت الأفكار التي فرضت على الروس ونسجت الخرافات والأساطير بشكل هالة مثل روسيا المقدسة ،وشعبها هو شعب الله المختار اختاره الله ليعمل على نصر مملكة المسيح،وستبقى دولتها حتى آخر العالم ، وستسيطر على العالم وأن موسكو هي العاصمة الأخيرة والوحيدة في العالم المسيحي ، وعاهلها ورث تلك الروح من أباطرة بيزنطة ، وأنه مسيح الرب ولا يجيب عن أعماله الا أمام الرب، ومعارضة مشيئته ذنب والجميع ملزمون بطاعته وليس للفرد حق التصرف بنفسه . فكان إيڤان الثالث الزعيم المطلق الذي جابه التتار والغرب .

ضرب ايڤان عرض الحائط بنظام التوريث وحرم الورثة المنحدرين من زواجه الاول من حقوقهم وعين ابنه من صوفيا خلفاً له . وبعد باسيل هذا جرت تحولات في عهد حفيده ايڤان الرابع (٩٣٩ هـ - ٩٩٣ هـ) الذي اخذ لقب قيصر لأول مرة وألحق الكنيسة بالدولة وكافح التتار بشدة عظيمة واستولى على خانات القازان واستراخان كما ذكر وأشرف بذلك على كامل مجرى الفولغا . وأصبح التجار يفدون من القوقاز وتركستان وإيران إذ أن استراخان نقطة الاتصال بين أوروبا وآسيا .

وبعد بسط النفوذ الروسي على خانات سيبيريا امتد النفوذ حتى نهر نيساكي وجبال ألتاي وتحول إلى البلطيك ليفكّ العزلة عن روسيا وفتح ليفونيا من عام ٩٦٦ هـ - ٩٦٨ هـ . واستمرت الحرب حتى عام ٩٩١ هـ حيث أجبر على التخلي عن ليفونيا .

وأفاد الروس من التحالف مع خان القرم باتصالهم بأوروبا عن طريق البحر الأسود وأتى التجار والصناع من ألمانيا وايطاليا وهنغاريا عن طريق القرم . ومنذ عام ٩٦١ هـ وصل الإنكليز روسيا وآسيا عن طريق بحر الشمال والبحر الأبيض والمحيط المتجمد الشمالي وتبعهم الهولنديون والفرنسيون بعد موت إيڤان الرهيب .

كانت ملكية موسكوڤيا ملكية مطلقة مستبدة ، ملك القيصر جميع امتيازات السادة فيها . كما سيطر على كافة السلطات وفرض الضرائب حسب مشيئته وتصرف الجيش حسب مشيئته أيضاً . وكانت الدولة دولة بوليسية بكل معنى الكلمة . وأنشأ إيڤان الرابع الحرس الملكي الخاص بالسهر على حياة القيصر والقضاء على خصومه . ودخله بعض أعضاء الطبقة النبيلة القديمة وأعطي الإقطاعات في أواسط البلاد . كما منح الرقابة البوليسية على المناطق المحيطة بحجة حماية الأمن وتعقب الخونة . وتصرف هؤلاء بأقصى شدة ممكنة حتى أن العديد من الأسر أبيدت عن بكرة أبيها . ثم نهبت نوفغورود عام ٩٧٨ هـ وطفت الجثث فوق مياه الأنهار . وحول إيڤان الفلاحين إلى اقنان بتثبيتهم بالأرض وأجبر المدين منهم بالعمل حتى ايفاء دينه . وفرض على كل فلاح ان يزرع لحساب الدولة ٤ هكتارات في السنة ففر الفلاحون ولوحقوا بشدة .

العلاقات العثمانية الروسية :

ابتدأت بعد سقوط إمارة موسكو بأيدي الروس عام ١٤٨١ م أولى العلاقات بين الدولة العثمانية وروسيا . ووصل أول سفير روسي إلى استانبول عام ١٤٩٢ ومعه جملة من الهدايا للسلطان العثماني بايزيد الثاني . ثم وصل بعد أربع سنوات فقط سفير آخر . وعندها بدأت تتحقق المصالح الروسية . إذ

بمسعاه حصلت روسيا على بعض الإمتيازات لصالح تجارها .

ثم حصلت بعض التدخلات في عهد السلطان سليمان القانوني . وثار ولدا خان القرم محمد كراي على أبيهما وعمهما وقتلاهما عام ٩٢٩ هـ الموافق ١٥٢٢ م وتقلد أكبرهما (غازي كراي) منصب الإمارة ، كما تقلد أخاه كرسي الوزارة . ولم يقبل السلطان العثماني بهذا الانتهاك ، وقام بتعيين عمهما (سعادت كراي) خاناً للقرم بدلاً من أخيه (محمد كراي) الذي قتله الثائرون . ثم أمده بجيش من الانكشارية . وقبل غازي بإجراءات السلطان وأصبح وزيراً . وبعد ستة أشهر وبناءً على أوامر عمهما قُتِل الاخوين وذلك عام ١٥٣٠ م الموافق ٩٣٨ هـ فقام أخ آخر لهما إسمه (إسلام كراي) بالإستيلاء على الإمارة . وفر (سعادت) إلى استانبول وبقي ماكثاً فيها حتى توفي ودفن هناك بجامع أبي أيوب الانصاري . وزاد تدخل الدولة العثمانية نتيجة لهذه الأحداث في بلاد القرم وبعدها اعتبرت ولاية عثمانية .

منذ عهد السلطان محمد الفاتح كانت الدولة العثمانية تعقد العزم على فتح بلاد القرم كي تتمكن من الاستعانة بفرسانها المشهورين في القتال بالبغدان . وكان الفاتح قد أرسل قوات لفتح الإمارة الايطالية (الجنوه) في شبه جزيرة القرم . وبعد حصار دام ستة أشهر استسلمت ثم تحولت بعدها جميع شواطىء القرم إلى حيز النفوذ العثماني دون ممانعة من التتار .

ثم فتح ميناء آق كرمان . وصار أهالي القرم يقاتلون جنباً إلى جنب مع الجيوش العثمانية . وانضم خمسة عشر ألف فارس من التتار بقيادة (صاحب كراي) . أخي خان القرم حينما جهز سليمان القانوني حملته الضخمة لفتح فيينا .

وفي بلاد جيورجيا (اقليم الكرج) تقدم القائد العثماني (لاله مصطفى باشا)

من أجل محاربة ملك العجم . وفتحها العثمانيون ودخلوا عاصمتها تفليس بعد انتصارهم على جنود الشاه ، وسيطروا على حصن جلدر عام ١٥٧٨ م . ومن قبل الدولة العثمانية عين أمراء الكرج حكاماً على تلك الأراضي ، وقسمت جورجيا إلى أربعة اقسام منها شروان وتفليس اضافة الى قسمين آخرين يشكلان البلاد الأصلية .

وقام عثمان باشا حاكم إقليم شروان بالسير لفتح بلاد داغستان على شاطىء بحر الخزر وانتصر عام ١٥٨٣ م على الأعاجم . ثم سار براً إلى بلاد القرم مخترقاً سلاسل الجبال والسهوب الروسية الجنوبية قاصداً عزل خانها عقوبة له لامتناعه عن إمداد الجيوش العثمانية أثناء القتال مع العجم .

وحصلت تحرشات بين عثمان باشا وبين الروس أثناء طريقه ولكنه تمكن من الوصول إلى (كافا) عاصمة الخان (محمد كراي) فجمع الأخير جيشاً من الفرسان القوزاق لمحاربته وكانت النتيجة عدم تمكن العثمانيين من بلوغ النصر . ورجع عثمان باشا إلى الآستانة براً وعُيِّن صدراً أعظم بدل (سياوس باشا) المجري بعد أيام قليلة .

ثم قاد جيشاً مؤلفاً من ٢٦٠ ألف جندي في طريقه إلى أذربيجان واخترقها دون مقاومة تذكر . ثم قصد تبريز عاصمة العجم .

وبعد حروب مريرة استمرت وقتاً طويلاً تمكن من تحقيق نصر أبرم صلح على أثره بعد وفاته وتنازلت العجم للدولة العثمانية عن اقليم الكرج وشروان ولورستان وجزءاً من أدربيجان ومدينة تبريز .

وحاول الروس احتلال آزوف كما سيرد ذكره مفصلاً ولكن السلطان مصطفى الثاني[1] تمكن من دحرهم ورفع الحصار عنها عام ١١٠٦ هـ .

(١) السلطان مصطفى الثاني : وهو ابن محمد الرابع . اتصف بالشجاعة ورباطة الجأش . حارب

الروس ورفع الحصار عن آزوف. انتصر على بولونيا عدة مرات وقاد الجيوش بنفسه حكم من عام ١١٠٦ هـ حتى عام ١١١٥ هـ. وقعت في عهده معاهدة كارلوفتش عام ١١١٠ هـ بين الدولة العثمانية والنمسا وروسيا والبندقية وبولونيا.

الفصل السادس

العثمانيون والتوسع الإمبراطوري الروسي

الحالة العثمانية العامة والضعف العثماني:

انعكست الظروف العامة التي تعرضت لها الدولة العثمانية بعد دور العظمة والقوة، على قدراتها العسكرية والاقتصادية والاجتماعية بأثر سلبي. فكان من الطبيعي ابتداء الإنهيار أمام الدولة الروسية الناشئة، بعد التوقف والجمود إزاء المطامع القيصرية الإمبراطورية. فالمعروف أن قمة المجد عند العثمانيين كانت قد تجلت إبان حكم السلطان سليمان القانوني، ثم بدأ الضعف يدب في قوة السلاطين أنفسهم وانزووا إلى الاستمتاع بالملذات وابتعدوا عن مشكلات الرعية. كما أن قدرة الحكومة كان في انحطاط تدريجي. وفي منتصف القرن السادس عشر الميلادي انتصر الانكشارية على الوجهاء الأتراك الذين انسحبوا الى مراكزهم في الأناضول وشرقي أوروبا، بينما سيطر الانكشاريون على السلطان في العاصمة. ولكن تحدي الأعيان كان قوياً فتمزق الجيش القوي المنظم إلى فئات مختلفة دعمتها عناصر ذات أهداف متباينة في القصر. وحاول بعض السلاطين ايقاف التدهور ولكن دون جدوى.

وبزوال مركز الوزير الأعظم القوي (محمد صقللي باشا)[1] الذي ذهب

(١) محمد صقللي باشا: ولد في البوسنة عام ٩١١ هـ في بلدة سوكول. تولى الصدارة في الدولة

ضحيــة دسائس النساء في القصر تزايـد الشلـل العـام في الـدولـة وازدادت العداءات ولبعد بعض السلاطين عن الأطراف المتصارعة .

الصعوبات الإقتصادية

تحت هذه الظروف صار متعذراً مجابهة المشكلات الصعبة المتزايدة التي برزت في وجه الدولة إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين وبدأت الصعوبات الاقتصادية عندما تمكن الإنكليز والهولنديون من سد طرق القوافل التجارية في الشرق الأوسط ، وتوقف ازدهار البلاد العربية خاصة والعثمانية عامة . ثم تدهور الاقتصاد العثماني نتيجة التضخم المالي الذي ظهر بتدفق الثروات المعدنية إلى أوروبا من القارة الأميركية ، ففقدت الكنوز معظم قيمتها لاختلال الميزان التجاري بين الشرق والغرب ونهب الانكشارية لها ، فزادت الضرائب وخفضت قيمة النقد ، وانهارت التجارة والصناعة . ومن سوء الطالع أن ترافقت تلك الظروف بتزايد عام للسكان حدث في معظم أوروبا أثناء تلك المدة .

نتيجـة لـذلـك تزايـدت المشكلات الاجتماعيـة واستعصت حلولها وترك الفلاحون الأرض هرباً من دفع الضرائب المرتفعة وتجمعوا في المدن فنقصت

العثمانية في عام ٩٧٣ هـ إبان عهد السلطانين سليمان القانوني وسليم الثاني ، وربما كان الحاكم الحقيقي حتى وفاة السلطان سليم الثاني عام ٩٨٢ هـ . حدثت في عهده الحرب بين الدولة العثمانية والنمسا حيث هزم الأسطول العثماني مع معركة ليبنيته الشهيرة ، ولكن قبرص اصبحت في حوزة الدولة العثمانية التي انتزعتها من البنادقة . رقي لرتبة القائد الأعلى للأسطول عام ٩٥٣ هـ . ثم أصبح الحاكم العام للروملي . قاد قوات سليم الثاني أثناء المصادمات التي وقعت بين السلطان وأخيه بايزيد بين ٩٦٧ هـ - ٩٦٩ هـ ثم تزوج ابنته .

وحينما كان في منصب الصدارة فإنه فضل السلم دائماً . كما عارض دخول الدولة الحرب ضد البندقية وإيران . وبعد موت سليم الثاني فقد معظم سلطاته وعد في صف المعادين . جرى اغتياله أخيراً في خريف عام ٩٩٣ هـ في استانبول .

الموارد الزراعية وازدادت المشكلات تعقيداً . وانضم بعضهم إلى عصابات التمرد المعروفة باللاونديين والجلاليين والتي سيطرت على أجزاء واسعة وأخذت الضرائب لأنفسها وأوقفت التموين المدني والعسكري ، وضعفت الحكومة المركزية . وتحت تلك الظروف انقسمت الجيوش العثمانية أنفسها وسقطت بعض الفصائل بأيدي عصابات التمرد التي استخدمتها كسلاح للمناوأة والمساومة . فبدأ السلطان بتشكيل فصائل جديدة من بين اتباعه ومحميه كخانات القرم مثلاً . ومع ذلك فإن الجيش العثماني بقي قوياً لقمع ثورات الولايات البعيدة عن نطاق السيطرة قبل أن يضعف بمرور الزمن .

العلاقات الخارجية :

بقيت أوروبا تخاف العثمانيين كما كانت من قبلُ ، وعلى الرغم من أن قوتهم كانت في تناقص فإنهم استمروا في سيطرتهم على قوى التمرد التي نشبت في بعض الولايات ونصبوا الحكام الأقوياء ، في شرقي البلاد وغربها . وبينما عانت الدولة والسلطان من أول انهزام فانهم احتفظوا بقوة احتياطية كفيلة بإحباط أي انقلاب قد يحدث ، ويمنع ضياع أية أجزاء شرعية من أراضي الدولة . وعندما دمرت البحرية العثمانية في معركة ليبانته الشهيرة عام ٩٨٥ هـ على أيدي أسطول العصبة المقدسة فإن امكانية تشكلها من جديد كان غير صعب فانتصر في شرقي المتوسط وانتزع تونس من الإسبان وغيرها .

الحملات العسكرية :

على الرغم من الاضطرابات التي أصابت الجسم السياسي العثماني فإن الباب العالي تعهد بشن حملات عسكرية جديدة . وحينما سيطرت إمارة موسكو الناشئة على الدويلات المغولية الأخيرة في آسيا الوسطى وامتدت حتى بحر قزوين كما ورد سابقاً ، عندها تشكل وضع تهديدي جديد للدولة العثمانية شمالي

البحر الأسود والقوقاز.

ولتلافي ما حدث استفاد مراد الثاني من الوضع في إيران بعد موت الشاه طهماسب واستولى على القوقاز وأذربيجان وأضاف ولايات غنية انصبت وارداتها الى الخزينة اثناء الاضطرابات المالية.

وفي الحرب بين الدولتين التي بدأت عام ١٥٩٣م تمكن النمساويون من السيطرة على معظم وسط المجر ورومانيا. وحينما حكم الشاه عباس في إيران فإنه طرد العثمانيين من أذربيجان والقوقاز وهدد البلاد العثمانية حتى تمكن مراد الرابع من استرداد العراق وبقيت إيران التهديد الكبير في وجه الدولة.

الاصلاحات:

أمام الإنهيار الذي بدأ، بذلت جهود في سبيل الإصلاح ولكنها كانت محدودة الطبيعة، ولم تكن أكثر من جهود لحفظ النظام الحكومي المتوارث والمجتمع التقليدي الذي كان يعمل في الماضي بصورة ناجحة. وبذلت جهود لإحياء نظام التجارة. ونظمت الضرائب كأسس للإدارة والجيش. وأخمدت الثورات وأجبر الفلاحون على العودة إلى الأرض، فازدادت مساحة الأراضي المفلوحة واستبدلت العملة وشجعت الزراعة والصناعة. وفي محاولة لتذليل الصعوبات الراهنة فإن ذلك كان كافياً، ولكنها كانت ناجحة في حينها فقط، وسمحت بالعمل ضد نتائج الفساد وليس ضد أسبابه. وحالما انخفض مستوى الاجراءات عن ما سبق - رجعت المجموعات القديمة للعمل واستأنفت أساليبها السابقة.

لم يفهم دعاة الإصلاح حقيقة أوروبا التي يجابهها العثمانيون وانها أكثر قوة مما كانت في عهد السلاطين العظماء في الماضي حيث كانوا يهزموها. ولم يستطيعوا علاج الضعف المتزايد إزاء الدول القوية البارزة في أوروبا.

بطرس الأكبر والدولة العثمانية:

خضع الشعب الروسي في القرن السابع عشر الميلادي إلى ظروف إقطاعية. وملك القيصر زمام أمور البلاد وعمت الهمجية والظلام. وعن طريق الرشوة وصل الحكام إلى السلطة. وظهر التباين بينهم وبين الغرب. فالبلاد متخلفة والقيصر يجلد أتباعه والأسقف يجلد القساوسة... والعادات الاجتماعية تختلف عن الغرب وأشرف البوليس السري على نشاطات الجماعات الثورية بصورة مستمرة وأودع الآلاف معسكرات العمل الإجبارية. وساعد بعض السجناء في بناء سكة حديد عبر سيبريا وهي التي جسدت الأطماع الروسية الاستعمارية.

اعتبر الروس في الغرب غير أوروبيين ووضعت مشاريع هناك لطردهم والأتراك معاً من أوروبا. أما مغامرات بطرس الأكبر ونشاطاته فكانت بفضل التجارب التي اكتسبها في شبابه أثناء اختلاطه بأصدقائه من السويسريين والهولنديين والاسكتلنديين في الحي الأجنبي بموسكو. وحينما كان ابن ثلاثة وعشرين عاماً، قام بدور الإشراف على المدفعية أثناء هجوم جيشه على آزوف عام ١٦٩٥ حيث هزم. واستأجر مئات الرجال من الأوروبيين لبناء قاعدته البحرية. وبينما كان العمل جارياً قام بجولته الأوروبية لدراسة تعقيدات التكنولوجيا الغربية ظاهرياً .وللدعوة لشن حملة صليبية جديدة ضد المسلمين حقيقة. ودرس ولمدة أربعة أشهر بناء السفن وعمل كنجار في فناء شركة الهند الشرقية الهولندية في (ساردام). ثم ذهب إلى بريطانيا وتابع دراسة بناء السفن. واستطاع التأثير على شخص انكليزي واستأجر داره في (ديبتفورد) حيث أجريت تدريبات عملية. واستثار بطرس حماس المطران بورنت والذي طاف به في جولة تفقدية حول لندن وحثه على محاربة الأتراك المسلمين، فكان يدور في مخيلة ذلك المطران مستقبل ذلك الرجل ومدى قوته وسيطرته المطلقة على أرض شاسعة من العالم. وزار المدارس والمصانع والمتاحف هناك وقام

بمفاوضات مع الانكليز والهولنديين من أجل تحالف ضد الأتراك. ولم ترغب السلطات هناك في التورط لانشغالهم بمشكلات أتت عليهم فيما بعد بأزمات أثناء حرب الوراثة الاسبانية.

ثم ذهب للنمسا. وبينما كان يفاوض في ڤيينا لانهاء التحالف المضاد للمسلمين تلقى أنباء ثورة في موسكو فرجع إليها وأخمد الحركة وأعدم المئات ونفى الباقين. ورأى بطرس أن روسيا لا يمكنها الوقوف أمام الدولة العثمانية دون حلفاء. وان النمسا منشغلة بالتحضير لحرب الوراثة الاسبانية وتعمل للصلح مع الأتراك فلذلك رأى الاندفاع من آزوف حتى البحر الأسود.

إن ذلك الحاكم الروسي المغامر كان تواقاً إلى التوسع التجاري والقوة البحرية فركز اهتمامه على آزوف (الحصن العثماني العظيم) عند مصب نهر الدون حيث يمكن الوصول مائياً من موسكو. وبعد اندحاره هناك واجهته الصعوبات الهائلة. وتكشفت مشاكل البحر الأسود فبحث عن حلفاء أقوياء من الغرب. وهو الذي فعله بجولته ولكنه عاد فاشلاً بعد أن امتهن عدة مهن وعمل نحاتاً وجراحاً وطبيب أسنان. ووضع في قائمة أهدافه بحر البلطيق والبحر الأسود. ووجه الضربة الأولى إلى السويد، وحتى موته عام ١١٣٧ هـ كان على شبه حرب متصلة مع الأتراك والفرس والسويد لقد كان بطرس يدين لنديم صباه (ليغور) السويسري حيث كان يجمعهما العبث واللهو غير المهذب في الحي الغربي بموسكو وهو الذي اقترح عليه رحلته إلى الغرب حيث كان الغرب على علم بفن أسرار الحياة والقوة.

وكانت منذ ذلك الوقت تقوم الفلسفة الروسية على اعتبار الحضارة الروسية مغايرة لحضارة الغرب. والمهم اقتباس الحضارة دون الفلسفة وهذا ما نلاحظه في القرن التاسع عشر حيث الميل نحو السلافية ثم الشيوعية في القرن العشرين.

لم يكن الانجذاب الروسي نحو آسيا قوياً في البداية. ولم يظهر إلا في القرن التاسع عشر عندما أصبحت روسيا وجهاً لوجه أمام بريطانيا واليابان. وأراد الروس الموقع الحيوي والمياه الدافئة والمنفذ إلى بحر إيجه، ثم السيطرة على المدينة الاغريقية القديمة لاعتقادهم أنهم أصحاب حق فيها باعتبارهم ورثة الامبراطورية البيزنطية. وبناء على ذلك نظروا إلى العثمانيين أنهم الدولة التي تحول بين روسيا والشمس. فأصدقاء الأتراك أعداءً لهم وأعداء الأتراك أصدقاء لهم. وذلك ما أدركته كاترينا[1] على الرغم من كونها ألمانية الأصل، فرنسية التربية. ففي عهدها ضمت شبه جزيرة القرم إلى روسيا عام ١١٨٦ هـ.

ومنذ عهد بطرس الأكبر بدأ التحضير السياسي والعسكري للتوسع الإستعماري الذي أثمر في مدة حكم كاترينا. وبدأت عمليات الاستيطان الواسعة باتجاه الجنوب حيث المسلمين. كما بدأ في الوقت نفسه التوسع نحو الشرق باتجاه بولندا. ولكن شاطىء البحر الأسود الشمالي حاز الأهمية القصوى إضافة إلى التوسع في السهوب وراء الأورال وعلى طول بحر قزوين، الأمر الذي منح المستوطنين الجدد في بلاد المسلمين هناك الحماية الحكومية الروسية اللازمة، وأقام الطرق التجارية عبر البحر الأسود والدانوب من جهة أخرى.

إن تلك التوسعات العدوانية. ورطت روسيا أكثر فأكثر في الصراع المسلح

---

(١) كاترينا الثانية: ولدت في ٢ مايس من عام ١١٤١ هـ في بولندا. وأصبحت امبراطورية روسيا على الرغم من كونها ألمانية المولد. قادت روسيا إلى دخول حلبة الصراع السياسي والثقافي الأوروبي. انفصلت عن زوجها الشهواني الدوق الألماني (كارل أولريخ) وفي عام ١١٧٥ هـ أعلنت عن نفسها امبراطورة بمساعدة عشيقها الجديد الجنرال (غريكوري أورلوف). ثم تمكنت من اغتيال زوجها.
ألحقت في عهدها بلاد القرم التابعة للدولة العثمانية بالامبراطورية الروسية بدعم وتأييد من رئيس وزرائها وصديقها الحميم «غريكوري بوتمكين» عام ١١٨٦ هـ.

بين العثمانيين والمتمردين في بلاد البلقان . فسمحت معاهدة كوجوك كينارجي مثلاً للروس بالتدخل لحماية الشعوب النصرانية داخل الدولة العثمانية .
وشجع (بوتمكين) - الرجل الذي اعتمدت عليه كاترينا في توسعها الاستعماري - الغزو الاستيطاني الخارجي ، وإدخال الخبرات والمهارات الضخمة والهجرة الفلاحية إلى هناك في الجنوب ، فنمت الموانىء والمدن هناك أمثال أوديسا وخرزون وغيرها . . وتحول المجتمع المحلي ذو التقاليد الإسلامية العريقة والعادات التركية المتوارثة إلى نموذج روسي . وتحول ملاك الأراضي الأثرياء إلى نبلاء ومستعمرين وبسطوا سيطرتهم التامة على الفلاحين . ووزعت الأراضي الشاسعة على الموظفين البارزين وتفشت الرشوة .
وهكذا انتشرت العبودية إلى المناطق البعيدة وازدادت المآسي بين الفلاحين وفي أوساط المسلمين . وفقد القوزاق استقلالهم الذاتي في الدينيبر والدون والأورال والقوبان والفولغا وانتزعت منهم امتيازاتهم السابقة . وأصبح الروس الأغنياء من النبلاء ولهم الحق في اقتناء العبيد والأقنان وتوطينهم في أراضيهم الخاصة .

وجد الروس أن دمج الأراضي الجديدة لا يمكن إتمامه إلا بامتصاص الأعداد الضخمة من أبناء البلاد المستعمرة الجديدة وخاصة المسلمين منهم . وحاولت الحكومة نقل البدو إلى طريقة أعلى في الزراعة كي تستخدمهم لصالحها . ولم تكن كاترينا تريد حقيقة السماح بحرية المعتقد واللغة والثقافة هناك على الرغم من تظاهرها . ولم تستطع تغيير طراز حياة البدو الأتراك هناك أو تبديل دينهم وهويتهم . وعن طريق الضغط والإرهاب حدث بعض التغير في طريقة الحياة ، الأمر الذي يبغيه أولئك المستعمرون في سبيل توسيع زراعتهم واستيطانهم في السهوب المفتوحة . ولكن النتائج العكسية كانت أكبر ونما الشعور المعادي للروس صعداً وازداد التمسك بالهوية الدينية واللغوية . واصطدمت تلك الآراء مع ممارسات الموظفين . ووجدت الحكومة الروسية أنه

من الصعب عليها التعامل مع أبناء تلك الشعوب ولكنها فرضت منتهى أنواع القسوة والإرهاب مع القوقاز والقرم حيث المسلمون يقطنون .

الصراع العثماني الروسي في القرم :

كان بطرس الأكبر قد حاصر ميناء آزاق في محاولته النفاذ إلى شواطىء البحر الأسود . وكانت قبائل القوزاق تحول بين روسيا وهذا البحر . ولكن الوزير العثماني كوبريلي مصطفى باشا استطاع إعادة ما فقدته الدولة العثمانية من كرامتها ومجدها . وكان رفع الحصار في خريف عام ١٦٩٥ م . وبعد انتصار السلطان العثماني أحمد الأول في معركة ضد المجر حلت هزيمة كبيرة بالعثمانيين عند نهر تيس . استغل القيصر الروسي بطرس الأكبر هذه الأحداث وهاجم آزاق ثم تمكن من دخولها عام ١٦٩٦ م وسقطت منذ ذلك الحين بأيدي الروس .

وقّعت الدولة العثمانية وروسيا والنمسا في ٢٤ رجب من عام ١١١٠ هـ الموافق ٢٦ كانون ثاني ١٦٩٩ م معاهدة كارلوفتش . وبموجبها تخلى العثمانيون عن كامل بلاد المجر واقليم ترانسلفانيا للنمسا وتنازلوا للروس عن مدينة آزاق وكان ذلك ذا أهمية عظيمة نسبة للماضي إذ ازدادت اطماعها الصليبية . كما فقدت الدولة العثمانية جزءاً من أراضيها لأوروبا التي تمَّ تقسيم بلادها وهو ما يسمى باسم « المسألة الشرقية » حيث الخوف من توسع الإسلام وانتشاره . ونتيجة لتغير الصدور ولتدخلات الانكشارية لم يلتفت السلطان أحمد الثالث لإجراءات بطرس الأكبر في الداخل والخارج . ولم يدرك الوزراء العثمانيون مغزى السياسة الخارجية القائمة على أساس إضعاف الأقوياء (الدولة العثمانية - بولندا - السويد) . وفعلاً بدأ تنفيذ تلك السياسة ، وانتصر بطرس على السويد ولجأ ملكها شارل الثاني عشر إلى البلاد العثمانية . ولم يحظ بالتأييد المطلوب

هناك على الرغم من المساعي المحمومة التي بذلها ، وعارض الوزير (نعمان باشا كوبريللي) الحرب في حينه .

تبع ذلك اعلان للحرب قام به الوزير العثماني (بلطه جي محمد باشا) ضد الروس وتقدم لقيادة الجيوش بنفسه واستطاعت القوات العثمانية بعد اشتباكات بسيطة ومتعددة حصار القيصر الروسي وخليلته كاترينا . وكاد القيصر يؤخذ أسيراً وعشيقته التي تمكنت من اغراء الوزير العثماني بجواهرها ومصوغاتها فرفع الحصار عنهما ، ووقع القيصر الروسي معاهدة فلكزن في ٩ جمادي الآخرة عام ١١٢٣ هـ الموافق ٢٥ تموز عام ١٧١١ م حيث أخليت آزاق وتعهد الروس بعدم التدخل في شؤون القوزاق مطلقاً .

وكان من الممكن أخذ مكتسبات من الروس أكبر بكثير ولم يحدث ذلك واغتاظ شارل السويدي وسعى لدى السلطان وبمساعدة خان القرم (دولت كراي) . واستطاع إبعاد الوزير بلطه جي بعد عزله . ووقع الوزير العثماني الجديد (يوسف باشا) الميال للسلم معاهدة جديدة قضت بعدم الاعتداء ومنع الحرب لمدة ٢٥ عاماً . ولكن الحرب لم تلبث أن نشبت بين الفريقين وبعد اشهر قليلة فقط لإخلال بطرس بأحد شروط المعاهدة السابقة . فتدخل الإنكليز والفرنسيون لمنع القتال خوفاً على مصالحهما التجارية ، ووقعت معاهدة أدرنة في ٢٤ جمادي الأولى ١١٢٥ هـ الموافق ١٨ تموز ١٧١٣ م وفيها تنازلت روسيا عن أراضيها على البحر الأسود مقابل إلغاء ما تدفعه من جزية لأمراء القرم المسلمين مقابل عدم اعتدائهم على قوافلها التجارية .

طلبت روسيا عقد معاهدة جديدة عرفت باسم معاهدة بساروفتش لتعديل المعاهدة السابقة بحيث يتمكن تجارها من المرور في البلاد العثمانية وبيع بضائعهم فيها . كما طلبت السماح لحجاجها التوجه إلى بيت المقدس وغيره من الأديرة والأماكن المقدسة دون دفع خراج أو رسوم ، فقبلت الدولة العثمانية ، وتعهد

الطرفان بمنع ازدياد نفوذ الملك البولوني المنتخب على نفوذ الأشراف هناك ، وبعدم تمكينه من جعل منصبه وراثياً .

لم يقصد بطرس من هذه المناورات إلا تأجيج الشقاق بين ملوك بولونيا والدولة العثمانية تنفيذاً لنواياه الخبيثة إذ كان جل اهتمامه ايجاد انشقاق بين مجاوريه الثلاث الدولة العثمانية ـ السويد ـ بولونيا ، واضعافهم واحداً تلو الآخر فتزيد قوته ويضعفون .

وذهب بطرس في سباق مع الدولة العثمانية لاحتلال أرمينيا وبلاد الكرج (جورجيا) واجتاز جبال القوقاز المحادّة له جنوباً واحتل إقليم داغستان وكافة سواحل بحر الخزر الغربية ، وكادت تنفجر نار حرب جديدة بين العثمانيين والروس .

وحينما شعر بطرس بفقدانه القدرة على ذلك ، طلب التوسط من فرنسا فاتفق على امتلاك كل طرف ما احتله من بلاد .

لم يقبل الإيرانيون بالإتفاق الحاصل لضياع جزء من بلادهم إبان فوضاهم الداخلية والنزاع بين حكامهم .

معاهدة بلغراد :

قضت المعاهدة المبرمة بين العثمانيين والروس والنمسا عام ١١٣٤ هـ إثر حرب نشبت بين الدولة العثمانية والروسيا ، في أحد بنودها السرية بعدم جواز تعيين ملك وطني على بولونيا كي لا يتحد مع الأهلين وبالتالي يعم الهدوء الداخلي وهو الأمر الذي لا يرغبه الروس ، فقصدهم إثارة القلاقل هناك وبالتالي احتلال البلاد البولونية أو تقسيمها .

وعندما توفي الملك البولوني (أوغست الثاني) انتخب الأهلون هناك عام ١١٤٥ هـ بدلاً عنه ـ وطبقاً للمساعي الفرنسية الهادفة الى مصالحها التجارية ـ المدعو (ستانسلاس لكزينسكي) . ولكن أعلن الروس والنمساويون الحرب على بولونيا نتيجة لذلك ونادوا بأوغست الثالث ابن أوغست الثاني ملكاً عليها ولو

لم يكن عن طريق الإقتراع. وقامت فرنسا بإعلان الحرب على النمسا دفاعاً عن حق بولونيا واستمالت الباب العالي للدفاع عن استقلال بولونيا فهي الحصن الحصين بينها وبين الروس. وفي البداية لم يجد ذلك. ثم تغلب الروس على استانسلاس واحتلوا بولونيا والدولة العثمانية لاهية عن النتائج.

خشيت النمسا من حصول اتفاق بين العثمانيين وفرنسا وأسرعت لإرضاء الفرنسيين وأبرمت معاهدة فيينا عام ١١٤٧ هـ واستعدت لقتال العثمانيين وأوعزت للروس ببدء القتال.

وأثناء عبور بعض القوزاق من بلاد القرم الأراضي الروسية في طريقهم إلى قتال العجم مع العثمانيين في بلاد الكرج، استغل الروس ذلك وهاجموا بلاد القرم بكامل قوتهم واحتلوا ميناء آزاق وما حوله من ثغور بحرية. وحينما علمت الدولة العثمانية بما حدث أبرمت صلحاً مع نادرشاه[1] وتفرغت لصد الهجمات الروسية.

---

(١) نادر شاه: وهو ما يعرف أيضاً باسم طهمازب قولي خان. ولد عام ١٠٩٩ هـ في قوباك في إيران اليوم. وهو القائد والحاكم الإيراني المعروف بشدته. أوجد امبراطورية ايرانية امتدت من نهر الإندوس حتى جبال القوقاز. كانت بدايته غير واضحة تماماً وكان خامل الذكر حينما بدأ نشاطه في إحدى القبائل التركية الموالية لشاهات إيران الصفويين. وفي عام ١١٣٨ هـ قاد حوالي ٥٠٠٠ رجل من أتباعه في محاولة لتأييد الشاه طهمازب الثاني الذي كان جاداً في تسلم العرش الذي فقده والده قبل حوالي ٤ سنوات. ثم حقق نادر النجاح تلو النجاح في المعارك. وسرعان ما اكتسب القوة والسلطة. الأمر الذي عارضه طهمازب الثاني فخلعه نادر شاه عام ١١٤٤ هـ ووضع طفله الصغير على العرش بدلاً عنه. ولكن الشاه الصغير مات بعد أربع سنوات فقط الأمر الذي أوصل نادر شاه الى قمة السلطة.

خاض معارك عديدة واستولى على بعض المدن في الامبراطورية المغولية لشمالي الهند وكسب المعارك ودخل دلهي. ثم رجع الى إيران محملاً بالغنائم والجوهرات. حقق نجاحاً في معاركه مع العثمانيين والروس. كان قاسياً وعنيداً وظالماً. بذل محاولات عدة لتحويل رعاياه الى مذهب أهل السنة الذي كان يؤيده. اغتيل أخيراً من قبل قواته عام ١١٥٩ هـ وقد دُعي بنابليون إيران.

تمكن القائد العثماني المحنك الحاج محمد باشا والذي تولى منصب الصدارة العظمى آنذاك من ايقاف التقدم الروسي في اقليم البغدان الذي احتله الروس ودخلوا عاصمته ياش.

وحينما هاجمت النمسا بلاد البوسنة والصرب والفلاخ انتصرت عليها الجيوش العثمانية هناك. وانتصر المسلمون في صربيا وتمكنوا من دحر النمساويين وكبدوهم الخسائر الجسيمة في الأرواح فتقهقروا إلى ما وراء الدانوب عام ١٧٣٧ م. وطلبت النمسا الصلح فعقد مؤتمر بين الدولة العثمانية والنمسا وروسيا في ١٤ جمادي الآخرة عام ١١٥٢ م الموافق ١٨ أيلول عام ١٧٣٩ م وتنازلت بموجبه النمسا للدولة العثمانية عن بلغراد وغيرها وتعهدت القيصرة (حنة) الروسية بهدم قلاع ميناء آزاق وعدم تجديده في المستقبل وعدم إنشاء السفن البحرية والتجارية في البحر الأسود أو بحر آزاق، وبأن ترد للدولة كل ما احتلته من أقاليم وبلدان. وعرفت هذه المعاهدة باسم معاهدة بلغراد والتي أعادت الإعتبار العثماني الذي تأثر في معاهدة كارلوفتش.

معاهدة بخارست:

حاولت الامبراطورة الروسية (كاترينا الثانية) تعيين خليلها (ستانسلاس بونياتوسكي) ملكاً على بولونيا بعد وفاة أوغست الثالث، الأمر الذي يعد مخالفاً لما تعهد الروس به من قبل. وعندما شعر العثمانيون بالخطر - ولكن بعد فوات الأوان - حاولوا تدارك ما فاتهم فأوعزوا إلى خان القرم (كريم كراي) ببدء القتال. وباحتيال على بعض القوزاق التابعين للروس تعدى هؤلاء على الحدود العثمانية وقتلوا بعض الأهلين وأحرقوا مدينة يالتا الصغيرة في البغدان. عندها اعلن الباب العالي الحرب على الروس دون انتظار على الرغم من رشوات السفير الروسي في استانبول. وتقدم (كريم كراي) باتجاه اقليم سربيا الجديدة حيث خرقت المعاهدات السابقة من قبل الروس هناك.

وسرعان ما دمر خان القرم الكثير من المستعمرات الروسية وأخذ العديد من الأسرى .

وفي محاولة غير موفقة تصدى الصدر الأعظم (محمد أمين باشا) للحصار الروسي حول مدينة شوكزيم ولم ينفذ الأوامر السلطانية بهذا الخصوص . فما كان من السلطان إلا أن أمر بقتله وولي السرعسكر (مولدواني علي باشا) ولكنه تقهقر أثناء عبوره نهر دينستير في تعقبه القوات الروسية . وازدادت المياه وبشكل غريب وعمَّ الطوفان وغرقت السفن وقتل حوالي ستة آلاف جندي عثماني ، وحصدت المدافع الروسية من تبقى على الشاطىء الآخر فأخلوا مدينة شوكزيم التي احتلها الروس كما احتلوا الأفلاق والبغدان . وكانت الحرب من أعظم النكبات التي حلت بالدولة العثمانية . وكانت الثلاثين عاماً التي مضت على الجيش العثماني شؤماً حل على الفصائل العسكرية القديمة .

حاول الروس إثارة القلاقل في بلاد المورة ، وحرَّضوا السكان المحليين على الثورة ضد العثمانيين . وطافت آنئذ بعض السفن الروسية حول أوروبا الغربية وتقدر بثلاثة أساطيل انطلقت من كرَوَنشتات وعبرت المانش وخليج بسكاي حتى البحر المتوسط الشرقي واحتلت (كورون) باليونان في محاولة لإشهار العصيان هناك . وعندما لم يتمكنوا من تحقيق غرضهم خرجت سفنهم من الميناء باتجاه جزيرة (ساقز) والتقى الفريقان في منطقة المضيق وانتصر العثمانيون . ثم رجعوا إلى ميناء (جشمه) على شاطىء آسيا الصغرى .

التبس الأمر على العثمانيين حينما تبعتهم حرَّاقتان روسيتان اقتربتا من السفن العثمانية دون مقاومة وعندما تمكنتا منهم تحولت السفن إلى نيران ملتهبة من جراء القذائف الروسية المحرقة . وانفتح الطريق أمام الروس نحو القسطنطينية ، ولكنهم فضلوا احتلال جزيرة (لمنوس) قبل دخولهم مياه الدردنيل ليجعلوه قاعدة لهم . وفي ذلك الوقت تمكن البارون المجري (دي توت) .

والعامل في خدمة الدولة العثمانية من تحصين الدردنيل وتسليحه وحوَّل بعض السفن التجارية إلى حربية .

وفي عام ١١٨٤ هـ ونتيجة لذلك هاجم القبطان حسن بك السفن الروسية المحاصرة لجزيرة لمنوس وتمكن من فك الحصار عنها .

وأخفق الروس في محاولتهم احتلال طرابزون . وحالف النصر القوات العثمانية براً وبحراً ، إلا في بلاد القرم التي احتلها البرنس الروسي (دلجوروكي) وأعلن انفصالها عن الدولة العثمانية . واستقلالها تحت الحماية الروسية . ونصب (جاهين كراي) خاناً عليها نيابة عن الامبراطورة كاترينا الثانية .

بناء على الوساطة الدولية تهادن الفريقان ووقَّعت معاهدة في احدى المدن البلغارية . وبعد اجتماع موكساني احدى مدن البغدان الصغيرة ، طلب مندوبو كاترينا شروطاً مجحفة هي الاعتراف باستقلال تتار القرم وحرية السفن الروسية التجارية في الملاحة في البحر الأسود وجميع بحار الدولة العثمانية . ولكن العثمانيين لم يقبلوا هذه الشروط فانفض المؤتمر واجتمع المؤتمرون مرة أخرى في بخارست ولكن طلبات كاترينا التي أرسلت هذه المرة في ذي القعدة عام ١١٨٦ هـ الموافق ١٥ شباط ١٧٧٣ م . كانت أكثر إجحافاً ومنها :

١ - التنازل للروس عن بعض القلاع والحصون .
٢ - حرية الملاحة الروسية في البحرين الأسود وإيجه .
٣ - تسليم حصون القرم المتبقية للتتار .
٤ - التنازل عن مدينة (قلبورن) للروس وهدم بعض الحصون .
٥ - تولي الروس حق حماية النصارى الأرثوذكس في البلاد العثمانية .

وشروط أخرى .

لم يقبل العثمانيون بهذه الشروط وأصدروا الأوامر لجيوشهم باستئناف

القتال وخاصة في بلاد الدانوب. وأصيب الروس بهزيمة ماحقة أمام مدينة (روستجوق) و(سلستريا) وقتل منهم حوالي الثمانية آلاف جندي. ومنح القائد عثمان باشا لقب غازي تكريماً لانتصاراته الباهرة. وتقهقر الروس، وكعادتهم نكلوا أثناء طريقهم بسكان مدينة (بازرجق) وقتلوا نساءها وأطفالها وشيوخها. ثم انسحبوا منها تاركين أمتعتهم. وقد قال المؤرخ (همر): إن العثمانيين وجدوا اللحم في القدور على النار، مما يدل على مدى ما حل بالروس من الرعب خوفاً من العثمانيين.

معاهدة كينارجه:

وفرضت روسيا النهاية بالقوة وكانت تستعد استعداداً هائلاً للانتقام لتمرغها في الوحل. وحينما حل تموز عام ١١٨٧ هـ زحف الفلدمارشال رومانزوف بعد انضمام قوات أخرى إليه يقودها (سواروف) و(كرامنسكي). واجتازت القوات الروسية نهر الدانوب واتجهت إلى مدينة (ڤارنه) والتقت مع القوات العثمانية التي يقودها الرئيس أفندي عبد الرزاق في مدينة (قوزليجق) في ١٤ من الشهر نفسه وهُزم الجيش العثماني وتوجه الروس إلى معسكر الصدر الأعظم (محسن زاده) في مدينة شوللا وعندها طلب العثمانيون وقف القتال وأرسلوا مندوبين من أجل مباحثات الصلح وقبول شروط معاهدة بخارست السابقة الذكر واجتمع المؤتمرون في مدينة(كينارجه) وبعد مفاوضات تم الاتفاق على المعاهدة الجديدة في ٢١ تموز عام ١١٨٧ هـ وأهم ما جاء فيها:

١ - ازالة العداوة بين الدولة العثمانية وروسيا وحلول الصلح وصيانة الاتفاقات من التغيير. والعفو عن الجرائم التي اقترفها رعايا الطرفين المتهمين بها ورد اعتبارهم وأموالهم اليهم.

٢ - عدم حماية الرعايا الملتجئين أو الفارين أو الخونة ضمن شروط.

٣ - اعتراف الطرفين بحرية بلاد القرم بلا استثناء واستقلالها. ولهم الحرية التامة بانتخاب خان لهم دون تدخل ولا يؤدون ضريبة. وباعتبارهم مسلمين فإن أمورهم المذهبية تنظم من قبل السلطان بمقتضى الشريعة الاسلامية.

٤ - سحب القوات العثمانية من القرم وتسليم القلاع وعدم إرسال جنود أو محافظ عسكري.

٥ - حرية كل دولة في بناء القلاع والأبنية والتحصينات وإصلاح ما يلزم منها.

٦ - تعيين سفير روسي في الآستانة من الدرجة الثانية، والاعتذار له رسمياً عن ما يحدث من خلل.

٧ - تعهد الدولة العثمانية بصيانة الحقوق والكنائس النصرانية في أراضيها ومنح الرخصة للروس بالتدخل.

٨ - حرية زيارة رهبان روسيا للقدس والأماكن الأخرى التي تستحق الزيارة مرخص بها دون دفع جزية أو خراج ويعطون التسهيلات والحماية أثناء ذلك.

٩ - حرية الملاحة للروس في كافة الموانىء العثمانية في البحرين الأبيض المتوسط والأسود مضمونة وكذلك حرية اتجار الرعايا الروس في البلاد العثمانية براً وبحراً مكفولة. وللتجار الروس حرية الاستيراد منها والتصدير اليها والإقامة فيها. ويحق لروسيا تعيين القناصل في كافة المواقع التي تراها مناسبة.

١٠ - يجب على الدولة العثمانية التعهد ببذل جهدها في كفالة حكومات الولايات الأفريقية اذا ما رغب الروس بعقد معاهدات تجارية فيها.

١١ - يجوز للروس بناء كنيسة على الطريق العام في محلة بك أوغلي في غلطة

باستانبول غير الكنيسة المخصصة. وتكون تحت صيانة سفير روسيا وتؤمن الصيانة الكاملة لها والحراسة التامة خوفاً من التدخل.

١٢ - إعادة بعض المناطق للدولة العثمانية من روسيا بشروط منها العفو العام عن أهاليها وحرية النصارى منهم من كافة الوجوه وبناء كنائس جديدة ومنح امتيازات للرهبان وحرية الهجرة للأعيان وعدم التعرض لهم وإعفائهم من تكاليف الحرب والجزية...

١٣ - يرد الروس جزائر البحر الأبيض المتوسط التي هي تحت حكمهم للدولة العثمانية التي يجب أن تعفو عن أهلها وتعفيهم من الرسوم السنوية وتمنحهم الحرية الدينية وترخص لمن يريد منهم ترك وطنهم.

كما ذكرت بنود أخرى تتعلق ببعض المناطق في القرم وبتدابير الانسحاب واخلاء الأفلاق والبوجاق والبغدان وبتسريح الأسرى وتعيين السفراء من أجل المصالحة وتعهدت الدولة العثمانية بتأدية خمسة عشر ألف كيس للروسيا في مدة ثلاث سنين يدفع منها في كل سنة قسط وهو خمسة آلاف كيس.

وحين التدقيق في هذه الشروط يمكن ملاحظة ما يلي:

١ - إنهاء السيطرة العثمانية على البحر الأسود وتهيئة الأسس الديبلوماسية المقبلة للتدخل الروسي في القضايا العثمانية الداخلية.

٢ - تمدد الحدود الروسية إلى نهر بوغ الجنوبي واشتمالها آزوف وسهوب كرش ونيكال في النهاية الشرقية من شبه جزيرة القرم. كما ضمت جزءاً من مقاطعة قوبان ومصبي نهري الدينيبر وبوغ وسهوب كينبورن.

٣ - أصبحت بلاد القرم مستقلة ورعاياها لا يلحقون الدولة العثمانية إلا دينياً فقط.

٤ - أصبح لروسيا حق بناء قناصل في أي مكان في الدولة العثمانية والملاحة الحرة في مياهها. .

٥ - سمحت المعاهدة للروس بالحصول على امتيازات ضمن البلاد العثمانية تشمل الأرثوذوكس في الأفلاق والبغدان وجزر بحر إيجه وبالتالي تحولت روسيا إلى حماية الارثوذوكس في أي مكان في الدولة العثمانية.

التفتت الدولة العثمانية إثر ما حصل لإصلاح شؤونها الداخلية وتقوية جهودها العسكرية وخاصة من حيث إنشاء السفن الحربية للتعويض عما فقدته في مجابهتها مع الروس في الآونة الأخيرة.

واتجه الروس في مناوراتهم لابتلاع بلاد القرم نهائياً وزرعوا العملاء هناك لإحداث الفتنة وبالتالي قطع كل صلة لها بالدولة العثمانية إذ أن الهدف الروسي كان من خلال بنود المعاهدة ليس استخلاص الاستقلال للقرم عن الدولة العثمانية وإنما التمهيد لاحتلالها. وناور الروس وبثوا الدسائس وأحدثوا الاضطرابات حتى تمكنوا من تحريض بعض المغرر بهم بعزل أمير القرم - دولت كراي - وهو المنتخب بمقتضى نصوص معاهدة كينارجه وعند ذلك نصبوا - جاهين كراي - بدلاً عنه - وكادت تشتعل نار حرب أهلية نتيجة لذلك فاستغل الروس هذه الأحداث ودخل الجنرال (بوتمكين) مع سبعين ألف جندي روسي كانوا يتحفزون على خط الحدود بانتظار اختراقها واستطاع احتلال البلاد القرمية المسلمة وبالتالي شواطىء البحر الأسود الشمالية.

ما أن علم العثمانيون بأنباء القتال والهجوم الروسي الغادر حتى عبؤوا قواتهم في محاولة لتأديب المعتدين وعند ذلك تدخل الفرنسيون وأقنعوا الباب العالي بالعدول عن الحرب وأن الخراب والدمار هو نتيجتها ولا أمل في تحقيق نصر على تحالف روسي نمساوي جرى سراً. وفضلت الدولة العثمانية قبول الأوهام المفتعلة التي أثارتها فرنسا مع وجود القدرة الكافية عندها لدحر العدو واعترفت بضم القرم إلى روسيا عام ١١٨٧ هـ. ولم يرض المعتدون الروس بما

حدث بل أرادوا التحرش لايقاع العثمانيين وجرهم إلى حرب جديدة وحصنوا ميناء (سيفاستبول) وأقاموا ترسانة عظيمة في ميناء كرزون وأرسلوا الجواسيس إلى اليونان والأفلاق والبغدان لإثارة النصارى على الحكومة العثمانية وعملت كاترينا حتى أدخلت هرقل ملك الكرج تحت حمايتها وذلك مقدمة لاحتلال الكرج نهائياً .

وانبهرت كاترينا بهذا النصر وطافت في ربوع القرم وأقيمت لها الزينات وأقواس النصر التي كتب عليها (طريق بيزنطة) . وأثارت الدولة العثمانية من جديد فأرسل الباب العالي مذكرة إلى السفير الروسي بالآستانة وذلك في صيف عام ١٢٠٠ هـ فيها عدة مطالب منها التنازل عن حماية بلاد الكرج التي تخضع لسيادة العثمانيين وتسليم حاكم الفلاخ العاصي للدولة . . . ورفضت روسيا المذكرة فأعلن الباب العالي الحرب وسجن السفير الروسي .

وكتبت كاترينا إلى الجنرال بوتمكين بعدم انتظار العثمانيين والتقدم باتجاه مدينتي بندر وأوزي وتمكن نتيجة لذلك من دخول (أوزي) وعندها أعلنت النمسا الحرب على الدولة العثمانية وحاول يوسف الثاني الامبراطور النمساوي احتلال بلغراد ولكنه عاد يجر أذيال الخيبة منسحباً إلى مدينة تمسوار والجيش العثماني يتعقبه حتى حقق النصر عليه .

في هذه الآونة توفي السلطان عبد الحميد الأول فضعفت عزيمة الجند ودخل اليأس قلوبهم فاستغل الأعداء ما حدث واتحدوا مع بعضهم فتمكنوا من النصر على العثمانيين في ٣١ تموز وفي ٢٢ أيلول عام ١٧٨٩ م واستولى الروس على مدينة بندر الحصينة واحتلوا معظم الفلاخ والبغدان وبسارابيا ودخل النمساويون بلغراد وبلاد الصرب . التي ردت بعد ذلك بمقتضى معاهدة زشتوي .

وتوسطت انكلترا وبروسيا بين الدولة العثمانية وروسيا وعقد صلح بينهما قضى بامتلاك روسيا لبلاد القرم نهائياً وجزء من بلاد القوبان وبسارابيا والأراضي بين نهري بوغ ودنيستر وهي معاهدة ياش .

الفصل السابع

الحروب العثمانية الروسية
حتى الحرب العالمية الأولى

الحالة العثمانية في بداية القرن التاسع عشر الميلادي الثالث عشر الهجري

نتيجة للحالة البائسة التي تردّت اليها الدولة العثمانية بعد الاحتلال الروسي للقوم، والتدهور العسكري الحاصل أمام التحالف الروسي النمساوي، والتوسع الروسي الخطير، حصل رد فعل ضد الوضع السائد. وحاول السلطان سليم[1] الثالث تطبيق بعض الاصلاحات. ولكن نجاح خصومه في احباط اجراءاته الجديدة أفشله وتوقفت بالتالي المحاولات المضادة عام ١٢٢٢ هـ حينما تهيأ الدعم والتأييد لانصار الاصلاحات السابقة بين صفوف الوجهاء في الروملل حيث التهديد المحتمل لأوضاعهم الخاصة. وتزعم حركتهم بيرقدار مصطفى باشا. وسيطرت قوته وقوة الصدر الأعظم شلبي مصطفى باشا معاً على استانبول. وخلعت السلطان مصطفى الرابع ونصبت محمود الثاني ابن السلطان عبدالحميد الأول واوصت ببعض السياسات الاصلاحية التي كان سليم الثالث قد بدأ بتنفيذها سابقاً.

(١) السلطان سليم الثالث: وهو ابن السلطان مصطفى الثالث حكم من عام ١٢٠٣ حتى ١٢٢٢ هـ.

واهتم الأعيان بحماية مصالحهم. ووضعوا الضمانات والتأمينات عليها ولكن نجاحهم لم يعمر طويلاً لثورة الانكشارية التي حدثت في نوفمبر من العام نفسه والتي أودت بحياة بيرقدار واستؤنف الحكم المحافظ.

كان الوضع العثماني يائساً في نهاية عام ١٢٢٢ هـ وكانت سيطرة الدولة قد بلغت حدها الأدنى في شمالي افريقيا. وكانت توضع أسس سلطة مستقلة في مصر من قبل محمد علي باشا. ولم يؤد الباشوات المملوكين الجيورجيين في العراق الا الكلام والتملق للباب العالي. كما قام الولاة في سوريا بالفعلة نفسها. وتحدّى الوهابيون في شبه الجزيرة العربية الشرعية العثمانية. ولم يبق من كافة الاناضول سوى ولايتين فقط تحت الحكم العثماني المباشر فعلاً.

وتردت السلطة في بلاد البلقان لتصبح ألعوبة بأيدي الاعيان الخطيرين أمثال علي باشا الذي سيطر على جنوبي البانيا وعثمان باشوان أوغلي الذي حكم شمالي بلغاريا حتى وفاته عام ١٢٢١ هـ. أما صربيا فكانت في حالة من التمرد والعصيان بزعامة (قره جورج) منذ عام ١٢١٢ هـ. وامتعض الصربيون في البداية من السياسات الانكشارية الارهابية التي اغتصبت سلطة الحاكم المحلي. ولكن فيما بعد صاروا يطالبون بالاستقلال الذاتي وتحالفوا عام ١٢٢١ هـ مع الروس. أما التهديد الخارجي فوضعه ليس أقل شؤماً. وأمل سليم الثالث بالمساعدة الفرنسية كي يستعيد الأراضي التي احتلتها روسيا. ووجد العثمانيون انفسهم نتيجة لذلك في مواجهة عسكرية مع الروس الذين احتلوا الامارات في عام ١٢٢٠ هـ. ومع البريطانيين الذين حاولوا احتلال الدردنيل عن طريق قوتهم البحرية الضاربة في شباط من عام ١٢٢١ هـ والذين غزوا مصر في آذار من عام ١٢٢١ هـ.

في غضون هذه الملابسات لم يبخل نابليون ومن خلال اتفاقات تلسيت (٧ تموز عام ١٢٢١ هـ) وارفورت (١٢ تشرين الأول ١٢٢٢ هـ) عن المعارضة

الظاهرية لروسيا. وفي الوقت نفسه كان يسكت عن رضى وقبول لاحتلالها الأفلاق والبغدان.

ان انهماك الدول الاوروبية في أمور أخرى ساعد العثمانيين في اصلاح وضع مشكلاتهم الدولية فعقدت بريطانيا صلحاً عام ١٢٢٣ هـ (معاهدة الدردنيل) وعقدت روسيا معاهدة بخارست عام ١٢٢٧ هـ حيث استرجع الباب العالي الامارات رغم احتفاظ الروس ببسارابيا. وجرى الاصلاح في أوساط الجيش العثماني كي يكون قادراً على مجابهة التحديات الاوروبية والعصيانات الداخلية، ثم القضاء على الجيش الانكشاري. ودعم العلماء السلطان محمود وشكل الجيش النظامي الجديد وجهزه على الطراز الاوروبي وجلب العلماء والمستشارين والمدربين من أوروبا.

ورغم تجهيز وتدريب الجيش الجديد على الطراز الأوروبي الحديث، ورغم جهودات المستشارين الغربيين (بما فيهم رئيس الاركان العامة للجيش الالماني فيما بعد (هلموت فون مولتكه) فانه كان جيشاً عظيم الولاء للسلطان خلاف الجيش السابق، وأصبح أداة المركزية السياسية. وتطلبت حركة التحديث الكبيرة تدريب الضباط والاخصائيين في محاولة لسد الهوة التي تزداد عمقاً باستمرار بين الدولة العثمانية وأوروبا. كما أنها شملت الاصلاح السياسي والاقتصادي وبدأ تحديث التعليم مع الحاجة الماسة للخبراء والاطباء العسكريين والجراحين، وأصلح نظام الضرائب، قام السلطان محمود بالتأثير على العلماء والمنظمات الاسلامية وأوجد ادارة الاوقاف الجديدة عام ١٢٤٢ هـ وهو يأمل في كسب السيطرة الكلية عليهم. وفي محاولة لتدعيم مركزه وكسب الثقة باجراءاته فقد شق طرقاً جديدة ونظم الادارة المركزية وأوجد الوزارات على الطراز الغربي كي تحل محل النظام القديم.

ان محاولات توطيد السلطة العثمانية وتعميقها في الولايات الاوروبية

وخاصة في اليونان وصربيا قد أُحبطت. وكانت الثورة اليونانية من نتاج الرخاء الاقتصادي الذي نجم عن الحروب النابوليونية وانتشار الافكار الاوروبية ورد الفعل ضد المركزية العثمانية. وكان لهذا الفشل مصدران كمن الأول في المعارضة الفلاحية بينما كان وراء الثاني بعض التنظيمات التي قادها (الكسندر يبسلانتس) الذي غزا مولدافية في آذار عام ١٢١٥ هـ.

ومنع تدمير الاسطولين العثماني والمصري من قبل روسيا وفرنسا وبريطانيا والقوة البحرية البريطانيه في ناڤارين في ٢٠ تشرين أول عام ١٢٤٣ هـ، المسلمين من تجهيز جيوشهم، كما أدى ذلك الى جعل اليونان شبه مستقلة.

واضطر العثمانيون الاعتراف بالحكم الذاتي لها أولاً ثم بالاستقلال ثانياً. وشبيه بذلك الجهود العثمانية لإعادة السيطرة على صربيا والامارات، والتي توقفت أو أحبطت للمعارضة الروسية العنيفة والتي أدت بالتالي الى الحرب الروسية العثمانية عام ١٢٤٤ هـ - ١٢٤٥ هـ. وتنازل الباب العالي للروس بمقتضى معاهدة ادرنة (١٤ أيلول ١٢٤٥ هـ) عن فوهة الدانوب والأراضي الهامة في شرقي آسيا الصغرى واعترف باستقلال صربيا الذاتي عام ١٢٤٦ هـ الذي شمل كافة أراضي هذه البلاد عام ١٢٤٩ هـ.

وبوفاة السلطان محمود الثاني (١ تموز عام ١٢٥٥ هـ) انكمش حجم الدولة ولكنها كانت أكثر قوة وصلابة رغم أنها أصبحت اكثر تعرضاً للضغوط الاوروبية. فالروس يحرضون ويدعمون، والانكليز يعارضون قيام الحركات الانفصالية، والشعوب الأخرى بين شقي الرحى. ثم كانت التنظيمات (١٢٥٥ هـ) وكان قصدها كسب الدعم الاوروبي بعد الاحداث الخارجية والداخلية. ولكنها تعرقلت لنقص الاموال والخبرة وللمعارضة الناجحة وتأخر تطبيق المركزية لتدخل الدول الاوروبية التي أوقفت المحاولة العثمانية في أخذ زمام المبادرة في البوسنة والجبل الاسود عام ١٢٤٨ هـ... ورغم ان الانكليز

والفرنسيين ساعدوا العثمانيين في مقاومة الضغط الروسي خلال حرب القرم (١٢٤٨ هـ - ١٢٥١ هـ) فان الباب العالي لم يجن أية فائدة من اتفاقية السلم.

وبلغت المصاعب المالية العثمانية أوجها في نهاية القرن الثالث عشر الهجري وخاصة عام ١٢٩١ هـ ولم يبق أمام الباب العالي الا اعلان افلاسه. وقد أشار السفير الروسي بذلك. ولم تف القروض بالمطلوب.

وأذكى الروس نار الثورة في ولايات الروم ايلي السلافية واندلعت الثورة في بلغاريا ونشبت الاضطرابات في الهرسك ونشبت نزاعات في سالونيك. وأعلن الامير ميلان الحرب على الباب العالي في البوسنة ودخل الجبل الأسود طرفاً فيها واحرزوا انتصاراً ضد الدولة العثمانية.

الروس في بداية القرن التاسع عشر

حينما تسلم القيصر الروسي اسكندرالأول[1] الحكم في آذار من عام ١٢١٥ هـ كانت بلاده في عداء مع معظم أوروبا. وكان حليفها الوحيد آنذاك هو الباب العالي - العدو التقليدي -. وسرعان ما تحرك الامبراطور الجديد نحو اقامة حالة من السلم مع بريطانيا وفرنسا واحتفظ بعلاقات عادية مع النمسا. وكان يأمل في التركيز على الاصلاحات الداخلية. ولكن تحطمت آماله لاستئناف الحرب مع نابليون عام ١٢١٩ هـ وهزيمة (اوسترلتز). وفي بولندا حاربت الجيوش الروسية نابليون ومعها بروسيا. وانتهى صلح تلسيت لعام ١٢٢١ هـ

(١) اسكندر الأول: ولد عام ١١٩٠ هـ في سان بطرسبورغ. وأصبح امبراطور روسيا من عام ١٢١٥ هـ حتى عام ١٢٤١ هـ. وهو الذي شكل التحالف الإئتلافي الذي أدى إلى هزيمة نابليون الأول. كما يعد أول من نادى بايجاد التحالف المقدس. وقد تمكن من دخول باريس منتصراً عام ١٢٢٩ هـ، وقد اشترك في المفاوضات التي حفظت السلم في أوروبا. وبعد موته عام ١٢٤١ هـ في (تاغا نروك) في سيبيريا نشأت الأساطير حول الزهد والوحدة التي مارسها هناك في سني حياته الأخيرة.

والذي حدد لخمس سنوات بغزو نابليون لروسيا عام ١٢٢٧ هـ واستطاع الروس دفع جيوشهم غرباً خلال السنتين التاليتين وظهرت روسيا كقوة اوروبية أعظم من حيث المساحة. والأولى بين المنتصرين على نابليون. واحتفظت باعتبارها الواسع حتى منتصف القرن حيث لم يقاتل الروس خلالها الا اعداء ضعافاً فقط. وحينما ارتجفت اوروبا من جراء ثورة فرنسا لعام ١٢٦٤ هـ فان روسيا كانت الوحيدة التي لم تتأثر من بين كافة القوى العظمى آنذاك. وأرسل القيصر في صيف عام ١٢٦٥ هـ لسحق الهنغاريين في ترانسلفانيا.

لم تكن روسيا محبوبة ولكنها مهابة ومعتبرة. وكان القيصر نيقولا[٢] الأول عدو الديموقراطية الاكبر وفي كافة أرجاء العالم كما أنه كان عدو الحرية الرئيسي. وجاءت حرب القرم فكشفت عن سوأته وأن هذا الامبراطور لم يكن أكثر من بوق فارغ. فهو غير قادر على تحريك أو تجهيز أو نقل قوات كافية لهزيمة الدول من ذات الحجم المتوسط والتي كانت تتصرف بقوة عسكرية معتدلة آنذاك. ومات نيقولا بمرارة ذلك الفشل. كان الكسندر الأول شاباً صغير السن حينما شهدت سنين حكمه الأولى مدتين قصيرتين من المحاولات الاصلاحية، شكل القيصر في أولاهما ١٨٠١ - ١٨٠٣ م مع أربعة من أصدقائه مجلساً بقصد الاصلاح كما كانت المدة الاخرى من عام ١٨٠٧ - ١٨١٢ م حيث لعب رئيس مستشاريه الليبرالي (ميخائيل سبرانسكي) دوراً هاماً. ورغم بعض

---

(١) نيقولاي الأول: ولد في ٦ تموز عام ١٧٩٦ م في بوشكين في روسيا وتوفي في ٢ آذار عام ١٨٥٥ م في سان بطرسبورغ (لينينغراد). واهتم في شؤونه بصورة خاصة وتزوج الأميرة كارلوكة البروسية وقبل أن يرقي الى العرش عام ١٨١٥ ويصبح امبراطوراً خاض عدة معارك عسكرية. وقد حكم بلاده بصورة أوتوقراطية. وكان حكمه أحد الأنظمة العسكرية والبيروقراطية وانتهى بالهزيمة الروسية في حرب القرم.

الانجاز الاداري المحقق فانه كان اصلاحاً أولياً. ثم تحول القيصر الكسندر بعد عام ١٨١٥ م الى تطبيق خطط سلمية عالمية حمقاء. ولم تكن دوافعه سياسية محضة ولكنها دينية ابرزتها الحروب والاخطار القومية على مسائل عقيدته الدينية الارثوذوكسية وبينما كان منشغلاً هكذا بالديبلوماسية والدين فقد حكمت روسيا من قبل المحافظين أمثال الجنرال الشهير (الكسي آراك شيَيف) وهزمت روسيا المقدسة نابليون - الكورسيكيون منحرفي العقيدة - ولكن الشباب الروسي المثقف ممن خدموا في الجيش. ورأوا أوروبا وقرأوا وتكلموا الفرنسية والألمانية وعرفوا الأدب الاوروبي المعاصر شعروا وفكروا بطريقة أخرى.

حقق الروس خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر نجاحات كبيرة في آسيا (القوقاز) واتحدت مملكة جيورجيا معهم عام ١٨٠١ وسيطروا على الامارات الجيورجية الاخرى في السنين اللاحقة. كما تخلت لهم بلاد فارس عن شمالي أذربيجان بما فيها شبه جزيرة باكو عام ١٨١٣، والمقاطعة الأرمنية (ايرڤان) عام ١٨٢٨ م ولكن شعوب الجبال أبدوا في شمالي القوقاز مزيداً من رباطة الجأش والصلابة. كما قاوم الشيشين بقيادة الشيخ شامل الطفيان والاستعمار الروسي من عام ١٨٣٤ حتى عام ١٨٥٩ ولم يخضع الشراكسة حتى عام ١٨٦٤ م.

وفي الأربعينات من ذلك القرن سيطر الحكم الروسي التوسعي على أراضي الشعوب الرعوية في كازاكستان.

اهتمت السياسة الروسية الخارجية في بداية القرن التاسع عشر من حيث الأساس بالبلاد الغربية الثلاث المواجهة لها وهي السويد وبولونيا والدولة العثمانية. وحددت العلاقات مع فرنسا والنمسا وبريطانيا سياستها تجاه هذه البلدان. ولن نتعرض هنا الا للسياسة الروسية العثمانية فقط.

كانت الدولة العثمانية تعد ولوقت طويل المعارض الأساسي للتوسع الاستعماري الروسي . وأثناء عهد من الجمود حيث أصبحت السياسة العثمانية ذاتية وآلية ، كانت الرغبة الروسية قوية ـ وهي المطالب القديمة . في الاستيلاء على القسطنطينية ، وتداخلت الآن في الموضوع عوامل أخرى منها التأكيد على محاولة ترحيل القمح الروسي المصدر عبر البحر الأسود . ومع ذلك فإن الروس كانوا يعدون الاتراك خلال فترات معينة حلفاء أقوياء . وتلك كانت سياستهم من عام ١٢١١ هـ ـ ١٢٢٠ هـ ثم من عام ١٢٤٨ ـ ١٢٦٩ هـ .

ولما كانت المصالح الروسية متحققة والسياسة الخارجية ناجحة فإنهم كانوا يؤيدون حق الدولة العثمانية دون المطالبة بالأراضي . أما عندما لا تتحقق مصالحهم فانهم كانوا يساندون المتمردين في بلاد البلقان العثمانية أو أنهم يشهرون الحرب ، وهي الحالة التي طبقت من عام ١٢٢٠ هـ حتى ١٢٢٧ هـ ومن عام ١٢٤٢ هـ ـ ١٢٤٥ هـ ومن ١٢٦٩ هـ ـ ١٢٧٢ هـ .

وكانت أوقات التعاون مع العثمانيين تعود على الروس بالفائدة أكثر من الحرب . وفي المدة الاولى حققوا موطىء قدم لهم في الجزر الأيونية وأصبح هذا متوفراً بعد معاهدة تلسيت . أما في المدة الثانية فانهم انجزوا نجاحاً عظيماً بموجب معاهدة هنفار اسكله سي عام ١٨٣٨ م إذ فتحت مضائق البحر الاسود أمام سفنهم الحربية . وهي الموقعة من قبل الدول الكبرى والدولة العثمانية والتي تحظر مرور السفن الحربية الاجنبية عبر الدردنيل والبوسفور طالما كانت الدولة العثمانية في حالة سلم . وهكذا فهي تحمي وضع روسيا في البحر الاسود ما لم تكن هي نفسها في حالة حرب مع تركيا .

كانت العقبة الكأداء في أزمنة العداء بين الدولة العثمانية وروسيا أمام التوسع الروسي المنطقة التي عرفت فيما بعد باسم رومانيا (الافلاق والبغدان) وقد قسمت مولدافيا عام ١٢٢٧ هـ بين روسيا والدولة العثمانية ، وكان النصف

١٢٤٥ هـ تقدمت الجيوش الروسية عبر الامارات وتشبثت بها حتى عام ١٢٥٠ هـ ولكنهم انسحبوا عام ١٢٦٤ هـ بموافقة من الباب العالي على اخماد الثورة التي نشبت في بوخارست . وكانت مسألة وقت فقط إذ تحين الروس الفرص وألحقوا كلا الامارتين فيما بعد ولكن ذلك لم يتحقق لانهزامهم في حرب القرم .

وكانت حرب القرم تمثل صراع الدول الاوروبية الكبرى على النفوذ في الشرق الاوسط . ولكن المطالب النمساوية التي قبلت روسيا بها وتحققت في حزيران عام ١٢٧٠ هـ كانت جهود الديبلوماسية النمساوية . وانسحبت القوات الروسية من الامارات الدانوبية التي احتلتها على الفور القوات النمساوية . فهل كان وجود القوات النمساوية هناك عاملاً في منع بريطانيا وفرنسا من التقدم في أوكرانيا؟ أم أنه بقصد ضرب روسيا فيما اذا تقدمت نحو القسطنطينية؟

واستاء القيصر من العمل النمساوي واعتبره نكراناً للجميل . فهم (أي الروس) الذين أنقذوها من المتمردين عام ١٢٦٥ هـ . وعندما كان الانكليز والفرنسيون غير قادرين على الهجوم في الامارات فانهم قرروا ارسال حملة الى القرم لتدمير الاسطول الروسي في سيباستبول كما سنرى . وعندها أخرجت الحرب عن سيرها الطبيعي وأظهرت عدم كفاءة القيادة الروسية التي كسبت مع ذلك بعض الانتصارات ضد العثمانيين في القوقاز . وكان الدفاع عن سباستبول حوالي السنة انجازاً براقاً .

الحروب والمعاهدات العثمانية الروسية

بعد انتصار نابليون على الروس انتشرت الانباء في كافة البلاد الروسية وتقهقر الجند في ولاية البغدان العثمانية . ثم حصل صلح تلسيت بين فرنسا وروسيا في أول جمادى الاول عام ١٢٢٢ هـ . ومما جاء في احد بنوده السرية

بعد أن أقرَّ مبدأ التوسط الفرنسي بين العثمانيين والروس « ... ان لم يقبل الباب العالي توسط فرنسا بسبب الحوادث الاخيرة التي حدثت بالآستانة ، أو إن لم يتم المقصود بكيفية مرضية بعد قبول هذا التوسط بخمسة وثلاثين يوماً ، فتتحد فرنسا مع الروسيا على سلخ جميع الولايات العثمانية بأوروبا ما عدا الآستانة وما حولها وتقسيمها فيما بينها ، مع ارضاء النمسا بجزء يسير . وكيفية ذلك التقسيم : ان يكون لفرنسا بلاد بوسنة والبانيا وأبيروس وبلاد اليونان ومقدونيا . وللنمسا بلاد الصرب . وللروسيا الأفلاق والبغدان والبلغار واقليم تراس لغاية نهرماريتزا ... » . والجدير بالذكر هنا أن فرنسا التي كانت تدّعي صداقة الدولة العثمانية ، وقفت الى جانب الروس وتخلت عن مواثيقها السابقة وتركتها وحيدة أمام أعدائها . كما يبدو واضحاً ما يكنّه أعداء الدولة العثمانية بصورة خاصة ، والاسلام بصورة عامة،من نوايا خبيثة في تقسيم البلاد الاسلامية وإضعافها . ورغم وعودهم المتكررة وأقوالهم الزائفة فانهم ليسوا بأهل موثق أو عهد تجاه المسلمين اذ ان مصالحهم فوق كل اعتبار ومع أن نصوص معاهدة تلسيت قضت بالانسحاب الروسي من ولايتي الافلاق والبغدان ، فان الروس لم ينفذوا ذلك ، ولم يحصل الاتفاق على شروط الصلح ، واستؤنف القتال بعد سنتين من ذلك التاريخ بين الطرفين .

ودارت رحى حرب جديدة بين الجيشين العثماني والروسي ،وانهزم الباب العالي نتيجة لها . واستولى الروس على مدن (اسماعيل) ، (سلسترن) ، (روستجق) ، (نيكوبلي) ، (بازارجق) ، في مناطق الحدود الروسيا الرومانية وعزل الصدر الأعظم ضيا يوسف باشا وتولى احمد باشا مكانه ، وتوجه الى الروس بجيش قوامه ستين ألف مقاتل وانتصر عليهم واجبرهم على اخلاء مدينة روستجق في ١٣ جمادى الثانية عام ١٢٢٦ هـ الموافق ٥ تموز عام ١٨١١ م . ولكن الروس عادوا لاحتلالها مرة ثانية .

والجدير بالذكر ان نابليون لم يقبل مطالب اسكندر الاول الروسي بضم مدينة القسطنطينية اليه وبالتالي السيطرة الروسية على المضائق ومفاتيح اوروبا ، الا لخوفه من ازدياد نفوذ سان بطرسبورغ وبالتالي تهديم امبراطوريته الشاسعة وليس حباً بالدولة العثمانية او احتراماً للعهود والموثيق المبرمة معها .

وفترت العلاقات بين روسيا وفرنسا لوقف تنفيذ صلح تلسيت واقتربت الدولتان من الحرب ، فسعى الروس لصلح مع الدولة العثمانية ، وقبل وزراء الدولة بذلك وانطلت عليهم الخديعة لجهلهم ولعوامل أخرى ، وقبلوا مبدأ التفاوض ، ووقعت في ١٦ جمادي الأول عام ١٢٢٧ الموافق ٢٨ مايس ١٨١٢ معاهدة بخارست . وقضت أهم شروطها باحتفاظ الدولة العثمانية بولايتي الافلاق والبغدان . واستعادتها لصربيا مع بعض الامتيازات . واحتفظ الروس لانفسهم بإقليم بسارابيا ، وأحد مصبات الدانوب .

استاء الفرنسيون من هذه المعاهدة وأضمروا الشر للعثمانيين ، اذ تفرغت جيوش الروسيا لهم . ولم يقم الباب العالي بعمل جديد والجدير بالذكر ان نابليون ، وقد فعل الفعلة نفسها في تلسيت عندما تخلى عنها وتآمر عليها سراً . ولكن الخلاف بين فرنسا وروسيا أوقف التآمر كما ذكرت قبل قليل بسبب المطالب الروسية في القسطنطينية .

ثم ثارت ثائرة العصاة في صربيا وانزعجت الدولة العثمانية من الروس لمساعدتهم الثوار وحمايتهم . واستمر الروس في دعمهم للعصاة وفي أذهانهم لا يزال الطمع في القسطنطينية . ورفض الباب العالي تدخل روسيا بينه وبين الولايات البلقانية واليونان . وما ان مات القيصر الروسي اسكندر الأول وتسلم الحكم خلفه نيقولا الأول حتى أبرم تحالفاً سريعاً مع الانكليز ضد الدولة العثمانية في مسألة اليونان فاضطر الباب العالي التوقيع على معاهدة (آق كرمان) في ٢٨ صفر عام ١٢٤٢ هـ الموافق عام ١٨٢٦ م . اذ حصل الروس بموجبه على حق الملاحة في البحر الاسود والمرور من المضائق دون أي تفتيش

من قبل العثمانيين. وان ينتخب حكام الافلاق والبغدان ولمدة سبع سنين بمعرفة الأعيان، وعدم جواز عزلهما الا بموافقة واقرار الروس. وان تستقل ولاية الصرب تقريباً وبذلك تآمر الانكليز والروس ضد الدولة العثمانية. ويمكن تلخيص الاتفاق بما يلي:

- اقرار معاهدة بخارست السابقة بقوة.
- تعهد الباب العالي بمراعاة امتيازات ومعاهدات الافلاق والبغدان.
- تعهد الروس بإعادة ما احتلوه في آسيا من الحصون والقلاع العثمانية في الحرب الأخيرة، ويجري تخطيط الحدود كما كانت قبل الحرب.
- اعطاء التعويضات للرعايا الروس منذ عام ١٢٢٠ هـ، إبان قطع العلاقات حتى الوقائع التي حصلت فيما بعد والتي احدثت اضراراً لهم وبسبب أعمال المغاربة في البحر.

وقد تعهد الباب العالي بـ :

١ - منع المغاربة من تعطيل الملاحة والتجارة الروسية.
٢ - دفع تعويضات للروس.
٣ - منع حدوث العراقيل في وجه السفن التجارية الحاملة للعلم الروسي.
٤ - ازالة العوائق السابقة.
٥ - الاعتراف بالامتيازات التامة والحرية الكاملة للتجار الروس.
٦ - السماح بدخول سفن حلفاء الدولة العثمانية الى مياه البحر الاسود ولكن بناء على التوسط الروسي في الأمر.

معاهدة أدرنه والحرب مع الروس:

الحرب في أوروبا: بعد ان عقدت فرنسا وانكلترا وروسيا حلفاً ثلاثياً في صيف عام ١٢٤٣ هـ والذي انضمت اليه بروسيا فيما بعد، وذلك ابتغاء تحرير

الشعب اليوناني، بعد أن حمل ابراهيم باشا بقوة على الثوار في الموره. وبعد أن استسلم هؤلاء، برز اسطول السلطان في ساحل الموره حاملاً الى ابراهيم باشا النجدات الكافية. والقى مراسيه أمام ثغر (ناوارين) فتصدت له هناك وحدات من أساطيل البحر المتوسط التابعة للدول المتحالفة وحظرت على ابراهيم باشا الذي كان قد تولى القيادة القيام بأي عمل عسكري جديد على الساحل اليوناني فرفض ابراهيم الانصياع لهذا التدخل فوقعت في ٢٠ تشرين أول المعركة البحرية التي تحطم فيها الاسطول العثماني المؤلف من اكثر من مائة قطعة تحطيماً كاملاً خلال اشتباك لبضعة ساعات فقط.

لم يكن المستفيد الاول والأوحد من هذه الكارثة البحرية التي حلت بالدولة العثمانية سوى روسيا. واستغلتها أبشع استغلال واعلنت الحرب في ربيع عام ١٢٤٤ هـ على الدولة العثمانية. وكانت تعد لذلك الأمر وهي في حالة تأهب تام. فاخترقت جيوشها نهر البروت الفاصل بين الدولتين وسرعان ما احتلت (ياشي)[1] عاصمة البغدان. ثم دخلت بوخارست عاصمة الأفلاق وجرى احتلال البلاد العثمانية حتى نهر الدانوب. وحاصر الروس مدينة (وارنه)[2] براً وبحراً مستغلين عدم توفر الحماية البحرية اثر موقعة (ناوارين) السالفة الذكر. وسار القيصر بنفسه حتى مدينة (شومله) واحتلت جنوده مدينة (أسكي استانبول) لاستكمال الحصار.

أظهرت الجيوش الحديثة التي نظمها السلطان العثماني أخيراً فاعلية معتبرة رغم ضآلتها عددياً، وهذا ما أدى الى رفع الحصار الروسي عن (اسكي استانبول)، وتمكن القبودان عزت محمد باشا من تأمين الامداد البحري رغم

---

(١) ياشي: مدينة تقع اليوم شمال غربي رومانيا قرب الحدود الروسية.
(٢) وارنه: مدينة تقع اليوم في بلغاريا على ساحل البحر الأسود.

الحصار الروسي . بينما تمكن السر عسكر حسين باشا من اشغال المحاصرين براً . ويئس القيصر من دخول المدينة ، لولا الخيانة التي حدثت ، فسلمت للروس في أول ربيع الثاني عام ١٢٤٤ هـ الموافق ١٠ تشرين أول عام ١٨٢٨ م .

الحرب في آسيا

هاجم الروس قلعة قارص الشهيرة (شرقي تركيا اليوم) مع قلاع اخرى واحتلوها . ثم توقف القتال لشدة البرد . وقد لقنت الجنود النظامية العثمانية الجيوش الروسية درساً قاسياً ولكنها لم تكن بحجم كاف أمام الجحافل الروسية الجرارة .

وعندما استؤنف القتال في ربيع عام ١٢٤٥ هـ كان من الطبيعي ان ينتصر الروس المتفوقون في هذه الظروف رغم البسالة والتضحية العثمانية .

وآنذاك حدثت بعض الوقائع نسرد منها :

جرى اجتياز الدانوب من قبل الروس . واخترقوا جبال البلقان واستطاعوا الوصول الى أدرنه . وأصبحت استانبول قاب قوسين او أدنى من بنادق الجنود الروس وبما أن الدول لا ترغب آنذاك في سقوط استانبول فريسة بيد الروس ، وأنها تود اضعاف الدولة العثمانية شيئاً فشيئاً مع بقائها عقبة في طريق الزحف الروسي نحو المضائق والبحار الدافئة ، فقد سارعت للاتصال بالدولتين المتقاتلتين . ونتيجة التفاوض الذي جرى بتوسط من مملكة بروسيا تم الصلح ووقعت معاهدة أدرنه بتاريخ ١٥ ربيع أول عام ١٢٤٥ هـ الموافق ١٤ أيلول عام ١٨٢٩ م وهذا ملخص لأهم بنودها :

١ - اعادة ما احتله الروس من البلاد العثمانية في الحرب الأخيرة (الأفلاق والبغدان - بلغاريا وغيرها من بلاد البلقان والرومللي) .

٢ - يكون نهر البروت هو الحد الفاصل بين الدولتين حتى التقائه بالدانوب .

ثم يصبح الدانوب خط الحدود حتى البحر (مصب مارجرجس) باستثناء الجزر المتشكلة هناك واستثناءات أخرى تتعلق بالاستيطان وحرية الملاحة هناك .

٣ - يحكم الروس للأبد المنطقة الآسيوية من البحر الاسود الممتده من مصب نهر قوبان حتى غاية ميناء ماري نقولا وبضمنها منطقة الميناء نفسه .

أما مدينة قارص وغيرها وولايتها وولاية بايزيد وأرضروم وغيرها فمن المحتمل أن تعيدها الروسيا الى الباب العالي وتعدل الحدود بينهما في آسيا .

٤ - احتفاظ الأفلاق والبغدان - وطبقاً للامتيازات السابقة - بالحرية الدينية والحكم الذاتي وحرية التجارة .

٥ - تعهد الباب العالي بتنفيذ نصوص بعض المعاهدات السابقة الخاصة بالصرب .

٦ - تمتع الروس بحرية التجارة التامة براً وبحراً دون ادنى إعاقة من السلطات العثمانية . أما بشأن الرعايا والتجار والسفن فان لها الحماية التامة والتقاضي أمام قنصلهم . كما أعطي للروس حرية ادخال الفحم والغلال عبر المضائق والبحر الاسود واخراجها وبيعها .

٧ - أعطيت حرية المرور التامة لجميع السفن التجارية التابعة للدول التي هي في حالة صلح مع الباب العالي والمتوجهة نحو الموانىء الروسية على البحر الاسود أو المغادرة لها . وأعطي للروس حق التأكد من الضمانات . وفي حالة حصول عمل عدائي فإنه يقابل بالمثل .

٨ - يدفع الباب العالي تعويضاً للروس قدره مليون وخمسمائة ألف دوكا هولندية لمدة ١٨ شهراً .

٩ - يدفع الباب العالي تعويض مصاريف الحرب للروس نقداً كما يتنازل عن أراضي في آسيا مقابل ذلك أيضاً.

١٠ - يقبل الباب العالي العقد المشتمل على التنظيمات القنصلية الخاصة.

١١ - لا يبدأ الجلاء الروسي الا بعد التنفيذ السريع للبنود الخاصة بإمارات البغدان والأفلاق والصرب وعندها يبدأ مع بقاء الادارة بيد الروس في الإمارات حتى الجلاء التام.

١٢ - وقف الحرب بعد توقيع المعاهدة.

١٣ - منح العفو العام عن جميع رعايا الطرفين ومنحهم مدة ١٨ شهراً كي ينتقلوا ويتصرفوا بأموالهم.

١٤ - اخلاء سبيل الاسرى دون فدية.

١٥ - تبقى المعاهدات السابقة معمولاً بها عدا البنود المخالفة للمعاهدة الحالية.

وتعهد الباب العالي بفك تحصينات الأفلاق والبغدان. وبعدم السماح لرعاياه المسلمين بالاستيطان على الشاطىء الأيسر للدانوب وانه لا يمكن لمسلم ان يتخذ مسكناً ثابتاً في بقعة منه. كما أعفيت امارتا الافلاق والبغدان نهائياً من تقديم بعض الغلال والمواشي والمحاصيل كما كانتا ملزمتين في السابق. ولا يطالب أهاليهما بتقديم عمال للسخرة وقد تقرر أن تدفع كل من البغدان والأفلاق سنوياً للباب العالي نظير ذلك مبلغاً من المال عدا الجزية باسم خراج. وتمتع سكانهما بحرية التجارة والصناعة. ثم أعفيتا من الخراج السنوي والجزية مدة سنتين ابتداء من يوم الجلاء الروسي.

من الجلي الواضح للعيان عمق المكتسبات الروسية نتيجة لهذه الحرب. فقد اصطنع تخطيط الحدود في آسيا بكيفية تكون في المستقبل مانعاً من اتصال الجراكسة المسلمين بالدولة العثمانية كي يتمكن الروس من بسط سيطرتهم

التوسعية الاستعمارية عليهم في المستقبل. أما بقية الدول فتبدو رغبتها الواضحة في اضعاف الدولة الاسلامية آنذاك وتخليص النصارى من حكم العثمانيين وتحريضهم على التمرد والثورة ضد حكوماتهم الشرعية.

ورغم أن الروس لم يكسبوا شيئاً يذكر نتيجة الحرب الأخيرة الا ان الشروط التي وضعت كانت بهدف اضعاف الدولة العثمانية حتى لا يمكنها إتمام ما بدأت انجازه من تنظيمات عسكرية جديدة أو بناء القوة البحرية التي دمرت في موقعه ناوارين، أما وقد انهكت خزينتها من جراء دفع التعويضات الفادحة ومن ثم فقد بدىء العمل باقتطاع اطراف الدولة العثمانية شيئاً فشيئاً.

معاهدة خنكار اسكله سي

بينما كانت فرنسا تتطلع الى فرض نوع من الحماية على مصر ابتغاء التمكين لنفسها في بلاد الجزائر الخاضعة لاستعمارها كان اللورد (بالمرستون) الانكليزي يخشى على طريق الهند اثر تحركات محمد علي باشا ازاء سوريا. ومن هنا فقد قامت الدول الاوروبية الكبرى بعمل مشترك ضد محمد علي وعقد مؤتمر في شباط عام ١٢٥٦ هـ في لندن لدراسة المسألة المصرية بناء على اقتراح النمسا. وعارضت فرنسا الاقتراح البريطاني ولكن عندما تولى (تيير) الوزارة هناك وهو الذي عمل لمصلحة محمد علي، وفق الديبلوماسيون الروس الى نسف التجانس الذي كان سائداً حتى ذلك الحين بين فرنسا وبريطانيا. ثم عقد التحالف الرباعي في تموز من عام ١٢٥٦ هـ بين بريطانيا وروسيا واثنتين من الدول الالمانية وتعهدت بموجبه هذه الدول الدفاع عن وحدة الاراضي العثمانية واكراه محمد علي على التخلي عن سورية...

قبل نشوب هذه الأحداث عرضت روسيا على الدولة العثمانية مساعدتها، لخوفها من وقوع الآستانة بيد دولة أقوى اثر انتصار محمد علي على العثمانيين

وتهديده الآستانة. وقد أنزلت فعلاً خمسة عشر ألف جندي روسي لحمايتها. واثناء وجود قواتها هناك تمكنت من ابرام معاهدة خونكار اسكله سي بتاريخ ١٨ محرم عام ١٢٤٩ هـ الموافق ٨ حزيران ١٨٣٣ م نسبة الى قرية هنكار اسكله سي قرب استانبول. وكان السلطان محمود[1] الثاني في محاولة لمجابهة الهزيمة أمام محمد علي باشا قد طلب المساعدة والتي رفضت من قبل النمسا وبريطانيا وفرنسا ولكنه قبل المساعدة العسكرية الروسية في عام ١٢٤٩ هـ.

ومدة المعاهدة ثماني سنوات وقد أعلنت السلم والصداقة بين الامتين وتعهدت الوصول الى اتفاق في كافة المسائل المتعلقة بالسلم والأمن، وبإعطاء المساعدات وكان يكمن الهدف الحقيقي الروسي وراء توقيع المعاهدة باغلاق المضائق أمام أي سفينة أجنبية حربية عدا الروسية منها. وقد أبرزت المعاهدة شك القوى الاخرى وخاصة بريطانيا في تخلي الروس عن امتيازات الدردنيل عند توقيع معاهدة لندن للمضائق لعام ١٢٥٧ هـ.

حرب القرم

اتفاق يلطه ليمان: أدت حركة عام ١٨٤٨ م الدستورية في أوروبا الى نتائج منها: اسقاط حكومة لويس فيليب الملكية والمناداة بالجمهورية الثانية. وتفشت الأفكار الثورية في كافة البلاد الأوروبية ومنها بولونيا والمجر. ولما كانت الروسيا لا ترغب بانفصال المجر عن النمسا، ولا رجوع مملكة بولونيا الى سابق وحدتها خوفاً من العوائق الممكن حدوثها في طريق تقدمها باتجاه الآستانة، فقد طلبت من الدولة العثمانية تسليم اللاجئين

---

(١) السلطان محمود الثاني: ابن السلطان عبد الحميد الأول. الرجل الذي تمكن من القضاء على الانكشارية، والقيام ببعض الإصلاحات الداخلية. تقدم محمد علي باشا في عهده واحتل سورية ودخل الأناضول وهدد العاصمة العثمانية. جرت في عهده معركة نصيبين حيث هزم السلطان وجيشه وتوفي على اثرها عام ١٢٥٥ هـ.

السياسيين من زعماء المجر ولكن الدولة رفضت فاستاء الروس.
وكان من نتائج الحركة الدستورية طموح أنظار الأفلاق والبغدان بالاستقلال، والانضمام الى ترانسلفانيا وتشكيل دولة رومانية جديدة. واشتعلت الثورة هناك، وفر أمير الولايتين فأرسلت الدولة العثمانية القائد العثماني الشهير عمر باشا. ولكن الروس قاموا بالتدخل وأرسلوا جنودهم الى البغدان وطردوا الحكومة الموقتة التي شكلها الاهالي هناك كما احتلوا الأفلاق. وأصبح الفريقان على شفا الحرب. ولكن المفاوضات دارت بينهما للحيلولة دون نشوبها وجرى اتفاق يلطه ليمان نسبة للمكان قضى بحق تعيين أمراء الولايتين من قبل الباب العالي. كما قضى باحتلال البلاد من قبل قوة ثنائية عثمانية روسية لمدة سبع سنين.

مسألة الاماكن المقدسة النصرانية:

قدم الاوروبيون ذريعة لتبرير تدخلهم في شؤون الدولة العثمانية مسألة تعدّ في حدها قليلة الاهمية في نظر الباب العالي، وذلك بقصد فرض السيطرة الاوروبية هناك وتلك هي مسألة الاماكن المقدسة.

كانت منطقة القدس ومنذ الحروب الصليبية يتقاسم فيها النفوذ أتباع الطوائف النصرانية الست: اللاتين - الروم الارثوذكس - الأرمن - السريان - الأقباط - الأحباش. ولضعف الكنائس الثلاث الاخيرة فإنها دخلت تحت حماية الأرمن الذين كان لهم دور فعّال لدى الباب العالي نظراً لقوتهم المالية. وكانت الكنيسة الارثوذكسية أرفع مرتبة من بقية الكنائس لأنها تمثل ما يقارب العشر ملايين من الرعايا الارثوذكس في البلاد العثمانية، اضافة الى دور روسيا الحامي لها: وتمتع رجال الكنيسة اللاتين بامتيازات أجنبية وحماية فرنسا بصورة خاصة.

وتوارثت هذه الطوائف المختلفة حقوقها هناك جيلاً بعد جيل تبعاً للعرف

والعادة وليس طبقاً لقانون محدد أو وثيقة مكتوبة. وكثيراً ما كانت تحتكم الى السلطات الاسلامية المحلية. وكان لا يخلو الأمر من نشوب يضمن بعض العنف بين رجالها. وكان العثمانيون يقومون بحفظ الامن والنظام هناك طيلة أيام عيد الفصح.

وفي أحد الايام فقدت نجمة مزخرفة بالنقوش الفضية كانت معلقة في كنيسة المهد فاتهم الارثوذوكس بسرقتها ولكن التحقيق لم يتوصل الى نتائج تذكر. ثم قامت الحكومة الفرنسية بعد مدة بإحياء الحادث واتخاذه ذريعة لمقاومة النفوذ الروسي في البلاد الاسلامية. وطالب سفيرها في استانبول استناداً الى امتياز سابق بتوسيع حقوق اللاتين، ولكن الروس هددوا الباب العالي بقطع العلاقات اذا ما أقدم على تعديل الوضع الراهن في الاماكن المقدسة. وبعد مفاوضات دامت قرابة السنتين، قرر السلطان الاحتفاظ بالوضع القديم السابق مع اعطاء اللاتين المفاتيح الثلاثة الخاصة بالأبواب الرئيسية لكنيسة العذراء. وباب السراديب القائمة تحت كنيسة المهد في بيت لحم. وبقي مفتاح مدخل الكنيسة الرئيسي في الجانب الغربي في حوزة اللاتين ومع ذلك فقد ارتاح السفير الفرنسي لذلك الاجراء.

استغل الروس تلك الفرصة كي يقضوا على نفوذ فرنسا في الشرق، واحتالوا على الباب العالي واصدر السلطان[1] أمراً بتدوين جميع حقوق الارثوذوكس في الاماكن المقدسة في سجلات محاكم المدينة فهدد السفير الفرنسي بالقاء الحصار على الدردنيل اذا ما نزلت الدولة عند ارادة الروس. ولكن الدولة العثمانية تجاهلت الانذار وأذعنت للمطالب الروسية. ثم نشأت مشكلة

(١) السلطان عبد المجيد: وهو ابن السلطان محمود الثاني ولد في ١٤ شعبان عام ١٢٣٧ هـ. تولى الخلافة العثمانية وهو ابن ١٨ سنة. صدرت في عهده التنظيمات الخيرية والخط الهمايوني، توفي عام ١٢٧٧ هـ.

جديدة تتعلق بقضية الجبل الاسود الذي كان سكانه ومنذ القرن السابع عشر الميلادي من الرعايا العثمانيين من الروملي يحكمون من قبل كهان. وحينما توفي الحاكم (بطرس الثاني) عام ١٨٢٢ م ادعى ابن أخيه الرئاسة الكنسية وشرح يحكم البلاد كمؤسس لسلالة وراثية مستقلة. فاعتبر الباب العالي ذلك ثورة عليه. وتوجه عمر باشا لاخماد الثورة. وسارع الروس للتدخل، وسلك السفير الروسي (منشيكوف) في استانبول مسلكاً متهوراً حمل فؤاد باشا على الاستقالة من وزارة الخارجية. وطالب السفير غير العادي (منشيكوف) الباب العالي بتسوية مسألة الاماكن المقدسة عن طريق معاهدة خاصة مع الروس والاعتراف بالبطريرك الارثوذوكسي رئيساً روحياً مستقلاً.

والحقيقة فان قصد الروس كان ايجاد أسباب الشقاق لاعلان الحرب بحجة مقبولة لدى الدول. وسافر السفير من عاصمة روسيا في أول جمادى الأول عام ١٢٦٩ هـ الموافق ١٠ شباط ١٨٥٣ م ماراً بأقاليم روسيا الجنوبية في طريقه للآستانة وراقب تجمع الجيوش وتحشداتها. واتصل الانكليز والروس بقصد اضعاف النفوذ الفرنسي في الشرق. ووضعوا الخطط المشتركة لتقسيم الدولة العثمانية. وعرض الروس على الانكليز التساهل معهم اذا ما ساعدوهم، وذلك باحتلالهم مصر وكريت. ولكن السفير الانكليزي لم يعط جواباً شافياً، وأجاب القيصر بأن الأولى معالجة (الرجل المريض) وتعهده بالعناية حتى يشفى من مرضه ويعود لسابق قوته، لأن موته يسبب اهدار الدماء الغزيرة حين القيام بتقسيم تركته.

لم يكن ما جرى حباً في الدولة العثمانية. ولكن خوف الانكليز من امتداد النفوذ الروسي وتوسعه في البلادالعثمانيةوالشرقية، واحتلال الآستانة، هو الذي دفعهم الى اتخاذ هذا الموقف. وأقنع الفرنسيون انكلترا بضرورة مقاومة الخطر الروسي المهدد للمستعمرات الهندية وطريق مصر.

وعندما أدرك الروس عدم إصغاء الانكليز لمطالبهم ألحوا للفرنسيين بالتساهل ازاء فلسطين، ودعمهم اياهم لاحتلال فرنسا لتونس وبلاد المغرب. ولكن الفرنسيين لم يعيروا أذناً صاغية لأن اهتمامات نابليون كانت تنصب على محاولة ارجاع مجد فرنسا السابق في أوروبا كما كانت في عهد عمه نابليون الأول.

ووصل منشكيوف الى الآستانة بعد عدة تظاهرات حربية وايهام للعقول. وكما ذكر سابقاً فإنه لم يراع الأصول الديبلوماسية المتبعة أثناء مقابلة السلطان العثماني الامر الذي أدى الى تأزم الأمور وبالتالي اقتراب شبح الحرب.

وأرسلت فرنسا في عام ١٢٦٩ هـ سفنها الحربية الى مياه اليونان استعداداً للطوارىء. أما انكلترا فقد تربصت سفنها في مالطة بانتظار صدور أوامر جديدة. وكان منشيكوف يحاول مع الباب العالي تجديد معاهدة (خونكار اسكله سي) دون الحصول على نتيجة قطعية. ثم تبين عزم السلطان العثماني رفض الطلبات الروسية باعادته (رشيد باشا) الى منصب الصدارة بعد أن كان سابقاً قد عزله ارضاء للروس. وفي ٢٦ حزيران وجه القيصر نيقولا بياناً الى شعبه أعلن اضطلاع روسيا منذ القدم على الدفاع عن الارثوذوكسية وانه سيبعث بجنوده الى امارات الدانوب. وقد عنى أنه سيشن حرباً ولكن للحصول على ضمانة لاعادة الحقوق السليبة كما ادعى. وبعد أسبوع عبرت الجيوش الروسية نهر البروت. وأعلن الباب العالي الحرب على الروس في ٤ تشرين أول، وعبرت جيوشه الدانوب بقيادة (عمر باشا) وتحرج موقف (فرانسوا جوزيف) وطلب عقد مؤتمر في ڤيينا. وانعقد المؤتمر في شهر آب عام ١٢٦٩ هـ وقبلت الروسيا مقرراته الغامضة. ولكن الباب العالي رفضها وفشل المؤتمر.

ودفع الانكليز والفرنسيون الدولة العثمانية باتجاه الحرب ولوّحوا بوعودهم لدعمها. فأنذر الباب العالي الروس باخلاء الأفلاق والبغدان خلال مدة خمسة

عشر يوماً وأمر القائد عمر باشا بعبور الدانوب بعد أن تجاهلت روسيا الانذار العثماني.

وبعد معركة فاصلة تمكن القائد العثماني من تحقيق نصر. وتقهقر الروس عن الضفة اليسرى للدانوب. واندهش العالم النصراني لما جرى. ثم حل الشتاء القارس ورجع عمر باشا للحصون دون ملاحقة العدو المتراجع.

معركة سينوب: تشرين ثاني ١٢٦٩ هـ.

تقدمت السفن الفرنسية الى البوسفور مقتربة من البحر الاسود. وفي الوقت نفسه أرسل الفرنسيون سفيراً فوق العادة الى الآستانة لدرس احوال القتال. وأبحر الادميرال الروسي (نشيموف) حالاً باتجاه الجنوب ليهاجم القاعدة البحرية العثمانية «سينوب»[1] ففاجأت السفن العثمانية هناك. واطلقت العديد من السفن الحربية الروسية المجهزة ببنادق فرنسية الصنع قذائفها السريعة. عند ذلك أصيبت السفن العثمانية وبدأت بالتحول الى صف متوهج اثناء غرقها. والجدير بالذكر ان الروس كانوا قد تعهدوا لفرنسا وانكلترا بعدم الاعتداء في البحر الاسود اذا ما دخلت قواتهما البوسفور. وانتشرت اخبار هذه المعركة التي عرفت باسم (مذبحة سينوب) في العالم. وطغت موجة من الخوف في لندن وباريس في الوقت الذي اقترن ذلك بالرفض الروسي الإنسحاب من مولدافيا وفالاشيا. عند ذلك بادرت انكلترا سريعاً للانضمام إلى فرنسا وإشعال الحرب ضد الروس بغية اضعاف قوتهم العسكرية في أوروبا. ودخل الحلفاء مياه البحر الأسود. وارسل نابليون الثالث إلى الامبرطور الروسي شارحاً له المسألة من حيث الأساس ومبيناً له المماطلات الروسية والغدر

(١) سينوب: بلدة تركية على الساحل الجنوبي من البحر الأسود. تقع على رأس شمالي غرب سمسون.

والخيانة. وعارضاً عقد مؤتمر للصلح شريطة انسحاب الروس من الأفلاق والبغدان ومتعهداً بسحب السفن الفرنسية والإنكليزية من البحر الأسود. ولكن القيصر رفض. أما النمسا وبروسيا فقد طلب منهما الامبراطور الروسي الوقوف على الحياد ولكنه لم يوفق. ثم وُقِّع اتفاق الآستانة بين فرنسا وانكلترا والدولة العثمانية. ومما جاء فيه أن يرسل الفرنسيون ٥٠ ألف جندي والإنكليز ٢٥ ألف جندي شريطة جلائهما عن أراضي الدولة العثمانية بعد خمسة أسابيع من انقضاء عقد الصلح مع الروس.

ثم اتفقت انكلترا وفرنسا على حفظ املاك الدولة العثمانية والحيلولة دون تمكن الروس من بعض أجزائها. ونزلت الجيوش المتحالفة في نيسان ومارس من عام ١٢٧٠ هـ في غاليبولي والآستانة. وكان القتال شديداً في البحر الأسود قبل ذلك بقليل عندما أطلقت المدافع الروسية من قلاعها في «أوديسا»[١] حممها على سفينة انكليزية تحمل العلم الأبيض، فبدات بعد مهلة قدرها ٢٤ ساعة بقذف القنابل الانكليزية والفرنسية على المدينة، وذلك في صباح ٢٤ رجب ١٢٧٠ هـ الموافق ٢٢ نيسان ١٨٥٤ م فأحرقت جزءاً منها وانسحبت إلى أمام مدينة سيباستيبول. ثم ضربت الثغور الروسية على البحر الأسود. وأعلن الامبراطور الروسي الحرب على الحلفاء في ١٣ رجب الموافق ١١ نيسان».

وبعد أن عبر الروس نهر الدانوب حاصروا سلستريا لمدة خمسة عشر يوماً وبجيش قوامه ٦٠ ألف مقاتل ولكن دون جدوى. الأمر الذي أبهر الفرنسيين والانكليز من جراء تلك الشجاعة العثمانية. ولم يكن بداخل الحصن سوى ٥ آلاف جندي عثماني فقط. وارتفعت المعنويات وزحف الجيش العثماني الى مدينة

---

(١) أوديسا: بلدة تقع على الساحل الشمالي الغربي من البحر الأسود. ضمن أراضي الاتحاد السوفييتي اليوم.

(قارنه) المحاصرة وحينها هرب المارشال الروسي وفك الحصار عنها فلاحقه عمر باشا وعبر الدانوب بعد أن هزم مؤخرته عند مدينة (جيورجيو) وعند ذلك تقدمت الجيوش النمساوية واحتلت الافلاق والبغدان مانعة عمر باشا من اتمام تحريرها ومتابعة الروس.

والجدير بالذكر أن هدف النمسا كان في منع امتداد السيطرة الروسية من جهات الدانوب كي يكون لها نوعاً من السيادة على البلاد الواقعة على ضفافه فهي لا تود مساعدة الروس ولا ترغب في مساعدة الدول الغربية.

وفي ١٤ حزيران اتفقت الدولة العثمانية وفرنسا وانكلترا والنمسا على أن تحتل الجيوش النمساوية أراضي الولايتين عند إخلاء الروس لهما وعلى عقد تحالف ضد الروس معهم إذا ما اجتازوا جبال البلقان.

ولم يود الروس إغضاب النمسا فلم يعترضوا لأنهم يفضلونها على الأتراك العثمانيين. ثم تقرر نقل الحرب الى داخل الأراضي الروسية. وانتشرت الكوليرا بين جموعهم وقرروا إرسال الجيوش الى القرم ومحاصرة سيباستيبول[١].

الحرب في القرم: وفتش الحلفاء السواحل القرمية بغية اكتشاف نقطة الضعف. وطافت سفنهم للتفتيش في (كرونستاد) وهاجمت قلعة (بورمارسند سيثويبورغ) وقصفت الساحل الفنلندي. وحاول الحلفاء الضغط أيضاً على حامية (بطرسبورغ) كي تستسلم كما بعثوا بالمساعدات لحركة المقاومة في القوقاز.

وقد تبين أن الفرص لم تكن مواتية أمام الحلفاء في تحقيق النصر إلا في جبهة القرم فقط، إذ تقدمت القوات الإنكليزية والفرنسية براً على الساحل الروسي في محاولة لمحاصرة سيباستيبول. وهزم الجنرال الروسي منشيكوف في

---

(٢) سيباستيبول: تقع جنوب شبه جزيرة القرم وعلى ساحل البحر الأسود.

معركة (ألما) ولكن الجيوش المتحالفة لم تتعقب الروس مباشرة . ويقول الخبراء العسكريون أنهم لو فعلوا ذلك لدخلوا المدينة دون عناء يذكر . ولكنهم التفوا شيئاً فشيئاً حول القاعدة الضخمة هناك . واقتربت أساطيلهم من مرساة السفن الحربية الروسية . وأمر (منشيكوف) (كورينلوف) نائب الأدميرال بأن ينزل البنادق من نصف الأسطول وأن يغرق السفن البطيئة في مدخل الميناء . ثم اتحدت السفن المتبقية مع بطاريات السواحل الروسية وأحرقت السفن الحليفة المقتربة . ، ونفذت الخطة سريعاً وحتى قبل أن تشتعل السفن البريطانية ذات الجدران الخشبية . عند ذلك رأى الحلفاء أن لا بد لهم إذا ما أرادوا الاستيلاء على الميناء ، من زج فرقة مدربة جيداً كي تقوم بانقضاض مفاجىء . ولكن الروس بادروا بالهجوم وتقدموا على البريطانيين في (بالاكلافا) وأجبر لواء روسي ثقيل البريطانيين على التراجع . ودبت الفوضى بين الضباط البريطانيين وانقض اللواء الثقيل في ٢٥ تشرين أول ١٢٧٠ هـ ولمدة عشرين دقيقة وحدثت مذبحة ، فلم يبق حي من بين ٦٠٠ مقاتل سوى ١٩٥ فقط .

وبعد عشرة أيام أخرى حاول الروس الهجوم في مرتفعات انكرمان ولكنهم منوا بهزيمة منكرة ثم تقهقر الحلفاء بعد ذلك . وهاجم الروس الجيش الانكليزي على مرتفعات انكرمان وقام العثمانيون بنجدة الانكليز والفرنسيين ، الأمر الذي أدى الى تقهقر الروس . ثم أوقف القتال لشدة البرد ولانتشار الأوبئة وتحولت الحرب الى حصار مرير لسيباستيبول .

ثم بدأ الحلفاء في أوائل صيف عام ١٢٧١ هـ حملة لمدة ثلاثة شهور في محاولة لاحتلال حصون ريدان ـ ملكوف . ثم سقطت قلعة سيباستبول الشهيرة بقمتها الخضراء وسلم الروس المدينة وانسحبوا دون أن يستسلموا . وقد تم ذلك بأن بدأ إطلاق المدافع على حصن ملاكوف حتى ظهر ٢٥ ذي الحجة وعندها احتل الجنرال الفرنسي (ماكماهون) القلعة وتقدم الانكليز فاحتلوا قلعة ريدان

ولكنهم لم يتمكنوا من الصمود فيها لغزارة القذائف الروسية المنصبة فوقها . وقام الروس في اليوم نفسه بإخلاء سيباستبول بعد حرقها . واحتلتها جيوش الحلفاء . ثم جرى احتلال مدينة (قلبرون) وهدم الروس قلاع (أوتشاكوف) وأخلوها وانسحبوا إلى الداخل . وأصبح احتلال كييف وشيك الوقوع لولا حلول فصل الشتاء القارس .

واشتبك الروس والحلفاء بحرياً في البلطيك كما احتلت الجيوش الحليفة ميناءً في الباسيفيك ولم يتمكن الروس من احتلال قارص في حدود آسيا الصغرى ودخلت القضية دور التفاوض السياسي ، بعد أن طلب الروس ذلك .

الحرب في القفقاس وجهاد الشيخ شامل :

بعد هزيمة الباب العالي في قفقاسيا ، اتفق قادة تلك البلاد على التحالف معاً للعمل ضد سيطرة النظام القيصري الدخيل . الأمر الذي جعل الروس يلاقون أقصى الصعوبات لفرض سيطرتهم عليها . وجهاد المسلمين القفقاس في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي وحتى بسط السيطرة الروسية الكاملة على بلادهم يعدّ من أعظم المفاخر التي سطرها تاريخ المسلمين . ففي تلك البلاد جعل الروس ضباطهم مستشارين عند الأمراء القوقازيين بعد فرض سيطرتهم هناك . واستسلم الأمراء مرغمين للسيادة القيصرية . عند ذلك ثار الشعب ضد أمرائه والروس معاً . وتولى كبار العلماء ومشايخ الطريقة النقشبندية زمام الأمور . وتبنت الحركة الإسلامية شعار التحرر من ربقة السيطرة الروسية من جهة وشعار الإصلاح الاجتماعي والعودة الى الأصول الإسلامية السليمة واستبعاد ما علق بها من الأدران الجاهلية الدخيلة . وقاد الزعيم القاضي ذو الجناحين غازي محمد الكمراوي ـ نسبة الى بلدة كمرة ـ وهو من قبيلة (أوار) القفقاسية ومن المتعمقين في العلوم العربية والدينية ـ نضالاً مريراً خلال ستة

الروسي والكونت (دي بوول) النمساوي والوزير (عالي باشا) العثماني . وعلى أمل تحقيق نصر في سيباسيتبول قام الروس بالمماطلة والمخادعة ولكن خاب ظنهم ، وسقطت المدينة في ٢٥ ذي الحجة عام ١٢٧١ هـ الموافق ٩ أيلول ١٨٥٥ م وتألبت باقي الدول ضدهم وخاصة السويد ، الأمر الذي أدى بهم الى سلوك طريق السلم .

وأخطرت روسيا الإخطار النهائي بقبول طلبات الدول ، وإلا يستأنف القتال وتنضم النمسا والسويد والنرويج الى صف الحلفاء .

قبل الروس بذلك ، واتفق على عقد مؤتمر باريس للسلم . وعقد المؤتمر في ١١ جمادى الثانية الموافق ٢٥ شباط . والجدير بالذكر أن هذا المؤتمر هو الذي أوصل نابليون الى ذروة المجد والقوة ، كما أنه حفظ للدولة العثمانية بلادها من شر الأطماع الروسية . وأهم البنود التي جاءت في نصوص المعاهدة هي :

- تعهد الجميع بحفظ استقلال الدولة العثمانية الاسلامية .
- المصالحة بين الفريقين المتحاربين وإخلاء ما احتل من أراضي كل فريق .
- إعادة المواقع العثمانية التي احتلها الروس وإعادة ما احتله العثمانيون للروس .
- إعلان العفو العام وإعادة الأسرى .
- اعتراف الأوروبيين باشتراك الباب العالي معهم في الاستفادة من المنافع الأوروبية واحترام استقلاله والمحافظة على ذلك .
- تعهد الدول المتعاهدة بالتوسط لمنع نشوب حرب بين الباب العالي العثماني والدول الأخرى .
- اصدار منشور عثماني لصالح النصارى القاطنين في البلاد العثمانية .
- إعادة النظر بالاتفاقيات السابقة الخاصة بالمضائق .

- تعديل الحدود الروسية في بسارابيا .
- إلحاق الأراضي التي يتخلى عنها الروس في الأفلاق بالسيادة العثمانية .
- استمرار امتيازات الأفلاق والبغدان تحت السيادة العثمانية وحفظ الادارة الأهلية لهما . والمحافظة على حرية التدين والتقاضي والتجارة والملاحة المائية ، وانشاء ديوانين فيهما لصالح الأهلين حيث ترفع مقرراتهما لمجلس يناقشها . كما يجعل تنظيم الولايتين بعد الآن تحت كفالة الدولة المتعاهدة . وتأمين قوة مسلحة أهلية لحفظ الأمن فيهما .

كما حالت المعاهدة دون تمكين الدولة العثمانية من التدخل العسكري فيهما حين حدوث اخلال بالأمن ولم تحقق لها ذلك إلا بموافقة الدول . أما إقليم الصرب فنصت المعاهدة على أنه يتبع الباب العالي ، ولكن بكفالة الدول ، وأن

حياد البحر الأسود وحرية التجارة فيه ، ومنع إقامة الترسانات البحرية هنا ، وتحديد عدد السفن العثمانية والروسية الخفيفة الراسية فيه .

حرية الملاحة في الدانوب حق للجميع ضمن قواعد محددة . والتعاون لجعل مصباته صالحة للملاحة . وتشكيل لجنة خاصة لتنظيم الملاحة وإزالة العوائق واجراء الأعمال اللازمة لذلك والمحافظة على سلامة السفن وتيسير سفرها في فوهات النهر .

لأهله حرية الت[illegible] والتجارة والسفر البحري وتشكيل حكومة أهلية . أما التدخل في هذه البلاد فهو حسب منشور التنظيمات الخيرية .

أما البلاد الروسية والعثمانية في آسيا فتبقى كما كانت قبل ابتداء الحرب .

وأما الأراضي المحتلة من قبل فرنسا والنمسا وبريطانيا وسردينيا أثناء الحرب فتخلى وتحفظ التجارة الخارجية بين الدول كما كانت قبل الحرب .

ووضع ملحق ينص على أن شروط المعاهدة المتعلقة بالمضائق لا تسري على

السفن الحربية التي تعمل لصالح الدول المتحاربة .

ويلاحظ أخيراً أن القصد من الحرب كان اضعاف روسيا والدولة العثمانية معاً . وابقاء الدولة العثمانية حاجزاً بين روسيا والبحر الأبيض المتوسط . وقد استبقيت المشكلات في الصرب والجبل الأسود عمداً وذلك تمهيداً لفصلها في المستقبل عن جسم الدولة العثمانية لتكون حاجزاً بينها وبين أوروبا .

العلاقات العثمانية البلقانية بعد حرب القرم :

الجبل الأسود : كانت الدولة العثمانية قد أرسلت كما ذكرنا سابقاً القائد عمر باشا للقضاء على ثورة المتمرد (دانيلو) حاكم الجبل الأسود في عام ١٢٦٩ هـ .فحقق نصراً حاسماً على فلول العصاة ، وما إن رأى الروس ذلك حتى بادروا للتوسط واشترك معهم النمساويون الأمر الذي حال دون احتلاله كامل الجبل .

وطلب دانيلو بعد مؤتمر باريس استقلال بلاده والإعتراف به . ولكن الدول الأوروبية لم تعره أذناً صاغية بل نصح بالإنقياد للدولة العثمانية مقابل إعطائه قسماً من بلاد الهرسك مع منحه رتبة مشير وتقاضيه مرتباً مالياً ضخماً ، وقبل عروض الدول .

وفي عام ١٨٥٨ حدثت معارك بين الدولة العثمانية وسكان الجبل الأسود فسارعت أوروبا للتدخل وقامت بتخطيط جديد للحدود بين الطرفين .

وفي عام ١٢٧٧ هـ الموافق عام ١٨٦٠ م قُتل الأمير دانيلو فتولى ابن أخيه المدعو (نيقولا) منصبه وما لبث أن استسلم للباب العالي إثر الحركات التي حصلت في بلاد الهرسك وتأييد وتدخل الجبل إلى جانبها ، وبعد أن سحقها عمر باشا وحاصر الجبل من عدة جهات . وفرضت الدولة العثمانية شروطها ومن ضمنها بناء القلاع والحصون في عقد المواصلات والمناطق الحيوية من بلاد

الجبل . ولكن الفرنسيين والروس تقدموا إلى الباب العالي ببعض المطالب إثر ذلك مما أدى الى تنازل الباب العالي مؤقتاً عن بعض شروطه مقابل بعض التعهدات . ثم هدأت الحالة في بلاد الهرسك .

أما بلاد الصرب فبمقتضى معاهدة باريس كانت قد حصلت على استقلال تحت السيادة العثمانية وبموجب الاتفاق المبرم بهذا الشأن كان للدولة العثمانية الحق في وضع حامية في ست قلاع هناك منها قلعة بلغراد ، كما أنه اقتصر إسكان المسلمين في تلك الحصون فقط . ولكن هذا لم يطبق فعلاً وأقام الكثير منهم في مناطق إقامة النصارى ، وعملت الدولة على حمايتهم . وخشي الباب العالي بعد حرب الجبل الأسود والهرسك السابقة الذكر تأييد ودعم الصربيين لهم واستنفر بعض قواته ، الأمر الذي أدى إلى اشتباكات بين الدولة والأهلين هناك . وحدثت اضطرابات ، واحتمى المسلمون المهددون في قلعة بلغراد مع نسائهم وأطفالهم . وقصفت القلعة فتدخلت الدول وهدأ القتال واقتصر سكنى المسلمين على داخل القلعة فقط . ثم عقد مؤتمر للدول الموقعة على معاهدة باريس في مدينة الآستانة ، بناء على إلحاح فرنسي روسي . وقرر المؤتمرون بالأغلبية إخلاء قلعتين من الجنود العثمانية واقتصارهم على أربع منها فقط بضمنها قلعة بلغراد . كما تقرر عدم تدخل القادة العثمانيين في الشؤون الداخلية الصربية ، وأرغم المسلمون القاطنون خارج القلاع على بيع ممتلكاتهم والنزوح عن البلاد أو الإقامة في الحصون ، وأبلغ نص الإتفاق للصرب مما يدل على مدى الحقد والكراهية التي خبأها أولئك الذين كانت لهم الدولة العثمانية خير مدافع وتسامحت عن الكثير من غلوائهم وتعصبهم ضد المسلمين .

ولم يلبث الصربيون وحكومتهم أن رفضوا فيما بعد تنفيذ الاتفاق المبرم والخاص بالقلاع وطالبوا بالجلاء العثماني عن كامل بلادهم ، ولكن الباب العالي رفض مطاليبهم وهددهم بالحرب . وفي ذلك الحين نشبت ثورة في كريت شغلت

الدولة العثمانية عن مشكلات صربيا مما أدى بها إلى التنازل لهم وقبلت بسحب جيشها وذلك في شهر ذي القعدة عام ١٢٨٣ هـ الموافق آذار عام ١٨٦٧ م فاستقلت تلك البلاد ولكن دون الحصول على لقب (ملك) لحاكمها.

الأفلاق والبغدان: تساهل الباب العالي مع هاتين الولايتين بشأن انتخاب الأمير (كوزا)[١] خلافاً لنصوص معاهدة باريس على أمل عودة الأمور الى نصابها. وتبع ذلك صدور مرسوم يتيح له توحيد إدارتي الولايتين. ولكن تجاوز الصلاحيات التي أعطيت له فضم الأوقاف إلى إدارته، الأمر الذي أدى إلى معارضة الباب العالي وتدخل الدول. فعرض دفع تعويض وصادر الأوقاف وسلب سلطة بطريرك الآستانة والتي يمارسها على الشؤون الدينية في رومانيا.

ثم قام تباعاً بتزوير وتبديل القوانين وفرض الظلم فأجبر على الإستقالة واجتمع مندوبو الدول الأوروبية في باريس للنظر في انتخاب بدل عنه. وأجمع المؤتمرون عدا روسيا على توحيد حكومة الولايتين شريطة أن لا يكون الأخير أجنبياً بدل من أشراف تلك البلاد. وعارض الأهلون القرارات وقاموا بانتخاب الأمير (شارل دي هوهنزولرن) وهو من أسرة ملكية بروسية وأعطي لقب ملك.

ويلاحظ هنا أن روسيا لم تحضر المؤتمر وكانت تسعى لعدم توحيد الإمارتين عكس ما طلبته الدول. والسبب في تكريسها التجزئة كي لا يكون في طريقها حاجزاً حصيناً قوياً يعرقل تقدمها نحو الآستانة، وخاصة إذا علمنا أن سكان رومانيا ليسوا من العنصر السلافي الروسي ويصعب استمالتهم. كما يلاحظ أن الأوروبيين لجأوا الى صنع حاجز آخر هو إمارة البلغار بينهم وبين روسيا.

---

(١) كوزا: سياسي روحاني ولد عام ١٢٣٥ هـ. ووصل الى رتبة عقيد في جيش البغدان ثم انتخب أميراً عليها. أخيراً أكره على الإستقالة عام ١٢٨٢ هـ.

واضطر العثمانيون هنا أيضاً كما في حالة الصرب وتحت ضغط من ثورة كريت للعدول عن إعادة سيطرتهم على الولايتين بعد أن كانوا قد جهزوا جيشاً لغزوها. واعترفوا بانتخاب الأمير (هوهنزولرن)، وفي ذلك حكمة فقد كان غير مخلص للروس ولا متفق معهم في الجنس والمذهب. كما أن الكيان الجديد الذي اصطنعه الروس هنا كان مفيداً للدولة العثمانية أيضاً فهو يعيق إلى حد ما تقدمهم نحو بلادها وقت الحرب. ثم طلبت روسيا دولياً إبطال شروط البحر الأسود الخاصة بها والواردة في معاهدة باريس عقب حرب القرم نظراً لقيامها بدعم ألمانيا معنوياً إثر هزيمة فرنسا في حربها مع الروس عام ١٢٨٦ هـ وبعد تشكل الأمبراطورية الألمانية.

وعقد مؤتمر في لندن وأيدت مطاليبها باتفاق دولي جرى في السنة اللاحقة وقبل توقيع فرنسا على معاهدة فرانكفورت بقليل. وبذلك فقد انتقم الروس من فرنسا لمساعدتها العثمانيين والانكليز أثناء حرب القرم. وألغوا أهم بنود معاهدة باريس الماسة بكرامتهم وكان التعديل كما يلي:

١ - يبقى منع السفن الحربية من المرور في جناق قلعه والبوغاز كما هو منصوص في معاهدة ٣٠ آذار ١٨٥٦ م. إلا أنه يسوغ للحضرة السلطانية أن تأذن بمرور السفن الحربية للدول المتحاربة إذا رأت لزوم مرورها مع المحافظة على نصوص معاهدة باريس التي انعقدت في ٣٠ آذار ١٨٥٦.

٢ - البحر الأسود يبقى مفتوحاً كما في السابق لتسير فيه السفن التجارية الأجنبية.

الحرب الروسية التركية:

لم يهدأ التآمر الأوروبي عن البلاد العثمانية أبداً، فالأعداء الآن يقومون بتحريض سكان الهرسك على التمرد. ولكن التصدي العثماني كان قوياً هذه

المرة. وقضي على الثورة، بعد مدة أظهر الباب العالي أثناءها بعض اللين ودعا إلى التفاهم، ووعد بتحقيق مطالبهم. ولكنهم يريدون الاستقلال التام بدافع من الأجنبي.

وسعياً وراء مصالحها قامت النمسا وبزعامة وزيرها الأول الكونت (آندراسي) بالايعاز للألمان والروس بغية الاشتراك في تقديم بيان مشترك سياسي موجه إلى الباب العالي بقصد دعم الثائرين، فإشعال الثورة يمكنها من التدخل عسكرياً. وتضمن البيان الرغبة في تشكيل اتحاد من أهل الهرسك نصفه من النصارى والآخر من المسلمين لمراقبة تنفيذ الفرمان السلطاني الخاص بتحقيق بعض مطالبهم، وبدلاً من تقديم البيان إلى الباب العالي قُدِّم إلى انكلترا وفرنسا، ومع ذلك فقد وافق السلطان عليه وأصدر العفو العام فرفضه الأهلون وأصروا على مطاليبهم.

وبعد حادثة سالونيك[1] اضطربت الدول الأوروبية وقررت التآمر من جديد. واجتمع مندوبو روسيا والنمسا مع الأمير دي (بسمارك)[2] في برلين

---

(١) حادثة سالونيك: ملخصها أن فتاة بلغارية أعلنت إسلامها فاحتجزها بعض النصارى وهي في طريقها الى دار الحكومة في سالونيك. الأمر الذي أدى الى نقمة المسلمين وغضبهم وبالتالي تدخل القنصل الفرنسي والألماني واعتدائهما على أحد المساجد فخسرا حياتهما نتيجة لذلك على أيدي الجموع الثائرة من المسلمين.

(٢) بسمارك ولد في نيسان عام ١٢٣٠ هـ في مدينة (شون هاوزن - براندنبورغ) الواقعة اليوم في أراضي المانيا الشرقية. وهو مؤسس امبراطورية ألمانيا ومستشارها الأول. والمسؤول والمخطط الأول عن توطيد السلم في أوروبا لمدة ٢٦ عاماً. وبعد مؤتمر برلين عام ١٢٩٤ هـ.
دخل في خدمة بروسيا بعد دراسة القانون. ثم أصبح إدارياً وقضائياً في مدينة آخن. اكتسب في عام ١٢٧٢ هـ شهرة حينما اختير لتمثيل بروسيا في المجلس التشريعي الفدرالي. ثم أرسل كسفير الى روسيا ثم فرنسا. ثم رجع الى برلين ليصبح رئيساً للوزراء فهزم النمسا وأبعدها عن ألمانيا. وهو الذي ورط بلده في الحرب الألمانية الفرنسية عام ١٢٨٦ - ١٢٨٧ هـ والتي انتهت بنجاح بروسيا وتحقيق الوحدة الألمانية. ثم أصبح بطلاً وترأس مؤتمر برلين ←

وحرروا لائحة عرفت باسم لائحة برلين. وصادقت عليها ايطاليا وفرنسا. وهي تنص على ممارسة ضغط على الباب العالي كي ينفذ الفرمان السلطاني المؤرخ في عام ١٢٩١ هـ وإجراء المراقبة الدولية على تطبيقه. وإصلاح أحوال النصارى في الولايات البلقانية، وإبرام هدنة مع الثوار. ولوح المؤتمرون المتآمرون باستعمال القوة، فرفض الباب العالي مطاليبهم ولائحتهم.

التحريض الروسي السلافي في البلقان:

كان الجنرال الروسي (أغناتيف) من أكبر رؤساء الجمعيات التي شكلها الأعيان الروس لنشر نفوذ بلادهم بين الطوائف السلافية. وبدعم من السلطات الروسية القيصرية قامت جمعيته بإثارة الاضطرابات في بلاد البوسنة والهرسك كما ذكر سابقاً. وشكلت فروعاً عديدة لها في بلاد البلغار. ومولت أنصارها بالسلاح والمال سراً. كما أمدت النصارى بصورة عامة. وكان مركز ڤيينا وغيره من أكبر المراكز التي كانت تصدّر منه الأسلحة، وغيرها عن طريق رومانيا.

ونتيجة للتحريض والتآمر المستمرين طالب البلغاريون بالاستقلال. وبتأثير من قوى التمرد والخيانة عُبىء الرأي العام ضد الشراكسة المستوطنين في تلك البلاد والهاربين من طغيان القيصر الروسي وإرهابه.

وفي خريف عام ١٢٩١ هـ حصلت بعض الحركات العصيانية فقضي عليها بسرعة. ثم توافدت أعداد ضخمة من دعاة الثورة، وعقدت اجتماعاً داخل بلغاريا وفي إحدى مدنها بالذات. وحضر الاجتماع مندوبون من ڤيينا وبخارست وقرروا إعلان العصيان. ولوحوا لأنصارهم بتقديم المساعدات الروسية

→ وتوسط بين القوى الأوروبية. أجبر على الإستقالة بعد ارتقاء ولهلم الثاني العرش وتوفي عام ١٣١٥ هـ.

وأفهموهم بضرورة قتل المسلمين وحرق مدينتي أدرنه وفيليبه.

وبدأ التدمير في مارس عام ١٨٧٦ م الموافق ١٢٩٢ هـ. وحصلت المذابح الهائلة وسفكت دماء المسلمين العزل من السلاح واتسع نطاق الثورة. والواضح أن المقصود إفناء المسلمين عن بكرة أبيهم وتصفيتهم جسدياً عن آخرهم، بدافع الحقد والتعصب والكراهية التاريخية التي لم تزل هي العامل الهام في مجريات الأحداث السياسية والعسكرية بين أبناء الصليبيين الذين لا يزالون يحتفظون في ساحة اللاشعور بركامات تؤجج نارها بين الحين والآخر، وبين ذراري المسلمين التي ضعفت على الجبهة المادية والمعنوية وإن كان الإيهام يبدو بتلويح رايات ملفقة براقة من شدة التمويه.

ولكن المسلمين لم يستكينوا.. وتنبه الوالي وأعاد تنظيمهم، ووزعت الأسلحة عليهم. ثم وصل الإمداد من إستانبول فقمعت الثورة وأخمد التمرد وقضي على دعاته.

لجأ الخونة إلى أوروبا وأشاعوا في ربوعها عن ارتكاب العثمانيين للفظائع كما هي عادتهم في قلب الحقائق. وأسدلوا ستاراً من الظلام على ما ارتكبوه ضد المسلمين. وهولوا وضخموا الأمور. فهاجت بعض دولهم وماجت. وتعالت صيحات أحزابهم ونوابهم في حنق وحقد على الإسلام والمسلمين. وثارت ثائرة البريطاني غلادستون زعيم حزب الأحرار، وتناسى ما تقوم به حكومة بلاده ضد المسلمين في العالم آنذاك. وتعالت استنكارات الرأي العام الأوروبي. وطلب السفير البريطاني في استانبول مقابلة الخليفة السلطان عبد الحميد الثاني[1] حاملاً إليه المطالب المنددة والاحتجاجات على شكل كتاب أزرق بريطاني.

(١) السلطان عبد الحميد الثاني: أعظم السلاطين العثمانيين في العهود الأخيرة العثمانية. ولد عام ←

وليت شعري ماذا كانوا سيفعلون لو حدثت عندهم ثورة داخلية؟ وهل سيقذفون عناصرها بالورود والرياحين أم بالقنابل المدمرة؟ وهل تعامى البريطانيون انئذ عما تفعله الدول الأخرى مثل روسيا وفرنسا وغيرها في مثل هذه المواقف وعن ما فعلوه هم في ايرلندا؟.

وعندما علم الروس بفشل مخططاتهم أوعزوا إلى أميري الجبل الأسود والصرب كي يعلنا الحرب ضد الدولة العثمانية وعندئذٍ يتدخلون ويحصلوا على الموافقة الدولية كي يحيقوا بها الهزيمة. فحينها كان قصد النمسا محاولة التوسع في جهات البوسنة والهرسك، وبالتالي الاقتراب من الآستانة لا حباً في الدولة العثمانية بل خوفاً من احتلال الروس لها.

وأوعز الروس للصرب والجبل الأسود بالاستعداد للحرب وشراء الأسلحة والتدريب. وقام الجنرال الروسي (تشرناييف) الذي ارتكب المجازر ضد جموع المسلمين في طشقند بقيادة الصرب هذه المرة وضد المسلمين أيضاً.

عند ذلك عبأت الدولة العثمانية جيشاً قوامه ٤٠ ألف مقاتل في مدينة نيش[1] لصد العدوان وبلغت الاستعدادات أقصى مراحلها. وطلب (ميلان) أمير الصرب تخويله إخماد الثورة، بينما طلب (نيقولا) أمير الجبل الأسود من

→ ١٢٥٩ هـ. وتوج عام ١٢٩٣ هـ بعد عزل أخيه السلطان مراد الخامس وهو ابن السلطان عبد المجيد. تسلم الحكم والبلاد العثمانية تجابه المخاطر الجسيمة وقد تربص الأعداء بها من كافة الجوانب وهددها الافلاس التام. جابه المصاعب وذلل الكثير منها وأخذ القروض وسدد الكثير من الديون من الواردات. كان العدو الكبير لليهود والصهيونية العالمية. والمسؤول الأول الذي وقف في وجه أطماعهم الاستيطانية في فلسطين. تآمرت عليه الماسونية العالمية والصليبية والصهيونية مستخدمة عملاء من جمعية الاتحاد والترقي وخلعته عن الحكم عام ١٣٢٧ هـ. امتاز بالجرأة والتدين وقوة الأعصاب والحنكة السياسية.

(١) نيش: مدينة تقع اليوم في شرقي يوغوسلافيا قرب الحدود البلغارية.

الدولة أن تتنازل له عن قسم من بلاد الهرسك ورفضت تلك الطلبات. عند ذلك اجتازت الجيوش الصربية الحدود بقيادة (تشرناييف) الروسي في صيف عام ١٨٧٦ م كما تقدمت قوات الجبل الأسود، والدول الأوروبية تطبق الصمت التام وهي تراقب تقدمهم. حتى إذا ما أحرزوا بعض الانتصارات قامت لتعضيد مطالبهم أما إذا ما خسروا فإنها تمنع الدولة العثمانية من معاقبتهم. وقصة صمت الأعداء أمام محن المسلمين كانت ولا تزال تدعو للريبة والشك.

سير المعارك:

الحرب مع الجبل الأسود: وهنا لم يحصل سوى بعض المناوشات دون المعارك الهامة نظراً للوعورة وصعوبة الحركة. ولم يجن الصربيون فائدة تذكر من أهالي الجبل آنذاك.

الحرب مع الصرب:

أجمع المؤرخون العسكريون على ارتكاب (تشرناييف) الأخطاء الفادحة لعدم تجميعه قواته في نقطة اتصال البوسنة والهرسك بباقي البلاد العثمانية، حيث يمكنه الاتحاد مع الثائرين في هاتين الولايتين، ومن ثم الالتحام مع قوات الجبل الأسود. وبدلاً من ذلك فإنه قسّم جيشه إلى أربع فرق: وسلك قسم منها محور صوفيا واشتبك مع الجنود العثمانية. وحدثت الاستبسالات المنقطعة النظير في جانب العثمانيين، فخاب مسعاه وفشلت فرقه الأربع ودوّت شهرة القائدين العثمانيين (عثمان باشا)[2] و(عبد الكريم باشا).

(٢) عثمان باشا: ولد عام ١٢٤٧ هـ في توقات بتركيا اليوم وتوفي عام ١٣١٨ هـ. وقد دخل الأكاديمية العسكرية في استانبول وتخرج منها ودخل سلاح الفرسان، ثم اشترك في حرب القرم. وبعد ذلك كان له دور هام أثناء حوادث عام ١٨٦٠ م التي جرت في لبنان. ثم في حوادث كريت التي جرت بعد سنوات قليلة. كما أخمد الثورة التي نشبت في اليمن عام

واندحرت جيوش الثائرين. وصمم عبد الكريم باشا على احتلال بلغراد. وقطع اتصال فرقتين روسيتين عن بعضهما. وفتحت المدينة المسماة (نياشيواز) وتوقفت الحرب.

ثم استؤنف القتال بعد حوالي الأسبوعين ولمدة أربعة أيام فقط. وفشل العثمانيون في فتح (الكسنيناس). وعدلوا عنها والتفتوا إلى ضفة نهر (موراوا)[1] اليسرى ليتجهوا نحو بلغراد. وأثناء ذلك استمرت المناوشات مع الجيش الصربي لأيام قليلة. ولم يشعر العدو بالخطر إلا عندما اجتازت جميع الجيوش العثمانية نهر (موراوا). حيث عبرت قواته النهر. ولم تلبث أن وقعت معركة بين الفريقين لاذ أثناءها الكثير من جنوده بالفرار من ساحة الوغى.

واقترب الجنود العثمانيون من بلغراد. وصدرت في حينه الأوامر السرية من الآستانة بوقف القتال نظراً لحصول الضغوط الدولية إثر استنجاد الأمير (ميلان) بالدول. ومع ذلك فلم يستجاب لطلب الدول إلا بعد إحراز نصر، وعندها طلب وقف القتال.

لم يقبل الباب العالي إقرار الصلح. وأبلغ سفراء الدول بشروطه لتحقيق السلم ومنها خضوع أمير الصرب للسلطة العثمانية التي طلبت أيضاً احتلال القلاع الأربع المارة الذكر سابقاً وللمرة الثانية، إضافة الى شروط أخرى،

١٢٨٨ هـ. وبعد النجاح الذي أحرزه على الجيش الصربي رقي الى رتبة مشير. وأثناء الحرب التركية الروسية أصبح بطلاً وطنياً نظراً لتصميمه العنيد ومقاومته وصموده الباسل في (بلغنه) حيث حصن نفسه هناك على الجناح الأيمن من خط الاتصال مع الروس. واحتفظ بوضعه حتى اضطر مجبراً على الإستسلام. وقد أعطي لقب غازي.

وبعد رجوعه من الأسر في روسيا، عين مارشالاً في قصر السلطان وعمل كوزير للحرب أربع مرات.

(١) نهر موراوا: يتشكل من التقاء نهرين ينبعان من جنوب صربيا ومكدونيا. ثم يسير باتجاه الشمال بصورة رئيسية مسافة قدرها حوالي ٢٢١ كم ليلتقي مع الدانوب.

أعوام ضد العدو. وأثناء الحصار وفي معركة غير متكافئة جرت في قرية (جميزي عام ١٢٤٨ هـ استشهد. فحمل راية الجهاد من بعده (حمزة بك بن علي اسكندر الخمزاخي) وبينما هو يصلي في قرية خمزاخ اغتاله أحد الخونة فسقط على الدرب بعد أن قاد لواء حركة الجهاد قرابة السنتين. وفي تلك الأثناء كان في جيش المجاهدين شاب جبلي يدعى الشيخ محمد شامل[1] استطاع النجاة من الأسر مع بعض أخوانه المجاهدين. وانتخب إماماً ثالثاً (قائداً) للداغستان. وسرعان ما رتب القوى المجاهدة وقادها في حملة ضد الروس في القوقاز. فأرسل العدو حملة ضده في الجبال. ولم يتمكن الروس رغم اختراقهم أراضيه والسيطرة على قلاعه من هزيمته.

وكانت أعظم المواقع التي خاضها ضدهم في عامي ١٢٥٩ - ١٢٦٠ هـ حيث فتح جميع الحصون وغنم ٣٥ مدفعاً وأعتدة حربية مختلفة ومؤن وذخائر كثيرة. كما أخذ العديد من الأسرى. وعن هذه الحرب التي كان لها أكبر الأثر، نظم الشعراء الروس القصائد في وصفها.

بقي شامل عشر سنوات يناوش العدو في الجهات الغربية من الجبال. وقرر

(١) ولد عام ١٢٠٢ هـ تقريباً في (جياري) الواقعة في بلاد داغستان الحديثة. قاد مسلمي الجبال الداغستان وبلاد الشيشين وقاوم الروس قرابة الثلث قرن. ينتمي نسبة الى قبائل (لزكي) الداغستانية الذين يتكلمون ويكتبون العربية. نشأ في قرية (أوار) ببلاد الكرج بالقفقاس ودرس النحو والشريعة الاسلامية والخطابة واللغة العربية. وبرزت أهميته كرجل متعلم على أيدي الملاّ الكمراوي. وفي عام ١٢٤٦ هـ انضمَّ الى المريدين الصوفيين والذين اشتبكوا مع الروس بقيادة غازي محمد في حرب مقدسة. وانتخب إماماً ثالثاً بعد مقتل غازي محمد على أيدي الروس عام ١٢٤٨ هـ المدعو حمزة بك وبعد اغتيال الأخير من قبل أتباعه عام ١٢٥٠ هـ. قاد نضال شعبه حوالي ٣٥ عاماً ضد العدو الروسي. نقل بعد استسلامه عام ١٢٧٥ هـ الى العاصمة القيصرية (سان بطرسبورغ) ثم نفي الى (كالوغا) على نهر أوكا جنوبي موسكو حيث عاش حتى عام ١٢٨٦ هـ. منح العفو العام من الامبراطور الروسي فتوجه إلى مكة المكرمة للحج واستقر في المدينة المنورة حيث كان ترابها الطاهر مثواه الأخير.

الروس عام ١٢٧٣ هـ إخضاعه، وخاصة وقد انتشرت شهرته وطارت في أرجاء أوروبا وأصبحت بطولاته رمزاً لشعبه. وبدأت قوات القيصر عملياتها من جميع الجهات. وأرسلت القوات بقيادة الجنرال (إفدوكيموف) والجنرال (بارياتنسكي)، الأمر الذي أدى الى استنزاف قوات الشيخ شامل شيئاً فشيئاً. ولم يسلم إلا في أيلول من عام ١٢٧٥ هـ حيث اعترف بعدم جدوى استمرار القتال ضد هؤلاء الغزاة المحاصرين له والمتفوقين عليه كماً وكيفاً ولم يسلم إلا بعد أن دمر الروس قلعة شامل في ڤيديو في نيسان من عام ١٢٧٥ هـ فانسحب هو وبضع مئات من رجاله إلى (غوينب) وأنهى المقاومة. وانتهت بهزيمة المقاومة لدى شعوب القوقاز.

عند ذلك أعاد الروس سلطة الأمراء كي يتمكنوا من التغلب على العلماء الذين كانوا أساس المقاومة. وكما هي العادة فإنهم سرعان ما خلعوا الأمراء ونصبوا أنفسهم وقد بقي الأمر كذلك حتى نشوب الحرب الروسية التركية كما سنتحدث عنها بعد قليل.

بقي أن نذكر أن الروس حشدوا في حرب القفقاس للتغلب على الشيخ شامل وقواته فقط حوالي ٤٠٠ ألف مقاتل. وقد قال أحد القواد الروس الذين قاتلوا هذا الإمام المجاهد وأسروه «لولا وقوف هذا الشعب - أي القفقاسين المقاتل في طريقنا لكنا وصلنا إلى النيل غرباً وإلى بحر اليابان شرقاً بفضل القوات التي خصصناها للحروب القفقاسية.».

التفاوض السياسي ومؤتمر باريس:

دخلت حرب القرم دور التفاوض السياسي بعد أن طلب الروس ذلك. وعقد مؤتمر ڤيينا في شهر شباط من عام ١٢٧١ هـ. وحضره اللورد (راسل) الانكليزي والمسيو (دروان دي لويس) الفرنسي والبرنس (غورتشاكوف)

ولكن الدول رفضت هذه الاقتراحات مدعية أنها مجحفة ، واقترحت شروطاً أخرى اضافية خاصة بالبوسنة والهرسك والبلغار ، فرفض الباب العالي وأوعز الى السرعسكر عبد الكريم باشا باستئناف القتال فانطلقت قواته إلى مقر (تشرنـاييـف) في مـديـنـة (جونيس) وتقهقر الصربيون وأنصارهم وتعقبهم العثمانيون في طريقهم إلى بلغراد .

وعلم الروس بأنباء الانتصار العثماني وطلبوا من الباب العالي وقف القتال فوراً ومهادنة الصرب والجبل الأسود لمدة أسابيع أو شهرين فتقبلها منعاً للعراقيل السياسية .

مؤتمر الآستانة :

وحينما عرض وزير الخارجية البريطاني عقد مؤتمر في مدينة الآستانة تحضره الدول الطامعة في البلاد العثمانية بدعوى النظر في شؤون النصارى ، والعمل لمنع نشوب الحرب بين العثمانيين والروس ، لم ترد الدول على مذكرة الوزير البريطاني ،وفي مدينة موسكو ألقى القيصر الروسي خطاباً آنذاك أثنى فيه على سكان الجبل الأسود والصرب . وبعد أن علم بفحوى المنشور الذي أصدره البرنس (غورشاكوف) وتبينت منه مدى التعبئة الروسية ضد الدولة العثمانية بحجة حماية النصارى ، انعقد المؤتمر بصورة تمهيدية في الآستانة ، ولم يسمحوا لمندوب الدولة العثمانية بالحضور فكان التحيز الواضح من قبلهم الى جانب الروس .

وقرر المؤتمرون تقسيم بلاد البلغار الى ولايتين وحرمان العثمانيين من حقوقهم فيها ، والمساومة معهم كي يتنازلوا للصرب والجبل الأسود عن بعض الأراضي ، وهددوا بقطع العلاقات مع الباب العالي في حالة الرفض .

ثم اجتمع المؤتمر بشكل رسمي بعد ذلك وحضر مندوب الدولة العثمانية

(صفوت باشا) ناظر الخارجية الذي انتخب رئيساً للمؤتمر ، وحضر مندوبون عن فرنسا وألمانيا وإيطاليا والمجر والنمسا وروسيا وانكلترا . وبعد عدة جلسات دعت الدولة العثمانية لاجتماع هام حضره عدد من البارزين والوجهاء في البلاد وعرضت عليهم المقترحات فرفضوها بما فيهم مندوبو الطوائف غير الإسلامية ، وأجمع الحاضرون على ضرورة الحرب وارفض الإجتماع .

وعندما عاد المؤتمر الدولي للانعقاد ، تلا عليهم صفوت باشا مقررات المجتمعين وأبلغهم استعداد بلاده قبول تشكيل مجالس انتخابية في البوسنة والهرسك والبلغار ، يكون انتخابها لمدة سنة واحدة فقط ، ونصف أعضائها من المسلمين والنصف الآخر من النصارى ، وأصر على رفض تشكيل اللجان المختلطة وإعطاء الصرب والجبل الأسود بعض الأراضي . ولكن المؤتمرين رفضوا وهدد بعضهم الدولة وانفض المؤتمر ليعقد مرة أخرى ،ولكن دون حضور المندوب العثماني هذه المرة فوقعوا وثيقة تآمرهم على الباب العالي .

ثم انتهى المؤتمر وسافر المندوبون دون مقابلة السلطان إيذاناً بقطع العلاقات . وظهر العداء الروسي العثماني بشكل سافر أثناء انعقاد المؤتمر . وتظاهر المجريون بالولاء للدولة العثمانية واعترفوا بأياديها البيضاء عليهم .

وبعد انتهاء المؤتمر وانسحاب أعضاء الوفود ، تخلف السفير الروسي (أغناتيف) . وأرسل الروس إلى سفراء بلادهم لدى فرنسا وانكلترا والنمسا وألمانيا وايطاليا يشرحون رفض الباب العالي قرارات المؤتمر ، وطلبوا الاستفسار من هذه الدول عن التدابير المطلوب اتخاذها إزاء العثمانيين حفظاً على تنسيق الجهود المشتركة ، قبل أن ينفذ امبراطور روسيا وبالقوة اجراءات معينة وانتقامية ضد الدولة لصالح النصارى . كما قام صفوت باشا بإرسال مذكرات الى سفراء بلاده لدى هذه الدول أيضاً شارحاً الموقف وملابساته وقال في ختام كلامه : إن الدولة لا يمكنها ولن يمكنها التصديق على شيء من هذه

الاقتراحات المزرية بشرفها والحطة بقدرها أمام أمتها . وقام الباب العالي آنذاك بإجراء آخر ، فأعلن الصلح مع إمارة الصرب وجدد الهدنة مع الجبل الأسود . ولم يحصل الروس على رد سريع من قبل الدول جواباً على مذكرتهم . وتهيأت أمامهم الفرص لإشعال الحرب فها هي الدولة العثمانية تصالح الصرب ، وربما تقوم بمصالحة الجبل الأسود ، وعندئذٍ يوضع حد لتحريضهم وتدخلهم . وقام البرنس غورشاكوف بإرسال مذكرة الى سفيره في لندن ، تطلب من الحكومة البريطانية الموافقة عليها ثم تعرض على باقي الدول ، وبعدها ترسل إلى الباب العالي كي يوقع عليها . وصادق الإنكليز على المذكرة . كما صادق عليها سفراء باقي الدول عدا المندوب العثماني الذي لم يدع للإجتماع .

ويتبين من هذه المذكرة مدى حقدهم على الدولة العثمانية النابع من كراهيتهم للمسلمين ، ومدى انحيازهم وتعصبهم الذميم .

ووصل نص بروتوكول لندن هذا الى الباب العالي ، فعلم حجم التآمر المصلت عليه رغم تعهداته السابقة ، ورأى من الواجب عليه المعارضة طبقاً لروح نصوص الدستور العثماني الحديث العهد آنذاك . كما رأى إخطار الدول بهذه المشكلة الخطيرة وأن الدولة العثمانية مستعدة للسلم عندما يكون الروس مستعدين له ، وإن حشد جيوشها هو للدفاع فقط . وأما احتجاج الروس وتذرعهم في تعبئة وحشد قواتهم إزاء الاضطرابات في بعض الولايات حيث حمّلوا الدولة العثمانية مسؤولية إثارتها في الحقيقة ، كانوا هم وراءها ومصدرها . وليس من حق الروس تعليق أمر إلغاء استنفار جيوشهم بهذه المسألة . وتطلب الدولة من أوروبا التبصر في خطر الحالة الحاضرة التي لم تكن هي المسؤولة عنها . وأن الباب العالي لا يقبل الإصلاح فقط في صفوف النصارى في الولايات الأوروبية بل في سكان كافة ولاياته دون تمييز ، الأمر الذي تنكره أوروبا على المسلمين منهم . ولا تقبل الدولة أن يكون الاصلاح تحت مراقبة

الدول . وهو الأمر الناقض لمعاهدة باريس التي تحتج بها الدول . وإذا ما رأت الدول أن الاصلاح غير منجز ، فلها الحق بأن تثبت بالوسائل الفعالة ، فإن ذلك إجحافاً بشرفها وحقوقها (أي الدولة) ومن شأنه أن يحدث الارتباك في الحاضر والمستقبل . ولا يعوق الدولة شيء أن تقيم الحجة على البروتوكول وتعتبره خالياً من العدل والإنصاف . وأنها تعلن إتكالاً على الباري تعالى أنها تنكر كل ما يحكم به عليها أحد من دون موافقتها ، وأنها جازمة على المحافظة على وجودها . ولا وسيلة لابعاد شبح الحرب إلا بالمبادرة إلى وضع السلاح .

إعلان الحرب :

أما وقد رفض الباب العالي تلك المذكرة ، وصمم الدفاع عن شرف الدولة العثمانية ، فلم يبق أمام الروس سوى إعلان الحرب وقد تم ذلك بالفعل . وأجرى الروس التوقيع على معاهدة سرية مع إمارة رومانيا ، بحيث تفتح الأخيرة خزائنها من مال وسلاح لهم . كما أخطروا الباب العالي بالحرب وقطعوا العلاقات السياسية معه .

وقام الباب العالي بإعلام الدول الموقعة على معاهدة باريس عن طريق سفرائه بإعلان الروس الحرب عليه دون توسطهم طبقاً لأحكام المادة الثامنة من المعاهدة المذكورة . ثم صدرت الأوامر لقادة الجيوش العثمانية بمقاتلة العدو . وأصدر شيخ الاسلام فتوى بوجوب القتال على كل مسلم وأخرى بإضافة لقب غازي على اسم السلطان في كافة الأوامر وعلى المنابر طبقاً لما جاء في الحديث الشريف : « من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا » .

أما أوروبا فأدارت ظهرها للأحداث المستجدة في حين أنها هي التي كانت وراء تأزمها السابق وما كان موقف انكلترا المخاتل المخادع إلا للدفاع عن مصالحها التجارية في قناة السويس ، الأمر الذي جعلها تتظاهر بالحياد عندما

أخبرها الروس بأنها ليست هدفاً حربياً.

وخرق الروس الحدود العثمانية قبل إعلان الحرب رسمياً بأربع وعشرين ساعة خلافاً للأصول المتبعة. ودخلوا رومانيا ثم عبروا الدانوب الفاصل بينهم وبين الدولة. واحتج العثمانيون ضد التحالف الروماني الروسي، إذ أنهم كانوا لا يزالون أصحاب السيادة في رومانيا. ولكن أوروبا لم تلق أذناً صاغية، وعندها أرادوا معاقبة رومانيا وأرسلوا بعض السفن الى الدانوب لضرب سواحلها. وعندها تظاهرت بالعدوان وأعلنت استقلالها التام واشتركت مع الروس بالحرب.

الحرب على الدانوب:

بعد عدد من المناورات العسكرية والاشتباكات المسلحة اجتاز الجنرال (زمرمان) نهر الدانوب ثم عبر الجيش الروسي النهر بأكمله واتجه الى مدينة (ترنوة)[1] واحتلها. وقام الجنرال (جوركو) باحتلال مضائق البلقان الموصلة الى مضيق شيبكا[2] الشهير والخطير والذي عن طريقه يمكن الوصول إلى الآستانة بسرعة. وبدأت حالة من التوتر في العاصمة العثمانية. ونسب المعلقون سبب التقهقر في صفوف العثمانيين الى عدم كفاءة السردار عبد الكريم باشا وناظر الحربية رديف باشا الأمر الذي أدى إلى عزلهما وتعيين قائد عام للجيوش العثمانية اسمه محمد علي باشا. كما استدعي (سليمان باشا) الذي كان يقاتل في الجبل الأسود مع جنوده للعمل على صد الروس كما جرت تنقلات قيادية عسكرية أخرى من أجل تحسين الوضع.

وحضر القائد العثماني الشهير عثمان باشا على جناح السرعة من معسكره

---

(١) ترنوة: مدينة تقع اليوم في وسط وشمال بلغاريا على مقربة من الحدود الرومانية.

(٢) تقع بلدة شيبكا الى الجنوب من ترنوة بمسافة ٥٨ كم.

بمدينة ودين لنجدة مدينة نيكوبلي. وعندما علم بسقوطها اتجه الى مدينة (بلغنة) ذات الموقع الهام ثم حصنها. وقام الروس بمهاجمة المدينة فلم يفلحوا. وعاودوا الكرة بعد عشرة أيام فقط بعد أن عززوا قواتهم ولكن خاب أملهم وتكبدوا الخسائر الفادحة واندحروا عنها.

محاور الهجوم العثماني:

بعد ذلك التقهقر الروسي تمكن العثمانيون من الهجوم. وسلكوا ثلاث محاور: أولاها بقيادة عثمان باشا في بلغنة والثاني بقيادة السردار محمد علي باشا اتجه نحو قوات البرنس اسكندر ولي عهد روسيا والثالث بقيادة سليمان باشا باتجاه مضيق شيبكا. وكاد الجيشان الأخيران يدحران الروس نهائياً وطردهم إلى ما وراء الدانوب لولا حدوث زحف آخر قام به أمير رومانيا الى ميدان القتال بجيش قوامه مائة ألف جندي. كما حضر القيصر الروسي بنفسه لرفع المعنويات الأمر الذي أثر على الهجوم العثماني حول بلغنه وأمام مضيق شيبكا. ورجحت كفة الروس وحاصروا بلغنه بقيادة الجنرال (تودلين) الذي دافع عن سيباستيبول في حرب القرم. وبعد عدة وقائع تم الحصار وبدأ الاستيلاء على الحصون التي أقامها عثمان باشا كما ذكرنا سابقاً. والجدير بالذكر أن التعاون الروماني الروسي يبين مدى الحقد الدفين ضد المسلمين.

بطولة خارقة:

ونفذت الذخائر لدى العثمانيين فقرر عثمان باشا الخروج من الحصار وسط الأعداء. وفي يوم ١٠ كانون أول من عام ١٨٧٧ م الموافق ١٢٩٤ هـ أخلوا جميع القلاع وخرجوا مهللين مكبرين والعدو يحصدهم وهم لا يعبأون. واستمروا في سيرهم بين خطوط الدفاع الروسية. ونزلوا من أعالي الجبال وكادوا يستولون على الخط الثالث ويفكوا الحصار لولا أن جرح قائدهم في ساقه، وتأثرت

معنويات جنده نتيجة لذلك وبدرجة كبيرة، فأرادوا الرجوع الى المدينة التي احتلها الروس فتعرضوا للنيران الغزيرة فرفعوا الأعلام البيضاء. وتقدم رئيس الأركان اللواء توفيق باشا طالباً مقابلة القائد الروسي، وطلب الروس مقابلة عثمان باشا ودخلوا إلى مقره وهنأووه على الأعمال الجريئة التي قام بها - والفضل ما شهدت به الأعداء - وأصدر عثمان باشا أوامره بإلقاء السلاح.

وفي أثناء نقله إلى بلغنة قابل الغراندوق نيقولا وأمير رومانيا وسلما عليه باحترام وتوجه في صبيحة اليوم التالي متكئاً على طبيبه الخاص إلى مقر القيصر اسكندر الثاني. وعندما دخل على الامبراطور قام إجلالاً له واحتراماً وقال له: «إني أرد إليك سيفك علامة على احترامي لك وإكباري بشجاعتك وأجيز لك أن تحمله في بلادي. ثم أنزل في مدينة كركوف حتى انتهاء الحرب».

الحرب في آسيا:

أما في جهات آسيا فقد تقدم العثمانيون بادىء الأمر وتوغلوا داخل البلاد الروسية. فحاصروا في البداية مدينة بايزيد وعملوا على إسقاط أروهان وباطوم. ثم دخلوهما لتشديد الحصار على قلعة قارص واحتلوا بايزيد. وبعد عشرين يوماً فقط تمكن القائد العثماني أحمد مختار باشا من تجميع الجيوش واحتل مرتفعات زورين. كما تقدم اسماعيل حقي باشا مع جيش من الأكراد لمهاجمة أحد الجيوش الروسية.

وفي ٢٥ آب من عام ١٨٧٧م الموافق ١٢٩٥ هـ - تقهقر الروس وانتصر أحمد مختار باشا. وأدى بهم ذلك إلى رفع الحصار عن قارص واتجهوا الى المدينة الروسية الكسندربول. وتقهقر الجيش الروسي الذي يقوده (درهوجاسوف) أمام ضربات اسماعيل حقي، إلى داخل روسيا. ثم جرت ست وقائع شهيرة انتصر العثمانيون فيها على الروس. وعندما علم السلطان بأنباء الانتصارات

أرسل إلى أحمد مختار باشا قائلاً: «... لقد زينتم مهم صحائف تاريخنا العسكري بغالبيتكم التي أحرزتموها... أما جنودنا الذين ما برحوا نصب أعيننا فقد أثبتوا على الوجه الأتم في هذه الحرب التي أظهروا فيها الثبات والإقدام في صورة خارقة للعادة امتلاكهم للخصلة العثمانية... وقصارى المسؤول من جناب الناصر الحقيقي حضرة العادل المطلق الشاهد على صدق دعوانا الحقة في هذه الحرب الحاضرة أن يتعاهد بعد الآن بعناية وبمدد روحانيته سيدنا الرسول الأمين الذي هو العروة الوثقى في الحاجات عسكرنا بالنصر المبين في حروبهم وغزواتهم وأن يجعلهم مسرورين بحماية العلم الإسلامي... والحق تعالى لا يغرب عنكم نصرته البالغة الصمدانية...».

ثم اتخذ الجنرال الروسي مليكوف خطة للهجوم في أواخر شهر أيلول عام ١٢٩٥ هـ. ولم يتمكن العثمانيون من مقاومة الجنود الروسية الجديدة فرجعوا إلى أرضروم فتبعهم الروس وحتى قارص وعاد مختار باشا إلى أرضروم حيث حوصر هناك.

موقف الصرب والجبل الأسود:

وعندما علم الصربيون رجحان الكفة الروسية، سرعان ما أعلنوا الحرب على الدولة العثمانية صاحبة السيادة عليهم. وقام الباب العالي بتوجيه رسالة إلى الأهلين هناك بين لهم فيها خيانة حكومتهم وغدرها ونكران أميرهم (ميلان) للجميل.

ولم يحصل اتفاق لإجراء صلح بين الدولة والجبل الأسود كما ألمحنا سابقاً، وأعلن سكانه الحرب على الدولة واشترك جيشهم في قتال العثمانيين وإشغالهم عن مهاجمة الروس في جهات البلقان ورغم شدة البرد، استمر القتال في الشتاء. ووجه الروس جميع جيوشهم إلى ما وراء الجبال البلقانية لتوجيه

الضربة من هناك باتجاه بلغاريا والروملي الشرقية وبمساعدة من الصرب. وسرعان ما اخترق (جوركو) الجبال ودخل صوفيا في أوائل الشتاء عام ١٢٩٥ هـ ثم احتل فيليبه. ودخلت مقدمة فرقة الجنرال (سكوبلف) مدينة أدرنه في ٢٠ من شهر كانون الثاني واتجه الروس نحو الآستانة، ووصلوا إلى مسافة خمسين كيلومتر فقط من العاصمة العثمانية.

واحتل سكان الجبل الأسود مدينة (آنتيباري) ووصلوا إلى ضواحي أشقودره[1] ودخل الصربيون نيش.

أمام هذا الموقف المتدهور لم يكن بد من الصلح لعدم القدرة العثمانية على استمرار القتال والعدو جاثم على مشارف العاصمة.

مفاوضات الصلح:

عين الباب العالي في أوائل كانون الثاني كُلاً من (نامق باشا) و(سرور باشا) كمندوبين للتفاوض مع الغراندوق نيقولا من أجل وقف القتال. وابتدأت المفاوضات في ٢٠ من الشهر نفسه وجرى اتفاق على:

١ - استقلال البلغار إدارياً.

٢ - استقلال رومانيا والجبل الأسود سياسياً.

٣ - دفع غرامة حربية للروس.

وأوقفت الأعمال العسكرية في ٣١ كانون الثاني. وأعلن الباب العالي رفع الحصار عن سواحل روسيا الواقعة على البحر الأسود.

وعندما علمت الدول الأوروبية بالشروط المذكورة وبمبادىء الصلح خافت على مصالحها. وبادرت النمسا للطلب من انكلترا عقد مؤتمر لمندوبي الدول

(١) أشقودرة: تقع اليوم في شمال غربي إلبانيا على احدى البحيرات. قرب الحدود اليوغوسلافية.

الموقعة على معاهدة باريس للنظر في هذه الشروط. وقبل الانكليز الطلب ولم يتحقق عقد المؤتمر لعدم رغبة الروس بتوسطهم.

وتسربت أنباء المفاوضات العثمانية الروسية إلى أوروبا فهاج الرأي العام خوفاً من احتلال الروس للآستانة. وحاولت انكلترا منعهم من احتلالها، فأمرت بحريتها دخول مضيق الدردنيل لمراقبة حركاتهم. ووصلت السفن الإنكليزية فعلاً إلى شواطىء البوسفور والآستانة.

وعندما حاول الروس احتلال العاصمة العثمانية بحجة دخول بريطانيا المضائق، ثارت انكلترا وقالت بأنها لن تسمح بذلك، فأحجم الروس وبقيت جنودهم تعسكر خارج المدينة.

ثم بدأت المفاوضات للوصول إلى إقرار الصلح النهائي. ومثَّل (صفوت باشا) و(سعدالله) بك الدولة العثمانية. وكان الروس قد طلبوا مسبقاً سحب القوات العثمانية إلى ما وراء خط بيوك جكمجة وكوجك جكمجة من ضواحي الآستانة. وأن تحتل مقدمة قواتهم هذين الخطين مقابل عدم احتلالهم العاصمة. وأن ينقل مركز المخابرات الروسية من مدينة أدرنه إلى قرية (سان ستيفانوس) على بحر مرمرة، فقبلت الدولة العثمانية بذلك منعاً لاحتلال العاصمة.

وسافر الغراندوق إلى (سان ستيفانوس) بصحبة ألف جندي كحرس. وبدأ عدد جنوده بالإزدياد حتى بلغ عشرين ألف مقاتل والباب العالي لا يملك حيلة لمنعهم.

ووصل المندوبان العثمانيان الى (سان ستيفانوس) وبدأت المفاوضات مع الجنرال أغناتيف. وأجبر العثمانيون على التوقيع على الشروط قبل حلول يوم ٣ آذار ١٨٧٨ م الموافق عيد جلوس القيصر على العرش. وإذا لم يتحقق هذا

فإن الهدنة تعتبر باطلة ويدخل الروس الآستانة. وتحت التهديد وقّع المندوبان العثمانيان على المعاهدة. وخرج الجنرال أغناتيف في مساء اليوم ذاته إلى مقر الغراندوق وسلّمه صورة المعاهدة وكان واقفاً أمام جنوده فصاح الجند من نشوة الفرح. وسرعان ما أقام لهم أحد القساوسة صلاة في ميدان الاستعراض ونزل الضباط عن ظهور خيولهم وجثوا على الأرض شكراً على هذا النصر. وفي هذه المناسبة لا يسعنا إلا أن نستعرض في ذاكرتنا موقف هؤلاء عندما تمكنوا من المسلمين وهم على مشارف العاصمة العثمانية وموقف صنعائهم من اليهود بعد حرب حزيران عام ١٩٦٧ بين العرب واسرائيل فنجد أن الكيفية واحدة لأن الهدف واحد والعدو المشترك واحد وإن تباعد الزمن قليلاً ويعتصر قلوبنا الألم لما حل بنا وخاصة عندما تنعكس الصورة لتفصح عن ضجيجنا المتبجح فيما لو تحقق لنا النصر وعن ما سنفعله ونرتبكه آنذاك.

وسنقوم الآن بعرض لأهم ما جاء في معاهدة سان ستيفانوس من بنود بصورة مختصرة:

١ - تعديل الحدود بين الجبل الأسود والدولة العثمانية.

٢ - استقلال الجبل الأسود. وإعادة المجرمين وتنظيم المسائل المدنية والعسكرية بين الطرفين مع تحكيم روسيا والنمسا فيما يحدث من خلافات.

٣ - استقلال صربيا وتعديل حدودها بمعاونة من الروس.

٤ - فيما يتعلق بمسلمي الصرب فلهم الخيار بين الإقامة أو المغادرة.

٥ - استقلال رومانيا مع دفع ضمانات لها.

٦ - شبه استقلال لبلغاريا مع إجراء تعديل في حدودها.

٧ - تأمين حرية انتخاب أمير بلغاريا وبإشراف روسيا فعلاً والدولة العثمانية

إسماً وتشكيل تنظيمات خاصة بالطوائف.

٨ - إزالة الوجود العسكري العثماني من بلغاريا. وهدم التحصينات ولكن يجب الاحتفاظ بالوجود العسكري الروسي وبعدد من الجنود الروس يقدر بـ ٥٠ ألف ولمدة سنتين.

٩ - تنظيم حق المرور العثماني عبر الأراضي البلغارية فيما يتعلق بالجيش النظامي والمواصلات البريدية والسلكية باتفاق يجري بين الباب العالي والبلغار.

١٠ - وضع تنظيمات خاصة بأموال مسلمي البلغار وتحت إشراف الروس.

١١ - إزالة الوجود والتحصين العسكري من نهر الطونه ومياه رومانيا والصرب والبلغار.

١٢ - إلزام الباب العالي تنظيف مياه البحر في مضيق (سنه) ليصبح صالحاً لمرور السفن ودفع العطل والضرر للتجار.

١٣ - تنظيمات خاصة بالبوسنه والهرسك تتعلق بدفع الواردات.

١٤ - تنفيذ الأنظمة الأساسية السابقة والخاصة بجزيرة كريت بناء على طلب السكان وبعض مناطق الروملي بالتشاور مع الروس.

١٥ - التعهد بإصلاح أحوال الأرمن.

١٦ - إعلان العفو العام وإطلاق سراح السجناء السياسيين والمنفيين.

١٧ - تعيين الحدود الإيرانية.

١٨ - دفع ٩٠٠ مليون روبل لروسيا إضافة إلى ٤٠٠ مليون روبل و ١٠٠ مليون روبل أيضاً للروس مقابل ما لحق بهم من خسائر أي ما مجموعه مليار و ٤١٠ مليون روبل. ونظراً لضيق الحالة المادية العثمانية فيمكن

أخذ الأراضي بدلاً عن النقد وتلك الأراضي تشمل بسارابيا ـ اردهان ـ قارص ـ بايزيد . . . وغيرها من جهات آسيا .

١٩ ـ البت بأمر الدعاوى المتعلقة بروسيا والمتنازع عليها منذ سنين ودفع ضمانات للروس مقابلها .

٢٠ ـ تنظيمات خاصة بسكان البلاد التي سوف تسلم للروس .

٢١ ـ حصول رؤساء الطوائف النصرانية الروسية والسفارات والقناصل الروس على امتيازات في البلاد العثمانية . وإعطاء الروس حق حماية حقوقهم .

٢٢ ـ استئناف أحكام المعاهدات الجارية بين الدولة العثمانية وروسيا والمتوقفة بسبب الحرب .

٢٣ ـ فتح المضائق أمام السفن التجارية المتوجهة إلى روسيا .

٢٤ ـ يكون الجلاء الروسي عن الروملي عدا بلغاريا بعد إبرام الصلح بمدة ثلاثة أشهر وبتحفظات خاصة . أما الجلاء الروسي في الأناضول فيجري بعد اتمام الصلح بستة أشهر ضمن تحفظات .

٢٥ ـ عدم معاقبة الخونة العثمانيين المتعاونين مع الروس .

٢٦ ـ إعادة الأسرى وضمن ترتيبات خاصة .

ويلاحظ من خلال هذه البنود أمرين هامين هما :

١ ـ سلخ تركيا الأوروبية عن جسم الدولة العثمانية .

٢ ـ نقمة الدول الأوروبية على روسيا .

مواقف الدول :

كانت انكلترا أكثر الدول تخوفاً من نتائج هذه المعاهدة الأمر الذي أدى بها

إلى معارضتها معارضة شديدة . وعارضت النمسا أيضاً لعدم إشراكها في اقتسام المكاسب وخاصة في سلانيك . أما الألمان فكان موقفهم يتلخص في تقديم المساعدة الأدبية فقط لروسيا مع تبيان رفضهم الإحتلال . واتخذ الفرنسيون موقف الحياد إذ كانت قواتهم وإمكانياتهم لا تزال منهكة من جراء حربهم مع بروسيا . ونظراً لانشغال إيطاليا بأمورها الداخلية المتعلقة بإجراءات الوحدة الداخلية فقد لزمت الحياد . وفي الوقت ذاته أبلغت انكلترا روسيا بأن كل خلل يمس بشروط معاهدة باريس لا يعمل به إلا بعد تصديق الدول الضامنة لمعاهدة باريس . وفي ٧ آذار دعت النمسا جميع الدول لعقد مؤتمر في مدينة برلين ليترأسه بسمارك الداعي الى احتلال البوسنة والهرسك . وقبلت الدول الدعوة عدا انكلترا التي وضعت شروطاً عارضها الروس . فكان من جراء ذلك تأزم العلاقات الروسية الانكليزية وبدأ الاستعداد البريطاني للحرب واضحاً . إذ جمع الانكليز قواتهم في مالطا وجلبوا من الهند قوات أخرى ، وأخطروا الدول بوجهة نظرهم إزاء المعاهدة وإصرارهم على مصالحهم الأمر الذي أدى إلى تبدل الموقف النمساوي المترقب .

علم الروس بالتحرك البريطاني وأخذوا بالاستعداد للحرب . وأثناء ذلك فوجئوا بانتفاضات المسلمين في بلغاريا الذين هبوا للدفاع عن أنفسهم وعن حقوقهم المهدورة وأوضاعهم المهددة وضد تعديات النصارى ونقمتهم عليهم . فسارع الروس إلى قمع حركتهم ولكنهم فشلوا في البداية وامتد لهيب الثورة إلى كافة أرجاء البلاد .

ثم تفشت الأمراض بين صفوف العدو الروسي ونضبت خزائن القيصر . وعندها كتب إلى خاله غليوم الأول طالباً التوسط بينهم وبين الانكليز ، ولوحوا بالتساهل معهم بشأن معاهدة سان ستيفانوس ، فتجددت المفاوضات وعدلت المعاهدة وخاصة فيما يتعلق بالحدود البلغارية . وصادقت انكلترا على

التشكيل الجديد للإمارة بتصغير مساحتها، وأن يكون الجزء الجنوبي منها ولاية مستقلة. وأبقيت سواحل بحر الروم تابعة للدولة العثمانية خوفاً من أن تصبح مرسى للسفن الروسية فيما بعد. وهذا ما تقبله انكلترا حفظاً لسيادتها على البحار.

وتظاهرت انكلترا أمام الدولة العثمانية بمظهر الصديق. وأقنعتها بوجوب عقد معاهدة دفاعية معها ضد روسيا، لصدها فيما لو تقدمت باتجاه الأناضول. وأن تتعهد بإجراء الإصلاحات اللازمة لتحسين أحوال النصارى حتى لا يميلوا إلى جانب الروس كما حصل في بلاد البلغار، وأن تسمح لانكلترا باحتلال جزيرة قبرص فتكون على مقربة من روسيا كي يتسنى لها صدها إذا ما دعت الحاجة. وعندما تولى صفوت باشا منصب الصدارة العظمى تم الاتفاق على هذه المعاهدة الدفاعية وقبل الباب العالي تسليم قبرص للانكليز في ظروف صعبة فرضتها الاضطرابات في الآستانة والخوف من الإحتلال الروسي لها. وما ذلك إلا رغبة في حفظ باقي البلاد من الخطر وتعديل معاهدة سان ستيفانوس.

ولم ينتشر خبر المعاهدة إلا في ٧ تموز عندما أشرفت أعمال مؤتمر برلين على الإنتهاء. وقامت انكلترا بإخفاء هذا الاتفاق، ولم تعرضه على البرلمان إلا حينما تأكدت بعدم إضراره بأعمال المؤتمر، وبحيث لا يتمكن مندوبو الدول من الإعتراض.

وقام الانكليز بإبلاغ بسمارك نص اتفاقهم مع الروس. فبادر الأخير لدعوة الدول الكبرى. واشترطت فرنسا عدم تعرض المؤتمر للمسائل التي لم ينص عليها في معاهدة سان ستيفانوس. وانعقد المؤتمر في ١٣ حزيران تحت رئاسة بسمارك. وأرسلت بعض الدول مندوبين عنها وإن كان غير مصرح لهم بالمشاركة أمثال رومانيا والصرب والجبل الأسود واليونان. كما أرسل الأرمن واليهود وشاه

إيران بمندوبين عنهم. وتوالت الجلسات لمدة شهر كامل. وكانت أهم بنود الاتفاقيات ما يلي:

١ - البلغار إمارة مستقلة داخلياً تحت تابعية السلطان وحكومتها نصرانية وجيشها وطني.

٢ - خططت حدودها بشكل يختلف عن السابق.

٣ - يجري انتخاب أميرها بحرية تامة وبإقرار من الباب العالي بموافقة دول أوروبا الكبرى.

٤ - تراعى حقوق الأتراك والرومانيين والروم وغيرهم بخصوص الانتخابات وترتيب الأحكام الأساسية.

٥ - لا يمنع اختلاف المذهب والعقيدة أحداً من التمتع بحقوقه المدنية والسياسية ودخول الوظائف ومزاولة المهن والحرف المختلفة. وتؤمن مزاولة كافة الشعائر الدينية لكافة السكان المحليين والأجانب.

٦ - تكون الادارة المؤقتة تحت إمرة روسيا حتى تنظم القوانين الأساسية. وللمندوب العثماني ومندوبي الدول حق المراقبة.

٧ - تبقى المعاهدات التجارية والسفرية والإتفاقات الأخرى التي جرت بين الباب العالي والدول الأجنبية سارية المفعول مع البلغار، ويعامل الأهالي ورعايا الدول على قدم المساواة التامة وتراعى امتيازات الأجانب.

٨ - إن مقدار ما تدفعه بلغاريا للباب العالي تحدده الدول.

٩ - تهدم الحصون والقلاع العثمانية. وتسحب الجنود خلال سنة أو أقل ولا تبنى معاقل جديدة.

١٠ - للمسلمين الحق في ايجار أملاكهم وتسوي لجنة بلغارية تركية المسائل المتعلقة بالأمور الأخرى .

١١ - تشكل جنوب البلقان ولاية تحت اسم (ولاية الروملي الشرقية) تكون تابعة للسلطان سياسياً وعسكرياً ، مع حصولها على الاستقلال الإداري ويكون واليها نصرانياً . ويحق للحضرة السلطانية بناء الاستحكامات وإقامة العساكر وحفظ الراحة العامة فيها بشكل يحفظ سير الأمور الداخلية . ويعين واليها لمدة خمس سنين من جانب الباب العالي وبموافقة الدول .

١٢ - قوة روسيا في البلغار والروملي الشرقية قوامها ست فرق مشاة وفرقتين خيالة بشكل لا يزيد العدد عن ٥٠ ألف عسكري .

١٣ - اتفاق بشأن كريت .

١٤ - تدير عساكر النمسا والمجر ولايتي البوسنه والهرسك دون سنجق يكي بازار حيث تبقى الادارة العثمانية فيه معمولاً بها . وتحفظ النمسا والمجر لنفسها حق إقامة الثكنات والطرق التجارية والعسكرية .

١٥ - الاعتراف باستقلال الجبل الأسود وتعيين حدوده .

١٦ - إعادة بعض الأراضي في الجنوب إلى الدولة العثمانية .

١٧ - للمسلمين القاطنين هناك حق إعارة أو تأجير أملاكهم أو تشغيلها بواسطة لجنة عثمانية جبلية .

١٨ - يخلي العساكر الجبليون المناطق التي ليست ضمن حدود إمارتهم للعثمانيين ويخلي العثمانيون مقابل ذلك أراضي الجبليين .

١٩ - يعين نواب الدول المبلغ الذي على سكان الجبل الأسود دفعه للدولة العثمانية .

وأما فيما يتعلق بالصرب :

٢٠ - عدم التفرقة الدينية بين سكان إمارة الصرب في المجالات السياسية والحقوق المدنية ومزاولة المهن والحرف المختلفة .

٢١ - تخطيط الحدود .

٢٢ - عدم تبديل العلاقات التجارية بين الصرب والدول الأجنبية وكذلك قوانين الامتيازات الأجنبية والرعايا وحقوق القناصل .

٢٣ - إقرار حرية المسلمين في تأجير أو تشغيل أراضيهم بواسطة لجنة عثمانية صربية .

٢٤ - على الصربيين إخلاء كافة المناطق التي ليست تابعة لهم أو داخلة في حوزتهم .

٢٥ - يعين سفراء الدول مقدار الدين المقرر أن يدفعه الصربيون للدولة العثمانية .

وبخصوص رومانيا :

٢٦ - لا تمييز في المعتقدات الدينية في مزاولة المهن والحرف والوظائف وممارسة الحقوق المدنية والسياسية .

٢٧ - تعيد رومانيا أراضي بسارابيا لروسيا .

٢٨ - يضم لرومانيا الجزر الثلاث الواقعة على نهر الطونه إضافة إلى بعض الجزر الأخرى المحددة . كما يعطى لها بعض الأراضي بمعرفة اللجنة الأوروبية المختصة .

٢٩ - تخول رومانيا حق عقد الاتفاقيات مع الدول الأجنبية لتسوية مسائل معينة ومحددة .

٣٠ ـ يتمتع الرعايا العثمانيون في رومانيا والرومانيون في الدولة العثمانية بالحقوق الخاصة بالرعايا ويستمر ذلك حتى عقد معاهدة جديدة.

٣١ ـ هدم كافة القلاع على نهر الطونه الواقعة في بعض المناطق..

٣٢ ـ بعض الاتفاقيات الخاصة بنهر الطونه.

٣٣ ـ يسلم الباب العالي لروسيا في مناطق الأناضول أراضي (أردهان ـ قارص ـ مرسى باطوم وكافة الأراضي الواقعة بين التخوم الروسية والتركية القديمة إضافة الى التخوم المعينة وتخطط حدود جديدة حسب معاهدة سان ستيفانوس.

٣٤ ـ تعيد روسيا لتركيا أودية الشغراد ومدينة بايزيد التي تسلمتها روسيا حسب معاهدة سان ستيفانوس كما على الباب العالي تسليم مدينة (قطور) وأراضيها لإيران وفقاً لرأي اللجنة الإنكليزية الروسية الخاصة بذلك.

٣٥ ـ تعهد الباب العالي بإجراء الإصلاحات للأرمن وحمايتهم من الشراكسة والأكراد وتراقب الدول تنفيذ ذلك.

٣٦ ـ يجب عدم التمييز الديني في كافة البلاد العثمانية من حيث التوظيف والتمتع بالحقوق المدنية والسياسية ومراتب الشرف ومزاولة الصناعة والمهن والحرف. ولجميع الناس حق أداء الشهادة في المحاكم دون تمييز في الدين. وتكفل حرية ممارسة الشعائر الدينية. وللقناصل ونواب الدول حق حماية رؤساء الأديان النصرانية ومحلاتهم وأماكنهم المقدسة. ولا تبدل بحال من الأحوال الحاضرة أحوال الأماكن المقدسة النصرانية.

الفصل الثامن

بين الطورانية والسلافية

بين الطورانية والسلاقية:

تعرضت العلاقات العثمانية الروسية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ومطلع القرن العشرين لاضطرابات خطيرة لم يكن مبعثها فقط الأطماع التوسعية الروسية، وانما تدخلت التيارات الفكرية الحديثة ذات المنشأ القومي والتاريخي، فأخذت طابعاً عرقياً مغايراً أدى إلى إثارة النعرات الإقليمية والإنفصالية في الدولة العثمانية وخاصة في ولاياتها الأوروبية وفي الامبراطورية الروسية المتعددة الأجناس. وأثار الروس أتباعهم من دعاة العرق السلافي في ولايات البلقان العثمانية كي يثوروا ضد العثمانيين، كما تحرك الطورانيون في الدولة العثمانية ليوقظوا الأحلام التاريخية في أواسط آسيا وبين الشعوب التركية المنتشرة في بلاد الروسيا. وسنحاول إعطاء لمحة عن كلا الدعوتين والتعرض لبعض آثارهما على العلاقات بين الدولتين.

كان للحركة الطورانية التي وجدت لها أتباعاً في صفوف المسلمين الترك والقاطنين في أواسط آسيا وفي بلاد القوقاز، أثراً بالغاً في جذب بعض القادة

العثمانيين وخاصة بعد الانقلاب العثماني الذي حدث عام ١٢٢٧ هـ فاتجهوا بأبصارهم إلى ما وراء الحدود حيث يشكل الترك تجمعاً سكانياً كبيراً .

وقام الصليبي المجري (آرمينوس قيمباري) بزيارة القسطنطينية لأول مرة عام ١٢٢٧ هـ وبعد أن عاد ، قام ينفخ في بوق الطورانية . واتفقت دعواته التدميرية في هذا المجال مع دعوات الفرنسي اليهودي (ليون كوهين) . وبسرعة بالغة انتشرت كتبهما في كل بقعة من بقاع الترك . ثم قام بعض الأوروبيين من شياطين الإنس بالعزف على وتر جديد وانتخبوا معزوفة ساقوها إلى أسماع المغرورين من أبناء المسلمين الأتراك . ورصد اليهود كل ما يملكون من إمكانيات لبث الدعوة الجديدة . وفي الوقت نفسه لقيت مؤلفات (فون لوفوك) و (لاؤون ماسون) أذناً صاغية ، لفتت الأنظار الى ادعاء مفاده أن تاريخ الترك كان متقدماً قبل الإسلام . وقام بعض الكتاب الترك بإحياء الذكريات القومية القديمة ، ومحاولة تجديد اللغة حسب تطورات العصر ، فأخرجوا لغة سهلة اتخذها الأدباء والكتاب والشعراء . وهيأ العدوان الأوروبي ، واقتطاع الأراضي تباعاً من بلاد العثمانيين ، على ترويج عاطفة التشبث بالأرض وحبها .

واتسع نطاق العصبية العرقية عند الأتراك وامتد أفقها . فاتخذت ما يعرف باسم الجامعة التركية والجامعة الطورانية . وحينما اصطدم الغرب النصراني بالعالم الإسلامي خلال القرن الثالث عشر الهجري الذي راجت فيه دعوة العصبية القومية ، بدأت تتسرب الأفكار تدريجياً الى صفوف المصلحين من الترك ، ممن تشربوا المبادىء الغربية وانبهروا بها . وبدأت دعوة إحياء الماضي التاريخي القومي وإصلاح اللغة تأخذ مجالها .

وهدف الأتراك من وراء تعصبهم العرقي إلى تتريك كافة العناصر العثمانية ، الأمر الذي أدى إلى صدام عنيف مع الدعوات العرقية النصرانية السابقة الظهور في البلقان . ومع ذلك فإن ذلك لم يتجاوز النطاق العثماني المحدد

حتى نهاية الحرب البلقانية حيث أخذت دوراً جديداً وخطيراً .

في هذا الدور شعر أتباع هذه المبادىء أنهم سلالة أمة فذة وفريدة في العالم . وأنهم فروع من شجرة عظيمة امتدت أغصانها فشملت شرقي أوروبا ومعظم آسيا . وانضوى تحت لوائها أقوام وشعوب كالعثمانيين الأتراك في القسطنطينية والأناضول ، والتركمان في إيران وآسيا الوسطى ، والتتار في جنوبي روسيا والقوقاز ، والمجر في هنغاريا ، والمغول في شرقي آسيا ، والفنلنديين في فنلندا والبلطيق ، وقبائل عديدة في سيبريا .

وذكروا أن لهذه الخليطة التي أطلقوا عليها اسم الشعوب الطورانية صفات معينة ومشتركة وتشابه في البيئة والخلقة . ولكنهم كانوا يجهلون هذه الإدعاءات حتى ظهرت أولى مراكز الدعوة على ضفاف نهر الفولغا في بلاد التتار الروسية ، وفي القسطنطينية على ضفاف البوسفور . واستطاع التتار ذوي الماضي التليد في تاريخ روسيا الحفاظ على شخصيتهم أمام المد السلافي ، رغم أنهم خضعوا للحكم القيصري الغاشم قرابة الأربعة قرون . وقد صمدوا فعلاً في قازان وآستراخان وغالب بلاد القرم ، وشكلوا أقلية كبيرة في بلاد القوقاز فلم تبتلعهم أمواج الامبراطورية السلافية رغم التباين الجغرافي . وبدأت تباشير يقظتهم القومية في نهاية القرن الثالث عشر الهجري ، وفي صفوف التتار الروس وازداد نموها بشكل عجيب . ثم جاءت ثورة عام ١٣٢٣ هـ في روسيا فأتاحت لهم فرصاً جديدة . وأشرقت آدابهم ، وازداد إصدار الكتب والصحف والمجلات . وساعد الإثراء الكبير عند بعضهم في دعم تلك النهضة وقام أصحاب الملايين من أبناء باكو بالعمل الدؤوب لتمويل وسائل التنبيه العصبي العرقي . وأبدوا حنكة كبيرة ومهارة فائقة في ضروب السياسة فوثق بهم التركمان في أواسط آسيا الروسية ، والذين كانوا قد غمرتهم نشوة الدعوة القومية .

وحينما تشكل مجلس الدوما الأول في روسيا فإن عدداً كبيراً من المسلمين

كانوا أعضاء فيه نتيجة لما سبق،الأمر الذي أدى الى خشية الرأي العام الروسي.

كان المسلمون الأتراك في روسيا ينتهجون سبيل الحكمة وراء مبتغاهم، فأعلنوا الولاء والإخلاص للحكم القيصري. غير أن بعضهم لم يتمكنوا من ضبط أنفسهم، وأعلنوا عن تحمسهم للمطامح التتارية الخفية، وعن آمالهم في سبيل تحقيقها. واختاروا العمل الحر بعيداً عن الأيدي الباطشة بهم. وركزوا جهودهم في الآستانة. وأسس المسلم التتاري (يوسف بك أقشورا أوغلي) من أهالي الفولغا أول جمعية للطورانيين هناك.

وبما أن السلطان عبد الحميد الثاني، كان كما هو معلوم من أكبر دعاة الجامعة الإسلامية فإنه لم يسمح لأمثال تلك الدعوات بالظهور في بلاده. وبذلك تعكرت عليهم الأجواء حتى حدوث الانقلاب العثماني.

على أن قادة الدعوة الطورانية أمثال (أحمد بك أغاييف) ـ من تتار الفولغا ـ والذي كان له صحيفة مشهورة، وبعض القادة الآخرين والذين سعوا لتوحيد العالم الطوراني من فنلندا إلى منشوريا، لم تقتصر جهودهم العملية في البداية إلا على توثيق الإرتباط بين الأتراك العثمانيين والتتار الروس والتركمان في أواسط آسيا وإيران، وهي شعوب إسلامية لذا كان من الطبيعي أن يكون لدعوتهم صبغة دينية.

ودفعت الحرب البلقانية دعاة الجامعة الطورانية بقوة، وخرج الأتراك من البلقان نتيجة الحرب كما سنرى، والتفتوا نحو آسيا. وكانت النتيجة الكبرى حنق الهنغاريين والبلغار على الصربيين[1]. وطفق الهنغار والبلغار يدعون إلى انتائهم للشجرة ذاتها.

---

(١) إن تبادل الإتهامات بين البلغار والصرب دافعه الحنق على الروس الذين فضلوا الصرب على

وجهد دعاة الجامعة الطورانية من رجال الفكر في نشر التعاليم المغالية، وعظموا بعض الصفات الموجودة في الشعوب الطورانية. وصوروا ذلك الجنس بأنه الذي سيسود العالم بلا منازع. وبحث بعضهم في أصول الشعوب وأسباب انحطاطها. وأبرزوا من بينها العنصر الطوراني وبأنه الجدير بقيادة العالم. وأن تحقيق مطامحهم لن يكون إلا بانهيار الامبراطورية الروسية، باعتبار العديد من شعوبها وقبائلها تتصل بذلك النسب، فهي بلاد طورانية بحتة ويجب أن تكون موطناً لهم.

كما أنهم حسبوا أن دعم دول الغرب العظمى لهم لن يفيد. وأن ألمانيا والنمسا والمجر تقترب أكثر فأكثر من الحرب مع الروس. ومتى حصل ذلك فعندها تسنح الفرص لتحقيق غايتهم.

كان لرواد الدعوة الطورانية شأن كبير في اقتراب الدولة العثمانية شيئاً فشيئاً من جانب ألمانيا وحلفائها في الحرب العالمية الأولى. وقد جاهد أنور باشا[1] ومنذ عهد بعيد في سبيل تحقيق هذه الغاية. ويبين الكاتب الشهير (تكين

البلغار إذ ينتسب قسم من البلغار للأصل الطوراني ولو لم يتأكد تمسكهم بالجامعة الطورانية. وقد اعتمد الأتراك على المجريين الذين جاهروا بالتمسك بالطورانية.

(١) أنور باشا: ولد عام ١٢٩٩ هـ في مدينة استانبول. وهو ابن أحمد بك من حاشية السلطان عبد الحميد الثاني، وزوج ابنة أخيه، أحد الرجال الثلاثة الذين قادوا الدولة العثمانية من عام ١٣٣٢ هـ حتى عام ١٣٣٧ هـ. وقائد ثورة تركيا الفتاة عام ١٣٢٦ هـ. لعب دوراً رئيسياً في دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى الى جانب ألمانيا.

رقي أنور باشا تدريجياً بعد تخرجه من الأكاديمية العسكرية في استانبول برتبة نقيب. وقد عين ضابطاً في الجيش الثالث بسالونيك ـ مركز النشاط الرئيسي المضاد لحكم السلطان عبد الحميد. ثم قاد في عام ١٣٢١ هـ العمليات العسكرية العثمانية ضد العصابات المكدونية. وفي عام ١٣٢٧ هـ عين ملحقاً عسكرياً في برلين. ثم ترك برلين أثناء الحرب التركية الإيطالية وانضم الى المقاومة العثمانية في ليبيا. ثم عين حاكماً لبنغازي. ثم قاد انقلاباً في عام ١٣٣٢ هـ وأطاح بالحكومة ثم استعاد أدرنه من أيدي البلغار أثناء حرب البلقان الثانية. واحتل باكو

ألب) في كتابه ـ التركي وغاية الجامعة التركية ـ الذي نشر في عام ١٣٢٥ هـ تلك المطامح ومما قال: «... متى ما سحقت يد الجيوش الألمانية والأوسترية والتركية الاستبداد الروسي الغاشم سحقاً، واستطاع ٣٠ ـ ٤٠ مليون من الترك العثمانيين ثم يضاف الى هذا العدد عشرة ملايين من الترك العثمانيين، بحيث يتألف من المجموع أمة يبلغ عددها خمسين مليوناً تتقدم نحو حضارة عظيمة ربما تستوي مع الحضارة الألمانية، فتغدو هذه الأمة إذ ذاك شديدة القوة والبأس مستسهلة كل صعب لتوالي الصعود بمعراج الإلتقاء، وستفوق هذه الحضارة الحديثة في بعض صفاتها الحضارتين الفرنسية والانكليزية المنحطتين..».

وكشف بعض أتباع هذه الرابطة بعد انهيار القيصرية الروسية عام ١٩١٧ م الموافق ١٣٣٥ هـ عن بعض نواياهم تجاه الغرب. فقال خليل باشا ـ عم أنور باشا ـ في حديث له مع ضابط ألماني من أركان الحرب. حيث يقول: (... ويجب أن تكون قاعدة العنصرية والعصبية الجنسية المقدسة، فلذلك يبيت فتح تركستان ضرب من الضرورة... ثم تنشأ العلاقات الوثقى بين تركستان وقبائل الباتوك في سيبريا... ويجب على قبائل التتار الغربية في القوقاز أن تندمج في الأمة التركستانية اندماجاً تاماً...).

ولكن فشل دعاة الجامعة الطورانية فشلاً ذريعاً. وباتوا حيارى بعدما اجتاحت جيوشهم التركية بلاد القوقاز وشمالي إيران متخذين آسية الوسطى جهة لهم في صيف عام ١٣٣٢ هـ ولم تنتعش آمالهم إلا بعد مدة أخرى.

وبعدما هدمت الخلافة الإسلامية العثمانية، وسيطر كمال أتاتورك على مقادير الأمور في تركيا أفصح عن بعض مقاصده السياسية الخارجية ومد بصره

إثر الثورة الروسية لعام ١٣٣٦ هـ وفر الى المانيا بعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى ثم الى بخارى حيث قتله السوفييت هناك.

إلى الشمال الشرقي عبر القوقاز والتركمان فيآذربيجان إذ كانت القوقاز آنذاك ميداناً لصراع عنيف بين المسلمين من التتار والتركمان وبين النصارى من الأرمن والكرج وبين طائفة من الأحزاب الروسية البلشفية.

التيارات الفكرية السلافية:

برزت الأفكار السلافية في الجانب الآخر مقابل الأفكار الطورانية وأثرت كما أسلفت بشكل فعال على العلاقات الروسية العثمانية في البلقان. وأول الأفكار ظهوراً كانت حركة تألفت من بعض المثقفين الروس الذين شقوا طريقهم في القرن التاسع عشر الميلادي ودعوا أنفسهم «أنصار السلافية». وقد رغبوا أن يكون التطور الروسي في المستقبل مستنداً على قيم ومؤسسات مشتقة من التاريخ القديم لتلك البلاد. وخلال الثلاثينات من ذلك القرن، حدثت تطورات خاصة أدت بهم إلى الإهتمام بدراسة الفلسفة الألمانية، وتأثروا بشكل واسع بأفكار (فردريك شيلنيك). وفي موسكو اتخذت حركتهم مقراً لها وجذبت إلى صفوفها لفيفاً من المتعلمين والأغنياء من طبقة الأرستقراطية القديمة، فكان من بين أعضائها (الكسي. أ. خومياكوف) والأخوان (قسطنطين. س) و(ايفان. س) أكساكوف. والأخوان (ايفان. ف وبترو. ث كيريفسكي) إضافة الى آخرين من أبرز قادتهم. وقام دعاة الحركة بتغطية مجال عريض من الاهتمامات الفردية الذاتية على مستوى الأبحاث المختلفة بما فيها الفلسفة والتاريخ والدين واللغات والفلكلور. وانتهى الجميع الى نتيجة مفادها أن على روسيا اتباع منهج محدد مستوحى من تاريخها وخصائصها المميزة.

ورأى السلافيون أن أوروبا الغربية التي تبنت الكاثوليكية الرومية والبروتستانتية كعقيدة هي مفلسة أخلاقياً وأدبياً. وما السياسة والمؤسسات الاقتصادية والاجتماعية والحكومية الغربية إلا طفرة في مجتمع غير متكامل.

غير ما هو الحال نسبة للشعب الروسي الذي اعتنق العقيدة الأرثوذوكسية.

وهكذا وطبقاً لآرائهم ومن خلال عقائدهم المشتركة، ودور الكنيسة، فإن الشعب الروسي حسب ادعائهم هو متماسك القوام كمجتمع نصراني حددت الصلات الطبيعية والتناسقية والإنسانية له. وضمن هذا المجتمع الروحي يستطيع الفرد أن يجد الحرية الحقيقية بالإقلال من شأن أنانيته إزاء روح التعاون. ولا حاجة للسلطة أو القسر المتجسد في النظم الغربية.

واعتبر أنصار السلافية المجتمع الريفي الزراعي، الممثل النزيه للمجتمع النصراني: واعتقدوا بأفضلية الشكل الديني الأوتوقراطي للحكومة، وأنه الرابط الشعبي الأنسب إذ بإمكانه حفظ العلاقات المتبادلة غير المتداخلة. بينما البقية من أفراد المجتمع الآخرين هم قادرون على التمتع بالحرية الحقيقية في مؤسساتهم الطبيعية.

إن روسيا في نظرهم تملك القدرة الحقيقية على التطور طبقاً لـ(مجتمعها النصراني). وظنوا أيضاً أن قيام مجتمع نصراني حقيقي يجعل الواجب الأساسي لروسيا، حث الغرب على إعادة استئناف القيم الروحية محل الدعوات العنصرية والمادية والفردية.

ولكن أدرك هؤلاء أن مجتمعهم المعاصر لا يمثل مثاليتهم. وأن بطرس الأكبر الذي أدخل الإصلاحات الى بلاده تقليداً للغرب، قد أفسد روسيا ودق إسفينا عميقاً بين القرويين والنبلاء، وقلب الصلات الاجتماعية الطبيعية. واحتقروا شكل الدولة البيروقراطي الذي نظم تحت حكمه كما استنكروا إصلاحات كنيسته التي تعهدت السلطة الروحية.

ولكي ينجز المجتمع الروسي الصحيح، وتجدد الأوتوقراطية والكنيسة، بشكل مثالي فإنهم دعوا إلى الاصلاحات الفعالة بما فيها تحرير الأقنان وإلغاء

البيروقراطية، ومنح الحريات المدنية وإقامة المؤسسات التي تمثل كافة الشعب.

ورغم تحبيذهم بحماس، لبعض أوجه المجتمع الروسي وتبنيهم لآراء تشابه أو تضاهي الآراء الحكومية الرسمية من الوجهة القومية والتي تؤكد الصفات الفوقية للشعب الروسي فإن نيقولاي الأول[1] اعترض على انتقاداتهم المريرة لحكمه الذي كان مستنداً على إصلاحات بطرس، وراقبت حكومته مجلاتهم، وحاولت بصورة عامة اخضاع حركتهم. وقام أنصار الغرب بمعارضتهم فكرياً، تلك المجموعة التي تطورت تلقائياً معهم ولكنها أصرت على وجوب تقليد روسيا لنموذج التحديث الغربي.

كان محبو السلافية في أوج نشاطهم خلال الأربعينات من القرن المنصرم. وبعد موت معظم قادتهم في حرب القرم، وإصدار إصلاحات القيصر اسكندر الثاني[2] (١٨٦٠ م)، ضعفت الحركة. وقام القوميون المتطرفون والشعبيون

---

(١) نيقولاي الأول: ولد في ٦ تموز عام ١٧٩٦ م في بوشكين في روسيا وتوفي في ٢ آذار عام ١٨٥٥ م في سان بطرسبورغ (لينينغراد). واهتم في شؤونه بصورة خاصة وتزوج الأميرة كارلوكهالبروسية وقبل أن يرقي الى العرش عام ١٨٢٥ ويصبح امبراطوراً خاض عدة معارك عسكرية. وقد حكم بلاده بصورة أوتوقراطية. وكان حكمه أحد الأنظمة العسكرية والبيروقراطية وانتهى بالهزيمة الروسية في حرب القرم.

(٢) اسكندر الثاني: ولد في ٢٩ نيسان عام ١٨١٨ م وتوفي في ١٣ آذار عام ١٨٨١ م وتولى الحكم من عام ١٨٥٥ م. وهو الإبن الأكبر للامبراطور نيقولاي الأول. وقد نصب أثناء حرب القرم. وقد قام في البداية بعقد السلم لعام ١٨٥٦ م ثم بدأ سلسلة من الإصلاحات الادارية والقضائية والتعليمية وفي مجال السكك الحديدية والنقل والإقتصاد. ورغم اجراءاته التحديثية فإنه تعرض لمحاولات عدة للاغتيال من قبل الثوريين. وامتازت سنواته الأخيرة بميل شديد نحو الجانب المحافظ. وقد تبنى سياسة الرابطة السلافية في السبعينات من القرن المنصرم والتي أدت إلى انتصار على الدولة العثمانية عام ١٨٧٧ - ١٨٧٨ م وأمنت استقلال بلغاريا. وقد جرح نيقولاي بقنبلة ألقاها عليه أحد الإرهابيين الشباب من الثوريين وهو←

الثوريون ودعاة الرابطة السلاڤية باعتناق مبادىء هؤلاء ؛ فبرزوا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي. ومن بينهم تميزت الرابطة السلاڤية، بدعوتها الى خلفية عرقية مشتركة بين شعوب شرقي ووسط شرقي أوروبة السلاڤية المختلفة. وبحثت عن رابط يشد عراها لتحقيق ثقافة ذات أهداف سياسية مشتركة.

نشأت حركة الرابطة السلاڤية في النصف الأول من القرن التاسع عشر على أيدي المثقفين والمدرسين والشعراء والسلاڤ في الجنوب والغرب والذين كانت شعوبهم آنذاك أيضاً تطور إحساساتها القومية وهويتها اللغوية.

وانشغل دعاة الحركة في دراسة الأغاني الشعبية وعادات الفلاحين السلاڤ وفي توضيح التشابهات فيما بينهم ومحاولة تنبيه الإحساس بالوحدة السلاڤية.

وبما أن تلك النشاطات كانت توجه بشكل رئيسي من براغ، فسرعان ما

→ يحاول قتله ولكنه نجا بأعجوبة. وشق طريقه بشجاعة في حينها وجابه الخطر ولكن هذه المحاولة تركت أثراً عميقاً في نفسه الأمر الذي أدى به كما ذكرت التحول الى جهة المحافظين. وقد تمكن أحد وزرائه وقواده الشهيرين التأثير عليه لمدة ثمان سنوات مقبلة وإخافته من أخطار حقيقية أو خيالية ممكنة.

تطابقت مدة التحول الخطير عنده سياسياً مع تحول شخصي آخر لا يقل أهمية عن التحول الأول. فقد بدأت علاقته العاطفية مع أميرة صغيرة السن وقع في غرامها لدرجة شهوانية. ولم يكن من الممكن كتان الأمر، وامتص هذا الحدث طاقات القيصر، وأضعف سلطاته ضمن عائلته. وقد جعل إحساسه بالذنب موقفه عرضة للنقد الشديد من قبل دعاة القومية السلاڤية. وقد استعملوا ضغوطهم عندما تورطت صربيا بالحرب مع العثمانيين كما ذكرت سابقاً وذلك عام ١٨٧٦ م. وعندها عدّ الكسندر ومع كونه دعيَّ السلام البطل المعارض لاضطهاد الشعوب السلافية حينما أعلن الحرب على الدولة العثمانية بعد أقل من سنة واحدة. ولا تزال بلغاريا تحتفظ له بذكرى بوضعها نصبه التذكاري في قلب عاصمتها صوفيا كأحد أجدادهم الذين أوجدوا الإستقلال.

أصبحت تلك المدينة المركز الأول للدعوة السلاڤية في سبيل دراسة التاريخ السلاڤي القديم واللغة.

ثم أخذت الحركة لوناً إضافياً جديداً ذا صبغة سياسية. وبينما كانت امبراطورية النمسا والمجر آخذة بالضعف بسبب الثورة، عقد المؤرخ التشيكي (فران تشيك بالاكي) مؤتمراً سلاڤياً في براغ في حزيران من عام ١٨٤٨ م الموافق١٢٦٤ هـ وحضر ممثلون من كافة القوميات السلاڤية التي تحكمها النمسا. وقصد المؤتمر تنظيم الجهود من أجل إجبار الإمبراطور على نقل سلطته الى اتحاد يجمع بين شعوب متساوية تحت حكم آل هبسبورغ الديموقراطي.

ورغم أن المؤتمر لم يحقق إلا القليل فقد بقيت الحركة نشطة وازدادت شعبيتها في حوالي الستينات من القرن المنصرم، وخاصة في روسيا التي نظروا إليها كرائدة وحامية لهم من الدولة العثمانية وامبراطورية النمسا والمجر.

وفي هذه الحالة قام دعاة السلاڤية من الروس بتغيير الأسس النظرية للحركة. وتبنوا فكرة (أنصار السلاڤية) السابقة الذكر. وان رسالة روسيا لا يمكن تحقيقها دون دعم الشعوب السلاڤية) الأخرى التي يجب أن تتحرر من السيادة العثمانية والنمساوية وتتحد في رابطة روسية شبه اتحادية.

ورغم عدم مساندة الحكومات الروسية رسمياً لهذا الرأي فإن الكثير من رجال الدولة الروسية البارزين في وزارة الخارجية بما فيهم ممثليهم في الآستانة المتحمسين لهم، نجحوا في جر صربيا وروسيا إلى الحرب ضد الدولة العثمانية في عام ١٨٧٦ م الموافق ١٢٩٣ هـ إبان الحرب التركية العثمانية. وأصبح القيصر الروسي اسكندر البطل المعارض حسب قولهم لما دعوه باضطهاد الشعوب السلاڤية.

حروب البلقان :

بعد أن تسلمت تركيا الفتاة[1] السلطة في عام ١٣٢٦ هـ دعت البرلمان لعقد جلسة في العاصمة استانبول. وبما أن سكان البوسنة والهرسك كانوا لا يزالون يعدون رسمياً من الرعايا العثمانيين. فقد اقتضى الأمر مثول مندوبهم الى العاصمة وحضور جلسات المجلس، أو أن يرفضوا الدعوة وينحازوا إلى جانب نظرائهم في بلاد الصرب المعادية للنمسا، الأمر الذي أدى إلى إثارة النمسا والمجر التي رأت ضرورة ضم البوسنة والهرسك فوراً إلى بلادها. وللحصول على موافقة الروس على هذه الخطوة قام وزير خارجيتها بإجراء محادثات مع (أيزفولسكي) وزير خارجية روسيا في أيلول من عام ١٣٢٧ هـ مسبقاً. وقدم للروس تأييد بلاده لاقتراح يقضي بفتح المضائق أمامهم لمدة طويلة مقابل تأييد هذه الخطوة. وقامت النمسا بعد ذلك بإعلان ضمها البوسنة والهرسك، وقبل أن تتمكن روسيا من كسب موافقة القوى الكبرى الأخرى إلى جانبها في تأييد فتح المضائق التي لم تكن في الحقيقة قريبة المنال.

ومضت أسابيع من التوتر والروس في غم شديد أدى بهم إلى دعم الصرب الناقمين. ثم انحنى الروس أمام الإصرار الألماني على مضض واعترفوا بالأمر الواقع أمام ازدياد مشاعر الغضب والعداء الصربي للنمسا والمجر.

ومن جهة أخرى أغاظت مشكلات البوسنة إيطاليا وقادتها ـ نظراً لتوقيع اتفاق سري مع الروس ـ ضد أي تدخل نمساوي أبعد مدى في البلقان.

---

(١) تركيا الفتاة: الإسم الشعبي لجمعية الاتحاد والترقي ـ المجموعة الثورية التي تمردت على حكم السلطان عبد الحميد عام ١٣٢٤ هـ والتي أصبحت بعد ذلك التاريخ الحزب السياسي المهم في الدولة العثمانية. إذ تسلمت السلطة عام ١٣٢٦ هـ. وكان تأسيسها قد جرى في باريس ثم اندمجت مع جمعية الحرية العثمانية التي أوجدت في سالونيك. استبدلت تدريجياً سياستها العثمانية بسياسة تركية قومية وأدخلت النظام العلماني في المدارس الابتدائية والثانوية.

وكان الوضع السياسي صعباً للغاية. إذ ثار الألبانيون الذين كانوا متعاونين مع تركيا الفتاة ضدها من عام ١٣٢٧ حتى ١٣٣٠ هـ. وتوترت من جهة أخرى علاقات التعاون بين كريت واليونان نظراً للمعارضة الأوروبية، الأمر الذي أدى الى سخط عام في صفوف اليونانيين ومهد الطريق لانقلاب عسكري جاء بالقائد السياسي الكريتي (اليثيريوس فينيزيلوس) إلى سدة رئاسة الوزارة. وقامت حكومته بإدخال بعض الإصلاحات وأعادت تنظيم الجيش وعدلت الدستور.

واستمرت مكدونيا في وضعها، كمركز لجذب المطامح القومية عند الصرب والبلغار واليونان. وحالما قامت تركيا الفتاة بمنع الأحزاب السياسية والتنظيمات القومية في مكدونيا، أطلقت العصابات المسلحة المختلفة حربها الفدائية. وتهيأت الفرص لقيام تعاون فعال ضد الأتراك في أيلول من عام ١٩١١ م الموافق ١٣٢٩ هـ حينما نشبت الحرب بين تركيا وايطاليا في طرابلس الغرب.

تطلبت الحرب ضد الدولة العثمانية تحالفاً بلقانياً شاملاً. فبدأت المفاوضات الصربية البلغارية ولكنها تعرضت لعراقيل سببها الخلاف بشأن تقسيم مكدونيا. وفي أيار من عام ١٣٣٠ هـ توصل اليونانيون والبلغار الى اتفاق لم يمس المشكلة المحددة. وانضم الجبل الأسود أخيراً إلى التحالف الذي جند قوة عسكرية قدر قوامها بـ ٧٥٠ ألف رجل. وهناك وحد الاستعمار أحقاده على الأتراك وابتدأت الحرب في تشرين الأول، بعد تصريح الجبل الأسود حول الحرب ضد الأتراك. ودخل أعضاء التحالف البلقاني الحرب ضد تركيا بعد عشرة أيام. وسرعان ما حققوا انتصاراً وخاصة بعد استعمالهم الطائرات ولأول مرة. وقد قصفت أدرنه فعلاً. وهزم الصربيون العثمانيين في

(كومانوڤو)[١]. وانضموا الى قوات الجبل الأسود ليدخلوا سكوبيا[٢] معاً. كما حققوا نصراً آخر في موناستر[٣]. ووصلوا الأدرياتيك.

أما البلغاريون فاستطاعوا هزيمة القوة العثمانية الرئيسية في (قرق لارلي)[٤] و(لولي برغاز)[٥] وتقدموا إلى خطوط (جاتالكا) أمام القسطنطينية. واستولى اليونانيون على سالونيك[٦] وفرضوا حصاراً على (إيونينا)[٧]. وبذلك فقد فقدت الدولة العثمانية سيطرتها على كافة أراضيها في أوروبا عدا شريطاً صغيراً حول العاصمة. وجرت الموافقة على استقلال ألبانيا وقسمت الأراضي الباقية بين قوى البلقان الحاقدة.

وقد توصل المتحاربون الى هدنة وافتتحت مفاوضات السلام في لندن في ١٦ كانون الأول.

إثر الانتصارات البلقانية المتحالفة شعرت النمسا بضرر كبير لحق مصالحها وردت بعنف وطالبت بانسحاب القوات الصربية من الساحل الألباني. وتطور الصراع النمساوي الصربي بشكل تلقائي إلى صراع نمساوي روسي.

وفي مؤتمر السفراء الذي عقد في لندن بت في الأزمة حيث اعترف المؤتمر

---

(١) كوما نوڤو: قرية تقع اليوم في يوغوسلاڤيا إلى الشمال الشرقي من سكوبيا عاصمة مكدونيا ـ جمهورية يوغوسلافية ـ وعلى مقربة منها.

(٢) سكوبيا: عاصمة جمهورية مكدونيا اليوغوسلاڤية. قريبة من الحدود الألبانية الشرقية.

(٣) موناستر: قرية تقع جنوب يوغوسلاڤيا قرب الحدود الألبانية.

(٤) قرق لارلي: بلدة تقع اليوم في تركيا الأوروبية شمالي شرق أدرنه.

(٥) لولي برغاز: قرية تقع شرق أدرنه في منتصف المسافة تقريباً بينها وبين استانبول.

(٦) سالونيك: مدينة يونانية ضخمة وعاصمة مكدونيا وميناء هام على الأدرياتيك تمتاز بصناعاتها ومتاحفها وجامعتها والآثار اليونانية القديمة.

(٧) إيونينا: عاصمة مقاطعة ابيروس اليونانية وهي جميلة الموقع على شاطىء أحد البحيرات وعلى جزيرة صخرية وسط البحيرة لا تزال تبدو بعض الآثار العثمانية مثل قصر الباشا والقلعة.

بالدولة الألبانية الجديدة وأجبر صربيا على سحب قواتها من الأدرياتيك.

وفي نهاية كانون الثاني عام ١٩١٣م الموافق ١٣٣١ هـ وبعد انقلاب عسكري حدث في استانبول من قبل ضباط تركيا الفتاة القوميين استؤنفت الحرب مع الدولة العثمانية. وكان الحلفاء البلقانيون مرة أخرى في وضع المنتصر. وسقطت (إيونينا) بأيدي اليونان وأدرنه بأيدي البلغار. وبرزت أزمات أخرى عندما رفض الجبل الأسود ترك أشقودره التي أعطاها مؤتمر لندن لألبانيا. وتحت تهديد الأسطول البحري الأوروبي أجبر الجبليون على الاستسلام، إذ حاصر سواحلهم. ثم وقعت معاهدة سلام في لندن بتاريخ ٣ أيار ١٩١٣م وأعطيت كافة الأراضي الواقعة غرب خط أنتز ـ ميدي للحلفاء البلقانيين. واتحدت كريت مع اليونان وأدت التسوية السلمية للأراضي إلى نزاع بين هؤلاء الحلفاء. فرفضت صربيا إعطاء الأجزاء من مكدونيا المخولة من قبل معاهدة ١٩١٢ لبلغاريا بدعوى إجبارها السابق على الانسحاب من الأدرياتيك. وحدث صراع مرير بين اليونانيين والبلغاريين حول سالونيك وتراقيا.

كان من نتائج الحرب حصول اليونان على سالونيك وكاڤالا[١] وجزءاً كبيراً من ساحل مكدونيا وحصول الصرب على الجزء الشمالي والأوسط من مكدونيا. أما الجبل الأسود فقد كسبت جزءاً من سنجق نوڤي بازار وأصبحت تشغل حدوداً مشتركة مع الصرب. واحتفظت بلغاريا بجزء من مكدونيا الشرقية. وحصلت رومانيا على دوبرجه[٢] وانتهى الحكم العثماني الطويل في البلقان. وبذلك يكون الأتراك قد فقدوا ٨٣٪ من الأراضي و٦٩٪ من السكان في الولايات الأوروبية.

---

(١) كاڤالا: بلدة تقع شمال شرقي اليونان وعلى الشاطىء الشمالي من بحر ايجه.

(٢) دوبرجه: تقع اليوم في المجر قرب الحدود الرومانية.

أما الخاسر الأكبر إذا ما صرفنا النظر عن تركيا فكان امبراطورية النمسا والمجر. وقد جعل تقسيم سنجق نوفي بازار بين صربيا والجبل الأسود من المستحيل حدوث التدخل النمساوي المجري في الأزمات التي تلت في حزيران وتموز من عام ١٣٣٢ هـ في البلقان نتيجة لاحتلال السنجق. ونبه نجاح صربيا والجبل الأسود الحركة اليوغوسلافية وحفزها على الاتحاد في امبراطورية هبسبورغ. وغيرت الحرب خارطة البلقان فاستاءت بلغاريا وتطلعت الى النمسا والمجر من أجل المساعدة، بينما تحولت رومانيا بعيداً عن حلفائها واتجهت نحو روسيا.

أما النتيجة التحذيرية الكبيرة فكانت نمو التوتر بين النمسا والمجر وصربيا إذ كان للصرب مطاليب معينة في الأراضي الألبانية وقد حصلت على تأكيد ألماني بالمساعدة. وتخلت النمسا والمجر في تشرين أول ١٩١٣ م عن إنذار نهائي قدمته لإجبار الصرب على الانسحاب من خط الحدود الألباني. ومع ذلك فإن المسألة السلافية الجنوبية للنمسا والمجر لم تحل. وظهرت مرة أخرى بالبوسنة حيث تبع هذا الحادث إنذار نهائي نمساوي مجري وإعلان الحرب على الصرب ونشوب الحرب العالمية الأولى.

الفصل التاسع

الأتراك والروس

منذ الحرب العالمية الأولى

العلاقات العثمانية الروسية والحرب العالمية الأولى

في يوم ٢٨ حزيران من عام ١٩١٤ م الموافق ١٣٣٢ هـ تزوج الأرشيدوق فرانسوا فرديناند ولي عهد امبراطورية آل هبسبورغ من الكونتيسة صوفي شوتيك وهو يأتي في الترتيب الثاني لإرتقاء العرش ويصبح بذلك امبراطوراً للنمسا والمجر. ولم تكن تلك المرأة أهلاً للإقتران به اجتماعياً، الأمر الذي أدى الى تشاؤم بين صفوف الأسرة المالكة في أوروبا.

وقرر الأرشيدوق القيام بجولة تفتيشية على الجيش في البوسنة حيث أتاحت له الأنظمة آنذاك ركوب عربة مكشوفة والكونتيسة برفقته. ولم يكن يدري أن يوم زفافه هذا سيكون يوم منيته. وكانت مقاطعة البوسنة والهرسك إحدى الممتلكات التي استحوذ عليها آل هبسبورغ وسكانها من السلاف الجنوبيين والصرب والكرواتيين، فلم يرق لكثير من سكانها وخاصة الشباب منهم انضمام بلادهم الى جانب النمسا عوضاً عن صربيا التي اعتبروها دولتهم القومية، وقاموا بمحاولات فاشلة لاغتيال الضباط النمساويين وكبار أفراد

أسرة هبسبورغ . اجتمع نفر من الطلبة حين أذيع نبأ الزيارة وقرروا إطلاق الرصاص على موكبهما بتشجيع من جمعية صربية كانت تعمل في الخفاء .

وسار الموكب عبر الشارع الرئيسي في سيراجيفو . فألقيت قنبلة على الموكب ولكنها فشلت في تحقيق الهدف وعبرت عن الكراهية الدفينة لرجل من أسرة مالكة تحكم الصرب وهي وافدة عليهم . وروعت الزوجة كثيراً ، ولكن الأرشيدوق اعتبر المحاولة صبيانية ، وقرر مغادرة المدينة . وتوقفت العربة في منعطف آنذاك . وهنا قفز أحد الطلبة إليها وصرع الأرشيدوق بطلقة واحدة واستدار إلى الزوجة وأطلق عليها رصاصة أخرى فماتت في الحال وبذلك تم الإغتيال . كانت روسيا وراء الأسباب الحقيقية التي أشعلت فتيل الحرب العالمية الأولى بتأجيجها نار التعصب السلافي في البلقان . وهي التي حركت دوله ولم تسمح بإذلال صربيا لاعتبار نفسها الرّاعي القوي للدول السلافية .

ومهما كانت أسباب الحرب فإن حكام امبراطورية النمسا والمجر التفتوا نحو حليفتهم ألمانيا وطمأنهم القيصر الألماني (ولهلم الثاني) ومستشاره (بيتمان) بتقديم المساعدة إذا ما حاول الروس تأييد جانب الصرب . ورغم قبول الحكومة الصربية للإنذار الموجه إليها من النمسا فلم يرض حكام الإمبراطورية . وانقطعت العلاقات الديبلوماسية بينهما وأعلنت الحرب في اليوم التالي .

لم يسمح الروس بتهديد منافذهم الى البحر الأبيض المتوسط فيما إذا سيطرت ألمانيا والنمسا على البلقان ، ولكنهم لم يتوقعوا انفلات زمام الأمور إلى هذا الحد .

كانت روسيا في بداية الحرب تشكل خضماً من البشر قوامه الفلاحين والقوزاق ،وتعدد الشعوب التي ألهبتها سياط مالكي السلطة ، وساقتها عصا

القيصر إلى حتفها بالقوة المستحكمة من جهة وبتفشي الجهل من جهة أخرى . وهاتان هما الدعامتان الأساسيتان اللتان يستخدمها كل ملك متجبر وطاغية مستبد . وكان الروس أقرب الى الأقنان . وبلادهم نهباً موزعاً بين استثمارات أوروبا الغربية والكنيسة المتحالفة مع القيصر في إذلالها للشعب .

وقد هدف الألمان من قتال الروس إبعادهم عن الساحة لعل الحلفاء الغربيين يقنعون بضرورة المساومة على إنهاء الحرب بشروط عادلة لمصلحتهم .

وألمحت الحكومة الألمانية إلى القيصر أنها تود عقد الصلح معه على أساس الموقف الراهن آنذاك ، ولكنه لم يستجب لذلك . وظل مخلصاً للفرنسيين وهو يخشى تزعزع مركزه في بلاده إذا ما قبل بما هو أقل من النصر . بذا كان الموقف الروسي عجيباً فهي لا تستطيع كسب الحرب ولا التخلي عنها . أما تدخلهم في شؤون الدولة العثمانية آنذاك فقد كان له بالغ الأثر . وما أن أخمدت نار الحرب البلقانية حتى قاموا بتحريض الأرمن على الثورة . كما أنهم طالبوا بمنح ولايات الأناضول الشرقية امتيازات كما هو الحال في لبنان ، ومع ذلك فإن الأتراك دخلوا في مفاوضات معهم على هذا الأساس . ولكن تدخل الألمان حال دون الحصول على نتائج تذكر .

وفي شباط من عام ١٩١٤ م وقع الصدر الأعظم « سعيد حليم باشا » اتفاقاً مع روسيا قضى بتقسيم الولايات الشرقية الى منطقتين . على أن يعين في كل منطقة مفتش عام من رعايا الدول الصغرى ، وأن يمنح النصارى وهم أقلية ضئيلة في جميع الولايات المذكورة حق تعيينهم في المجالس الإدارية وأن تكون كل الوظائف الادارية والعدلية والعسكرية مناصفة بين المسلمين والنصارى .

وقام الأكراد بثورتهم وكانت روسيا وراءهم وثبت بالدليل القاطع أنها هي التي حرضتهم .

تركيا والموقف الدولي:

كان الصدر الأعظم « سعيد حليم باشا » لا يثق في أوروبا الأمر الذي أثر على السياسة الخارجية ، ولكنه سرعان ما اصطدم بالأمر الواقع فإما الإنضمام إلى انكلترا وروسيا وفرنسا وإما إلى ألمانيا والنمسا وإيطاليا .

ولكن العداء المستحكم بين العثمانيين والروس جعل الأتراك يعتقدون أن الخطر الروسي على بلادهم أعظم بكثير من الخطر الأوروبي ، فلذلك فضلوا الإنحياز الى الجبهة المضادة لروسيا . ومما زاد في كرههم لروسيا عرضها اقتراحاً بعقد اتفاق معهم يجعل الدولة العثمانية تحت الحماية الروسية .

ومن جانب آخر كانت تدور مفاوضات بين تركيا وألمانيا سراً حتى أن الألمان أنفسهم حاولوا تقريب وجهات النظر بين اليونانيين والأتراك بعد فشلهم في معركة المارن واحتلال باريس ، وتقدم الجيش الروسي في بروسيا ومن ثم فشله وانسحابه . عند ذلك أصبح من الضروري لدى الأتراك القيام بعملية عسكرية في البحر الأسود على حدود القوقاز كي تضطر روسيا الى سحب بعض قواتها من الجبهة الألمانية والجبهة النمساوية الى الجبهة العثمانية فيخف الضغط عن ألمانيا والنمسا .

ولكن أنور باشا لم يوفق في حمل مجلس الوزراء على إقرار خطته وتذرع بالحيلة كي يفرض الأمر الواقع .

وأراد الألمان حمل السلطة العثمانية على دخول الحرب مهما كانت السبل . وبعد أخذ ورد بين الوزراء العثمانيين ومجادلات طويلة كانت أثناءها الحكومة في ضائقة مالية شديدة فاضطرت الى الطلب من ألمانيا مبلغاً قدره خمسة ملايين ليرة . واشترط الألمان دخول الدولة العثمانية الحرب الى جانبهم وقبل الباب العالي بذلك .

ووصلت السبائك الذهبية المطلوبة فعلاً . واجتمع مجلس الحرب العثماني في ٢٥ تشرين الأول ١٩١٥ م ونظر في اقتراح قدمه أنور باشا طالب بدخول الحرب الى جانب الألمان فكان بين مؤيد ومعارض . وانقسم المجلس واتسع الخلاف ، فتوسط البعض ووضعت القوات البحرية العثمانية تحت تصرف وزارة البحرية وقائد قوات الجيش أنور .

وفي اليوم نفسه أرسل أنور باعتباره وكيل القائد العام أوامر سرية وسريعة إلى كافة القادة في الاسطول البحري تقضي بتنفيذهم أوامر الأميرال سوشون دون قيد أو شرط . وتشير الوثائق الى أن معركة البحر الأسود قد تم الاتفاق عليها بين الألمان وأنور منذ تاريخ ٢٢ تشرين الأول وقد حصل لدى الروس علم بها .

المعركة البحرية:

وفي ٢٩ تشرين الأول وقعت المعركة ، ولكن كتمت أخبارها عن الرأي العام لمدة يومين حتى ان الوزراء لم يكونوا على علم بها إلى أن نشرتها شركة البرقيات العثمانية . وفي ٢٩ من الشهر نفسه تلقى الأميرال الروسي برقية من أوديسا[1] تفيدان بأن قطعتين من قطع الأسطول العثماني دخلتا في الساعة الثالثة تماماً إلى مرفأ المدينة وأغرقتا الطراد الروسي (دويتر) الذي كان على غير استعداد ، فقابلهما الطراد (كومونيتر) وأطلق مدفعيته الأمر الذي أدى إلى انسحابهما .

وأصدر الأميرال الروسي فوراً تعاليمه اللازمة . ثم شوهدت الدارعة (غوبن) في الساعة السابعة تماماً تتقدم نحو سيباستيبول . وأطلقت قنابلها لمدة ٢٠

(١) أوديسا : مدينة في الاتحاد السوفياتي اليوم . تقع على الساحل الشمالي الغربي من البحر الأسود .

دقيقة على المدينة وانسحبت. وأغرقت في طريق انسحابها باخرة النقليات (باروت).

وفي الوقت نفسه كانت تدور معركة بين (برسلو) والدارعة (كيفاتودوسيا) وبين (حميدية) و (توفورسك).

إثر هذه المعركة البحرية دخل الأتراك الحرب.

وزار السفير الانكليزي والسفير الفرنسي السفير الروسي في الآستانة واتفقوا على توجيه إنذار للدولة العثمانية بعد أن استأذنوا حكوماتهم - يقضي بطرد البحارة والضباط الألمان من الأسطول العثماني، أو أنهم يغادرون العاصمة.

وغادر السفراء الثلاثة الآستانة رغم محاولات الصدر الأعظم لإقناعهم.

وكانت حكومة القيصر الروسي تخشى من انضمام تركيا الى جانب الحلفاء أو الوقوف على الحياد لأنها ستضطر حينذاك الى عدم التدخل في شؤون الدولة العثمانية تحت ضغط الانكليز والفرنسيين وإلى فقدان أملها القديم بالاستيلاء على الآستانة. وقد كتب (سازانوف) وزير الخارجية الروسي آنذاك إلى ملحقه العسكري في الآستانة. وفيما يقول: «... ما دمنا لم نأخذ جواباً من بلغاريا عن موقفها في الحرب الحاضرة، فجرب في أحاديثك مع أنور أن تكسب الوقت لأننا لا نخشى من هجوم تركيا علينا أبداً ...».

وتضاربت آراء الحلفاء بشأن دخول الأتراك الحرب. ورغبت فرنسا في عدم دخولهم الى جانب القوى الحليفة وفي ذهنها الحرص على مصالحها وأطماعها في البلاد العثمانية. أما الانكليز فرغبوا في انضمام الاتراك الى جانبهم نظراً لمقتضيات مصالحهم.

الحرب في القوقاز:

كان عدد القوات التركية بعد البدء في التعبئة العامة في صيف عام ١٣٣٢ هـ قرابة النصف مليون جندي يحملون السلاح. يضاف إليهم ربع مليون آخرين تحت التدريب العسكري. وبلغ تعداد القوة العسكرية حول الدردنيل والآستانة حوالي ٢٠٠ ألف جندي. وتمركز خمسون ألفاً في تراقيا وأربعون ألفاً آخرين في فلسطين، إضافة إلى قوات أخرى من العشائر وقطعات متناثرة في القوقاز وسوريا وغيرها.

كان الرأي السائد لدى الحلفاء أن تلك الجبهة لن تحرك ساكناً ضد روسيا طيلة فصل الشتاء المعروف بقساوته وشدته هناك. إضافة الى غموض موقف اليونان والبلغار. ولكن الأتراك، وبقصد مناصرة حليفتهم ألمانيا وتخفيف الضغط عنها، استجابوا لمنشادتها كما ذكرت سابقاً. وفتحوا الجبهة بتضحيات جبارة رغم وعورة المسالك الجبلية ورداءة الأحوال الجوية. وأصدروا أوامرهم بالهجوم. وقد اتخذوا مدينة أرضروم[1] قاعدة لهم وتولى أنور باشا بنفسه قيادة الجيش الذي بلغ تعداده حوالي المائة والخمسين ألف جندي. وحاول تطبيق الأساليب الحربية الألمانية، لكنها فشلت لإختلاف طبيعة الأرض وحلول فصل الشتاء.

وكان الروس أول من بدأ المعارك. واجتازت فرقة من جيشهم الحدود في ١٣ تشرين الثاني فأرغمتهم القوات التركية على التراجع بعد أن ألحقت بهم خسارة عظيمة. وفي أواخر تشرين الثاني بدأت القوات التركية بالتقدم نحو روسيا. وحاول أنور تطويق القوات الروسية الزاحفة ولكن عمليته فشلت. وقضى الروس على بعض الفرق واضطر الأتراك في أواسط شهر كانون الثاني

---

(١) أرضروم: مدينة في شرقي تركيا اليوم.

التراجع الى أرضروم مركزهم الرئيسي.

كانت خسارة الأتراك فادحة حقاً. وأخطأت القيادة في توقيت هجومها عبر جبال تعلو حوالي العشرة آلاف قدم عن سطح البحر. ولكن الغاية الحقيقية من وراء ذلك، كانت إجبار روسيا على سحب بعض جنودها من الشرق لتخفيف الضغط عن ألمانيا والنمسا وقد وفقوا في نيلها رغم تكاليف هذا النجاح الباهظة.

الثورة البلشفية والانسحاب من الحرب:

في نيسان من عام ١٩١٧ كانت روسيا القيصرية على وشك الخروج من الحرب وقد ساءت الأحوال الاقتصادية إبان فصل الشتاء لدرجة كبيرة. ونقصت الأغذية وتوالت الهزائم المنكرة في الجبهة. وفسدت الإدارة الحكومية والقيادة العسكرية. وبتأثير المبادىء الجديدة البلشفية رفض بعض القوزاق هذه المرة مساندة السلطة.. وقام الثائرون بالسيطرة على بطرسبورغ وألقي القبض على «القيصر نيقولا الثاني»[1] وهو يحاول العودة من مقر إقامته إلى بطرسبورغ. وأعاده موظفو السكة الحديدية إلى مقر الأركان. وهناك تشاور القادة ونصحوه بالتنازل عن العرش وحدث هذا فعلاً.

عند ذلك تسلم مقاليد الأمور مجلس مؤلف من الجنود والعمال سموا انفسهم

---

(١) نيقولا الثاني: ولد في ١٨ مارس عام ١٨٦٨ م في مدينة بوشكين. وتوفي في ٢٩ تموز عام ١٩١٨ م في مدينة سفيردلوفسكي. وهو آخر امبراطور روسي وقد تم اعدامه بأيدي البولشفيك بعد أن تمكنوا من السيطرة.
تزوج عام ١٨٩٤ م من امرأة تنتمي لعائلة كبيرة وهي الأميرة الألمانية الكساندرا. ورقي إلى العرش عام ١٨٩٥ وأدعى بأنه الحاكم ذو الحق المقدس. وبعد هزيمة بلاده بالحرب الروسية اليابانية عام ١٩٠٤ - ١٩٠٥ م أجبر على الموافقة على الدستور. وفي عام ١٩١٧ وعندما تبين أن النصر الألماني على روسيا هو محتوم فإنه خلع من قبل الثوريين ثم قتل هو وعائلته في السنة اللاحقة.

(سوفييت) وعهد الى حكومة ليبرالية برئاسة (كيرنسكي)[1] إدارة شؤون البلاد. وحدثت هذه الأمور وروسيا لم تنسحب بعد من الحرب. وهلل البريطانيون والفرنسيون للثورة، واستبشروا بقرب سحق ألمانيا وكان ذلك خطأً. واستمر الموقف غامضاً.

ووصل لينين الى بطرسبورغ وكان بنظرهم البطل الملهم (رغم أن أعداءه ينعتونه بمعاناة مركب النقص الذي أدى به الى العنف وأنه يهودي متنصر في طبعه شراسة اليهود وحقدهم وأدى به ذلك الى القضاء على خصومه بطريقة عنيفة وأراق الدماء أنهاراً وأعلن الانسحاب من الحرب عن جبن وخوف من الثورة المضادة لا حباً في السلام وحقناً للدماء التي أزهقها في شوارع وأرياف روسيا).

---

(١) كيرنسكي: هو الكسندر ڤيودوروفتش. ولد في ٢٢ نيسان ١٨٨١ م في سمبرسك وتوفي في ١١ حزيران عام ١٩٧٠ م في مدينة نيويورك سيتي. وهو اشتراكي ثوري معتدل ترأس حكومة إقليمية روسية من حزيران حتى تشرين الأول عام ١٩١٧. وهو محام بارز دافع عن الثوريين وخاصة منهم المتهمين السياسيين. ثم انتخب عام ١٩١٢ م كممثل في الدوما الرابع عن ڤولسكا (في ولاية ساراتوف). وخلافاً لبعض الاشتراكيين الراديكاليين، فإنه دعم اشتراك روسيا في الحرب العالمية الأولى. وبعد نشوب الثورة الشيوعية قام بالدعوة لحل الملكية وإنهائها. ثم تقبل بحماس المهمات المسندة إليه كنائب لرئيس مجلس سوفيت بتروغراد ومنصب وزير العدل في الحكومة الإقليمية التي تشكلت من قبل الدوما. ثم أصبح أحد المعروفين على نطاق واسع وخاصة على الصعيد الشعبي وضمن أوساط القيادة الثورية. ثم تقلد منصب وزير الحرب والأسطول ومن ثم رئيساً للوزراء وتحالف مع المعتدلين وبعض الضباط. ثم فقد ثقة الجناح اليساري لرفضه تطبيق برنامجهم الاقتصادي والسياسي.

ذهب كيرنسكي إلى الجبهة حينما قبض البولشفيك على أزمة الحكم وكان غير قادر على حشد القوى التي بإمكانها تعزيز سلطته والدفاع عن حكومته. واختبأ إثر ذلك حتى عام ١٩١٨ م حيث هرب إلى غربي أوروبا وانتقل من هناك إلى الولايات المتحدة الأميركية عام ١٩٤٠ م. حاضر في عدة جامعات في أميركا وكتب عن خبراته الاشتراكية حتى وفاته.

وقبل وصوله كان طريد العدالة القيصرية . منفياً في زوريخ . واتصلت به القيادة الألمانية وعرضت عليه هذا السفر لمصلحتها إذ أنه سوف يثير الاضطرابات الداخلية في روسيا مما يؤدي الى ضعفها أمام ألمانيا . وكان قد وضع تحت تصرفه قطار خاص مغلق سريع وصل به الى بطرسبورغ .

وهناك وجد الحكومة تصر على الحرب . وكان رأيه أنها يجب أن تصر على تحقيق الإصلاح الاجتماعي الروسي . وأنه لا بد من وجود قوة منفذة تزيل الاستغلال طابعها عُسكري وبدأ بتشكيل الجيش الأحمر وسيطر عليه . وساعده الخطيب المفوه والممثل البارع(تروتسكي)[1]الذي عاد من الولايات المتحدة .

ومضت ست أسابيع في بطرسبورغ والقوة الفعلية بيد البلاشفة . بينما كانت ظاهرياً ورسمياً بيد حكومة (كيرنسكي) . وأصدر لينين تعليماته الخطية بضرورة الاستيلاء على الحكم ولكن ذلك لم يحدث فعلاً إلا بعد أن تم بحث القضية . وقرر كيرنسكي البدء في الهجوم ، وأصدر أوامره باغلاق البراڤدا صحيفة البلشفيك فتم الاصطدام مع تروتسكي .

---

(١) تروتسكي : أحد كبار دعاة الاشتراكية والبلشفية ، ثار ضد القيصر فأبعد إلى سيبريا ثم تمكن بعد سنوات قليلة من الهرب وذهب إلى لندن لينضم إلى لينين ويبدأ نشاطاً داخل صفوف حزب العمال الديمقراطي الاشتراكي الروسي . ثم اختلف مع لينين ، وانتحل دوراً قيادياً بعد نشوب الثورة الروسية لعام ١٩٠٥ م ولكن ألقي القبض عليه . وبينما كان يمضي حياته في السجن كتب العديد من الأبحاث . واستطاع الهرب من السجن مرة ثانية ليستأنف نشاطه الثوري في أوروبا والولايات المتحدة . ثم عاد فانضم إلى لينين مرة أخرى بعد خلع الحكومة الاستعمارية الروسية في شباط عام ١٩١٧ م . وتحت قيادة لينين ومن عام ١٩١٧ حتى ١٩٢٤ م كان مفوض الشؤون الخارجية والحرب ، فأسَّس الجيش الأحمر الذي هزم أعداء الحكم السوفييتي . وفي صراع على السلطة جرى بعد موت لينين تمكن ستالين من إحراز النصر وأزاح تروتسكي عن المسرح السياسي ونفاه . وقد بقي قائد للمعارضة الستالينية حتى اغتياله في ٢٠ آب عام ١٩٤٠ م في المكسيك .

وحينما وضعت خطة الاستيلاء على الحكم . وتسلم البلاشفة المؤسسات شيئاً فشيئاً غادر كيرنسكي بطرسبورغ . واحتل الحرس الأحمر وبحارة الدارعة (أورور) قصر الشتاء وألقي القبض على أعضاء حكومة كيرنسكي . وبذلك تمت المرحلة الأخيرة من الثورة .

واجتمع في مساء اليوم نفسه مجلس السوڤييت في (سمولني) وشكل وزارة برئاسة لينين وعين تروتسكي وزيراً للخارجية .

وفي ٨ تشرين الثاني ١٩١٧ م قرأ لينين منشور السلام القاضي بوقف إطلاق النار فوراً في جميع الجبهات في حين رفض الحلفاء الغربيون عرض نظام الحكم الجديد . وبادر لينين منفرداً الى عقد صلح مع ألمانيا . وتم التوصل إلى عقد اتفاقية لوقف الحرب بين الطرفين في ١٥ كانون الأول عام ١٩١٧ م . وأصبحت بريطانيا وفرنسا عدوتين لروسيا ، وفضح البلاشفة نوايا القيصر وبريطانيا وفرنسا بنشرهم الوثائق السرية التي سنقوم بعرض أهم ما يتعلق منها بالتآمر القيصري الروسي على الدولة العثمانية بالتعاون مع الحلفاء .

اتفاقية القسطنطينية :

وقد عقدت في ١٨ آذار من عام ١٩١٥ م وأطرافها روسيا من جهة وفرنسا وبريطانيا من جهة أخرى . وجرى تبادل المذكرات بين الدول الثلاث . ثم جرى الاتفاق على أن تضم روسيا إليها القسطنطينية وساحل البوسفور الغربي وبحر مرمرة ومضايق الدردنيل وتراقية الجنوبية الى خط مينوس - ميديه . وساحل آسيا الصغرى بين البسفور ونهر سقاريه . ونقطة تقع على خليج إزمير تعين فيا بعد . ثم الجزر الكائنة في بحر مرمرة وجزيرتي (أمروز) و(تنيدوس) .

واعترف الروس مقابل ذلك ببعض مطالب بريطانيا وفرنسا في تركيا مثل

جعل القسطنطينية ميناءً حراً للحلفاء . وضمانة الملاحة التجارية في المضائق . وموافقة الروس على الإعتراف بحقوق بريطانيا وفرنسا الخاصة في آسيا التركية بعقد اتفاقية منفصلة . واقتطاع البلاد الإسلامية المقدسة من تركيا ووضعها بعد إضافة بلاد العرب إليها تحت حكم إسلامي مستقل .

معاهدة لندن :

وأطرافها روسيا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا . وهي ثمن دفعه الحلفاء لإيطاليا مقابل انضمامها إلى معسكرهم حيث أعطيت لها السيادة على جزر الدوديكانيز الواقعة قرب الساحل التركي . ونقلت إليها جميع الحقوق والإمتيازات العائدة للسلطان في ليبيا بمقتضى معاهدة لوزان . وبموجبها اعترفت فرنسا وبريطانيا العظمى وروسيا بمصالح ايطاليا في البحر الأبيض المتوسط وفي ولاية أضاليا .

اتفاقية سايكس بيكو :

في أوائل ربيع عام ١٩١٦عرض وزيرا خارجيتي فرنسا وبريطانيا سايكس وبيكو لائحة اتفاقهما على الروس في سان بطرسبورغ وحصلا على مصادقتهم مقابل الاعتراف بمطالب روسية أخرى . وعقدت الاتفاقية رسمياً في ١٦ أيار عام ١٩١٦ وفيها : تحصل روسيا على ولايات أرضروم وطرابزون ووان وتفليس (أرمينية التركية) . وعلى منطقة تقع في شمالي كردستان على الخط الممتد من موش وزعرت وجزيرة ابن عمر والعمادية حتى الحدود الإيرانية . وبلغت مساحة هذه المنطقة ٦٠٠٠٠ ميل مربع ممتدة من البحر الأسود وحتى منطقة الموصل - أورمية . وتحصل فرنسا بموجبها على القطاع الساحلي المشتمل على سوريا وأضنة والمنطقة التي يحدها جنوباً الخط الممتد من عينتاب وماردين وحتى الحدود الروسية المقبلة . وشمالاً الخط الممتد من ألاداغ والماربقيسرية

وآق داغ ويلندرداغ وزاره إلى إجين خربوط . وهي المعروفة باسم كيليكيا . كما تحصل بريطانيا على القسم الجنوبي من بلاد ما بين النهرين مع بغداد ، وعلى ميناءي حيفا وعكا . ويتألف من المنطقة الكائنة بين الممتلكات الفرنسية والبريطانية اتحاد لدول عربية صغيرة أو دولة عربية واحدة . وأن تقسم هذه المنطقة من جديد الى مناطق نفوذ . . .

الأتراك والبلاشفة :

بعد انتصار الثورة الشيوعية الروسية في عام ١٣٣٦ هـ بادرت الى وضع الخطط لسياستها تجاه شعوب آسيا وأفريقيا بصورة عامة والبرامج الخاصة بالمسلمين الأتراك والتركمان كي تهيىء الظروف لبلشفتهم فيا بعد .

وساعد البلاشفة في مخططاتهم هذه ، الحشد الكبير من رجال السياسة والخبراء في الشؤون الشرقية والذين انتظم العديد منهم بعد تحطيم القيصرية في سلك الدعوة الجديدة . كما فرّ الى روسيا بعد انسحابها من الحرب العالمية الأولى بعض رجال الحكم العثمانيين أمثال أنور باشا ورفاقه هرباً من وقوعهم في أيدي الحلفاء المنتصرين في الحرب كما سنرى .

وفي اواخر سنة ١٣٣٧ هـ نظم ديوان الدعوة البلشفية الخاصة بالشعوب الشرقية . وقسم الى ثلاثة أقسام رئيسية : الأول للأقطار الإسلامية ، والثاني للهند ، والثالث للشرق الأقصى . وغرضنا في هذا الكتاب أن نلمح فقط الى ما يخص الأتراك بصورة خاصة . وتوسعت أعمالهم بعد حوالي العام ولقيت لدى العديد من الشعوب المقهورة والمبتلية بشرور الاستعمار الغربي ، إذناً صاغية . فمثلاً أخذت حكومة موسكو تمد يد العون لمصطفى كمال في الأناضول والى بعض الزعماء في بلاد إسلامية أخرى مثل مصر والهند وإيران . ثم ازداد النفوذ البلشفي توسعاً وقوة واحتضن الروس الجدد الحركات الوطنية

متظاهرين بدعمها وتأييدها . وهنا لا بد من تمييز أدوار ثلاثة مرت بها روسيا البلشفية إزاء ما يحدث في العالم الإسلامي بصورة عامة وعند الأتراك بصورة خاصة .

ففي الدور الأول استغلُّوا كراهية الشعوب المقهورة للإستعمار الغربي كما أسلفت وتظاهروا باعترافهم بحق كل أمة بتقرير مصيرها ، وأنهم هم المعين والناصر لها لمقاومة التوسع الأمر الذي حمل العديد من القادة للجنوح نحو لينين على أمل طرد المستعمرين من بلادهم . ولقيت الدعوة بعض النجاح في هذا المضمار . وفي البداية وقفت موسكو موقف المؤيد للشعوب الإسلامية ضد التوسع الغربي . وقد جاء في منشور بلشفي موجه الى الترك وموقع من لينين أواخر عام ١٣٣٨ هـ ما يلي : « ... يا مسلمي العالم الذاهبين ضحايا الإستعمار استيقظوا استيقظوا . إن روسيا قد أقلعت عن سياسة الحكومة القيصرية ... إن روسيا تمد يدها إليكم لتعينكم على تحطيم أغلال الاستبداد البريطاني . إن روسيا تطلق لكم الحرية الدينية ، وحق الحكم الإستقلالي . وتعترف بحدود بلادكم ، الحدود المعروفة قبل الحرب . ولن توافق على إعطاء قطعة من البلاد التركية الى الأرمن ، وتبقى مضائق الدردنيل في أيديكم ، وتظل القسطنطينية عاصمة العالم الإسلامي . ويمنح المسلمون في روسيا الحكم الذاتي التام . إنما جميع ما نطلبه منكم لقاء هذا هو قيامكم بمقاتلة المستعمرين ... » .

وهكذا كانت بداية الأسلوب الروسي البلشفي . ثم أخذت لهجتهم تأخذ طابعاً دعائياً جديداً حيث الدور الثاني في مناوراتهم والذي لم يعتمد فقط على إثارة الحملات ضد الإستعمار بل على إطلاق الصرخات المدوية التي تضمنت تحريضهم سكان البلاد التركية كي يقاوموا الرأسمالية وأبناء الطبقة الوسطى من وطنيين وأجانب . ولوحوا لهم بالوعود البراقة أمثال تحسين أوضاعهم ورفع شأنهم . وفي منشور وجه إلى الأتراك في صيف عام ١٣٣٩ هـ يبدو واضحاً

اختلاف الخطة عن ما سبق وسأقتطف بعضاً من فقراته إذ يقول : « ... إن العمال على اختلاف طبقاتهم ... ليقاتلون اليوم الأغنياء والمتمولين قتالاً شديداً في كل قطر وبلد . وإن أرباب رؤوس الأموال ، وإلى جانبهم الأشراف والأعيان ، يحاولون الآن جهدهم لتصفية العامل التركي ... فيا أيها الزملاء الرفاق هلموا بنا نوحد الغاية والغرض ونسعى وراءهما سعياً متحداً في جميع أقطار العالم ... » .

وشرع الروس في تنفيذ خطتهم الجديدة . وسرعان ما فرضوا بلشفتهم على تركستان فخلعوا أمراءها الوطنيين . ونصبوا عملاءهم وزبانيتهم من البلاشفة المحليين المأجورين وسلبوا أملاك المواطنين وقضوا على المقاومة .

ثم التفتوا الى آذربيجان التي أعلنت استقلالها بعد سقوط الحكم القيصري . وقلبوا حكومتها الوطنية في ربيع عام ١٣٣٩ هـ . وحولوها الى جمهورية سوڤييتية . وسلبوا ونهبوا ونشروا الرعب والهول . وصادروا الأملاك والأموال كما فعل أسلافهم من القياصرة إزاء أبناء تلك البلاد .

ولجأ الروس الى تنفيذ دورهم الثالث الجديد بعد أن رسخت أقدامهم . وأماطوا اللثام عن نوايا أخطر ومخططات أكبر . ودعوا في العام نفسه الى عقد مؤتمر في مدينة باكو[1] دعوه مؤتمر الشعوب الشرقية - عمدوا من ورائه الى بلشفة أبناء هذه الشعوب . ووجهوا منشوراً إليها لحضور المؤتمر الذي لم يكن في الواقع يهدف إلا إلى إثارة الثورة الاجتماعية وليس تحقيق الغايات الوطنية . وحضر ١٩٠٠ عضو الى هناك وبينهم ١٣٠٠ شيوعي ووقف الزعيم البلشفي (زينوڤيف) وألقى خطاباً ومما قال فيه : « ... إننا نحذر أشد الحذر ... متى ما أمسينا على مقربة من المعتقدات الدينية المستقرة في طبقة العمال في الشرق كما

---

(١) ميناء هام على شاطىء بحر قزوين .

في غيره .... يجب عليكم أن لا تأخذوا بنصرة السلطان حتى ولو دعتكم الى ذلك داعيات دينية ... إننا على يقين أن ساعة السلطان قد دنت ... فيجب عليكم أن تقاوموا كل سلطة أوتوقراطية في بلادكم وأن تقلعوا عن كل ثقة لكم بالسلطان ... ومثلما حدث في روسيا سيحدث في تركيا ... عند ذلك يفنى إيمان الشعب بالسلطان وبسادته القابضين منه على الرقاب ... » .

وبذلك كان مؤتمرهم السهم الأول الذي أطلقوه من أجل بلشفة أبناء البلاد الأخرى . فقد تلاه الكثير من مساعيهم في هذا القبيل وخاصة في بلاد القوقاز .

وأثر هذا الخط المبطن الجديد على كافة الأقطار . وحمل أبناءها وخاصة منهم من دخل في حماية الروس على ازدياد نقمتهم وغضبهم . وبدأوا يتحققون من أن البلشفية الروسية ليست بأهون من الاستعمار الغربي بل أشد منه . وقبض الأتراك الكماليون في تركيا على رسل الدعوة الجديدة في الوقت الذي بدأت مناوشات على حدودهم في جهات القوقاز .

غدر روسيا بالقادة العثمانيين :

بعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى وانهيار الجبهة البلغارية والنمساوية رأى أنور باشا المقاومة والبقاء بجانب الألمان حتى يتحقق صلح مقبول . ولكن استقالة الوزارة التي كان يرأسها طلعت وتشكيل المشير أحمد عزت الباشا الأرناؤوطي لوزارة جديدة وطلب الهدنة أحبط مساعي أنور . ولخشيته وخشية رفاقه من بطش الحلفاء وخوفه من المحاكمة قرر هو ورفاقه من قادة العثمانيين في الحرب السفر خارج البلاد . وعزم ثمانية منهم على الهجرة ومنهم أنور وطلعت وجمال باشا . واتجهوا نحو القرم . وسار أنور باشا من هناك إلى القوقاز وفي فكره تجميع المقاومة بين صفوف المسلمين في آذربيجان وطاجكستان . ولكن صعوبات الطريق اضطرته التوجه الى المانيا سراً .

وهناك التقى بالزعيم البلشفي (رادك) واتفقا على العمل في جانب روسيا . وتوجه أنور من هناك الى روسيا جواً فقبض عليه في ليتوانيا . ولكنه استطاع الفرار الى المانيا ثم عاد فاتجه نحو موسكو من جديد . وأقامه الروس في بناء مقابل الكرملين بعد ان اتفقا على العمل معاً . ثم عاد الى برلين ومنها لموسكو لمرتين واختلف في النهاية مع البلشفيك وأثار التركستان عليهم .

تآمر الروس مع مصطفى كمال وأثاروه ضد أنور مثلما أثاروا الآخرين ضده وهم يمنونه الأماني العراض وليستخدموه سلاحاً في يدهم خوفا من سريان أفكاره إلى أرجاء بلاد المسلمين في روسيا وهم يعلمون أنه من كبار الدعاة للجامعة الإسلامية . وأسفر الروس عن وجههم وغايتهم بأن يضربوا به الانكليز فأضمر أنور العداوة لهم وفتح أذنه لأقوال المسلمين التتر الذين نهب البلشفيك أموالهم وأهدروا دماءهم في آذربيجان وقازان وتركستان وطاغستان . وتذرع أنور بالزحف اليوناني في قلب الأناضول واستأذنهم بالسفر الى القوقاز قائلاً : « ... إذا دام تقهقر الأتراك على هذا الشكل أو سقطت أنقرة فلا يسعني إلا تجنيد من يمكنني تجنيدهم واستنفارهم من جهات القوقاز والزحف بهم لمصادمة اليونانيين ... » . فوافق الروس ووصل أنور إلى باطوم[1] . ثم رجع تركستان بعد انتصار مصطفى كمال في معركة سفاريا[2] . ثم دخل بخارى وبطش بالبلاشفة وأتباع الحزب الأميري الموالي لروسيا . وانضم إليه السواد الأعظم من الشعب التركي هناك . ثم مد نفوذه الى فرغانه وجنوه . وانتشرت ثورته في تلك الأرجاء والتحق به قرابة الخمسة آلاف جندي وأسس معملاً

---

(١) باطوم : مدينة تقع اليوم في الإتحاد السوفييتي . على الساحل الشرقي من البحر الأسود قرب الحدود التركية .

(٢) معركة سفاريا : جرت بين الأتراك واليونان عام ١٣٤٠ هـ قرب نهر سقارية الذي ينبع من وسط الأناضول ويصب في البحر الأسود وانتصر فيها الأتراك .

لصنع الخراطيش وهزم الروس في وقائع عدة واحتلت جنوده خمس ولايات.

وجه الروس معظم قوتهم للقبض عليه. وأرسلوا الجحافل الجرارة تتعقبه وجماعته، تحت قيادة قامانيف وبلغ تعدادها قرابة الثانين ألفا. ونقصه السلاح والعتاد فأخذ يتراجع الى الوراء.

وفي أول آب من عام ١٣٤١ هـ كان أنور في بلدة (بالجوان) شرقي بخارى. وقد تفرق الجند عنه بسبب عطلة عيد الأضحى. واستغل الروس هذه الفرصة وخبأوا الرشاشات التي لم يعلم بها. ثم غدروا به في الساعة التاسعة والنصف صباحاً في أول أيام العيد وأردوه قتيلاً بعد أن كان قبل الواقعة بـ ٢٤ ساعة قد استسلم لهطابور كامل من الجيش الروسي. واستمرت حربه لهم ١١ شهراً وأحبه الأهالي حباً جماً.

أما طلعت فقد صرعه الأرمن في برلين غيلة وغدراً من الخلف. وهو الذي مال الى جانب الروس في البداية وحصلت له صلات مع رادك المار الذكر وتفاءل كثيراً بالعمل مع البولشفيك في البداية. ولكنه فطن في النهاية لألاعيبهم وقد صرح مرة: «إن هؤلاء نقضوا كل ما كانوا وعدوا به المسلمين من الإستقلال والحرية. واستأنفوا سياسة بلادهم القومية. أفلا ترى كيف فعلوا بآذربيجان. وضموها ثانية الى الروسيا بعد أن كانوا اعترفوا باستقلالها...»[1].

واغتال البلشفيك جمال باشا كما اغتالوا طلعت عن طريق الجمعيات الأرمنية التي جهزوها لهذا الغرض. لأنهم خافوا أن ينقلب عليهم كما انقلب أنور وطلعت. أو أن يقاوم سياستهم في أفغانستان (كان قد تولى قيادة الجيش هناك بعد أن استقدمه ملك الأفغان). وقد وضعه السوفييت تحت المراقبة

(١) في حديث له مع شكيب ارسلان.

لكثرة مروره من أراضيهم في طريقه الى الأفغان. وفي أحد المرات هبط الى تفليس[1] قاصداً الأناضول وعندها اغتاله الأرمن.

وهكذا دبر الروس له مكيدة القتل رغم ادعائهم بالتنصل.

(١) تفليس: عاصمة كرجستان (جيورجيا) السوفييتية.

فهرس ـ العثمانيون والروس ـ

الموضوع	الصفحة

من منشوراتنا

تاريخ الدولة العثمانية	علي حسون
التجويد وعلوم القرآن	عبد البديع صقر
سعيد بن العاص	محمد الصباغ
سكان العالم الإسلامي	محمود شاكر
تحذير الخواص	السيوطي – الصباغ
تحذير الساجد	ناصر الدين الألباني
تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية	محمد الصباغ
تخريج أحاديث فضائل الشام	الربعي – الألباني
تذكرة دعاة الإسلام	أبو الأعلى المودودي
ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية	محمد كرد علي
الرحلة اليمانية	البركاتي – الشاويش
عظماء مجهولون ١ – ٩	محمود شاكر
عظماؤنا في التاريخ	مصطفى السباعي
فصل الدين عن الدولة	اسماعيل كيلاني
الاستشراق والمستشرقون	مصطفى السباعي
اسعاف الأعيان في أنساب أهل عُمان	سالم السيابي
الإسلام والحضارة الغربية	محمد محمد حسين

نظام الأسرة في الإسلام	محمد أمان
نقد القومية العربية	عبد العزيز بن باز
همجية التعاليم الصهيونية	الأب حنا مسعد
واجب الشباب المسلم	أبو الأعلى المودودي
الوحدة الإسلامية	محمد رشيد رضا
العلم والايمان	يوسف العظم
اقاصيص للشباب	يوسف العظم
التاريخ الاسلامي (الخلفاء الراشدون)	محمود شاكر
الاحساء	محمود شاكر
فطاني	محمود شاكر
في التاريخ الإسلامي	عماد الدين خليل
في رحاب الأقصى	يوسف العظم
أفغانستان	محمود شاكر
أناشيد وأغاريد للجيل المسلم	يوسف العظم
إنسانية الثقافة الإسلامية	عدنان زرزور
إيران	محمود شاكر

إن مطبوعات المكتب الإسلامي تطلب مباشرة على عنوانيه
بيروت: ص.ب ٣٧٧١ - ١١ هاتف ٤٥٠٦٣٨ برقياً (اسلاميا)
دمشق : ص . ب ٨٠٠ هاتف ١١١٦٣٧ برقياً (اسلامي)
وليس للمكتب أي وكلاء أو متعهدين في بيروت أو أي بلد آخر